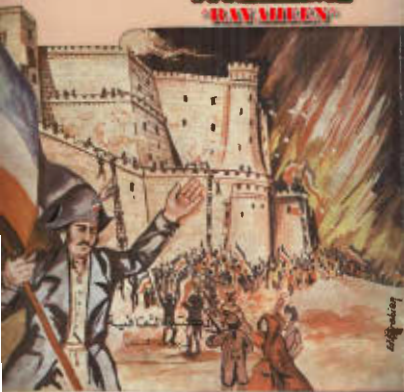


میشیل زیفاکو

شہداء البعصَب

www.milazna.com

RAY VILLEN



شَهَادَةُ التَّعَصُّبِ

تأليف

ميشيل زيفاكو

وترجمة فريد العلم والأدب المرحوم

نقولا زروق السمر

صاحب مجلة الروايات الجديدة

(الطبعة الثالثة منقحة)

الكتبة المتناينة

ببيروت - لبنان

١٩٧٧ - ٨٧٣٧

إذا الصبُّ نادى القوم واجتمعوا يوماً وأيقظ فيهم نائمَ الفتنِ
أفترأ عيارهمُ قتلاً ونهلكةً وصيروا الجَهلَ فوقَ الدينِ والوطنِ

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

أشخاص الرواية

فرنسوا الثاني ، ملك فرنسا ، ولد في ١٥٤٤ ومات ١٥٦٠ .

(وهو بكر هنري الثاني وكاترين دي مديس)

فرنسوا ، دوق دي جيز ، اخو الكردينال دي لورين .

كردينال دي لورين ، وهو شارل دي جيز

لويس دي بوربون ، أمير كوندة ، وزعيم البروتانت

انطوان دي بوربون ، اخو أمير كوندة

حنة دالبرت Jeanne d'Albert ملكة النافار زوجة انطوان دي

بوربون وام هنري الرابع المولود في بو (Pau)

بارون دي باردليان ، من رجال الدوق دي جيز Guises

(جود فروا) لارنودي (La Renaudie) زعيم مؤامرة بروتاتية

قتل في سنة ١٥٦٠ .

لافيرة ، كاتب سر لارنودي .

ماري ستوارت ، زوجة فرنسوا الثاني

كاترين دي مديس ، والدة فرنسوا الثاني

دوق دي مونموراسي ، اكبر قواد فرنسا

نيكول بوصه ، صاحب فندق حملة اللاح

ديانا دي بواتيه Diane de Poitiers ، دوقة فالتينوا ، حبة هنري

الثاني

أسقف بلدة شارتر Chartres

فيكونت شارتر

يعقوب لوم ، صاحب مكتبة في مدينة اورليان

مادلين ، ابنة يعقوب لوم ، بروتستانتية

برنار افيل ، محام باريسي ، بروتستنتي

مرسلين ، زوجة برنار افيل ، كاثوليكية

جاليو دي نرساك ، كان طالب في السربون

برنابا مرفزان ، معلم ومن اساتذة السربون

جان بلترو ، دي ميرة ، بروتستنتي

ترولوس دي مزغونه ، منقذ جاليو من باردليان

الآنسة دي ليمول

لنمال دوزي ، مكرتيرا الكردينال دي لورين

مسيو دي برسان ، حاكم سجن الباستيل

دي جنليس ، جاسوس الدوق دي جيز واخيه الكردينال على امير

كونده Condé

بول دي رشان

اللورد تروكمارتو ، سفير انكلترا

الاميرال دي شاتيليون ، كاثوليكي

دوق دي نافار ، حاكم بلدة امبواز المحصنة ، التي حصلت فيها مذبحه

البروتستانت في ١٥٦٠ ، ثم معاهدة امان في ١٥٦٣ وهذه المذبحه سابقه

المجزرة سان برتلماو في ١٥٧٢ .

مدام بورتو ، زوجة الرئيس الاول لنيابة نانت

الفصل الأول

(فندق حملة السلاح)

كان فندق حملة السلاح الواقع بجوار مدينة نانت ، يملكه رجل يدعى « نيكول بوصه » يختلف باخلاقه عن سائر الرجال كما كان يختلف فندقه عن بقية الفنادق التي في مدينة نانت .

وفانت مدينة تبعد عن باريس ثلاثمائة كيلومتر الى الجنوب الغربي منها ، وقد يزيد سكانها عن مائة وخمسة وعشرين الفا .

وكانت في عهد هذه السيرة ، اي في سنة ١٥٦٠ ، مشهورة بزخارفها ، وتوفر اسباب التأنق فيها .

اما فندق « حملة السلاح » فهو بناء قديم ينتهي تاريخه الى القرن الرابع عشر . وهو سيك الجدران ضخم الابواب المغطاة بالمسامير الغليظة . وكانت نوافذه مشبكة بقضبان الحديد كنوافذ سجن او قلعة متيعة او حصن حصين .

وكان « نيكول بوصه » صاحب الفندق ، مفاخرها به معتزا ولا اعتزاز ملك فرنساوين بقصر اللوفر .

وكان يقيم في الفندق قبله رجل دأبه المراهبة اي اعطاء ماله بالرباء
الفاحش ، يعيش بفضل ديونه * ثم باع الفندق الى ماروك « بوصه » عم
نيكول ، وكان يلقب نفسه كذبا بالقائد مع انه لم يلبس لباس الجند قط
حتى مات عام ١٥٥١ *

فما عثم ان ابصر سكان تلك الناحية رجلا باذن الجسم طويل القامة
احمر الوجه والشعر ، زري اللباس ، تلوح عليه امارات الخبث والشر
والفقر المدقع ، لكن معه اوراق صحيحة تشهد بنسبه الى عمه ، وثبتت
حقه في وراثته * وكان هذا الرجل « نيكول » الذي لم تذرف عيناه دمعة
واحدة على ضريح ذلك الفقيد الذي ترك له كل ما ملكت يده من دنياه *
واراه الثرى ولم ينس بكلمة تقوم مقام تأبين للميت او وداع للراحل ،
لكنه مضى الى يته ، اي الى ذلك البيت الذي ورثه عن عمه الفقيد ، فعمد
الى مخزن المؤونة والقوت يتعمده بعناية لا مزيد عليها ، ويحقق النظر في
محتوياته *

ووقعت يده على زجاجات عديدة ملأى بفاخر النبيذ وعتيق الخمر ،
كاسية بالبخار لتقادم عهدها ، شاهدة بان الفقيد المنتقل الى رحمة ربه كان
من اشد المخلصين في خدمة « باخوس » اله الخمر ورب المسكرات والسكر
فافتض « نيكول » اختام بعض هاتيك الزجاجات ، وذاقها مرارا
وتكرارا ليعدل في الحكم لها او عليها ، وييدي رأيا صالحا في جودتها او
رداءتها ، فتمشت الخمر في مفاصله ، ودبت في عظامه واوصاله * ومما لا
ريب فيه ان العم « ماروك » كان يفعل فعله ، لو اتيح له ان يحل محله ، او
لا يموت قبله *

ففضى نيكول اياما ثمانية وهو شعبان ريان ، تؤوم ، معتلىء البدن
لحما وشحما ، طيب الميش ، متناس هموم دنياه ومتاعب حياته * الا انه
بعد طول البحث وفرط التنقيب في كل مكان من ذلك الفندق لم يجد سوى

ريالات عشرة ترب إليها الفناء بالاتفاق وصارعها البلى ، فالأضحلال
رويدا ، رويدا ، وهكذا راحت سكرته وجاءت فكرته .

فكان أول ما فكر به هو أن يبيع البيت الموروث ، لكنه ما لبث أن
ذكر مبيته فيما مضى تحت القبة الزرقاء ، فأنفت نفسه عودا غير أحد إلى
ما كان فيه من الضنك والتشرد وسوء الحال ، فعقد نيته على حفظ الميراث
والحرص على الفندق أو البيت .

وبعد ذلك بأسبوعين رفع فوق الباب عنوانا عليه هذه الكلمات :
« فندق حملة السلاح » .

فلم يتهاقت عليه أحد من العملاء ولم يقبل إليه أحد من القصاد ، إذ
يستحيل أن يزهد المسافرون من التجار أو المسافرين من العبد الحسان في
فنادق مدينة نانت وهي الفخيمة الانيقة الزاهية الزاهرة ، ويبادروا إلى
فندق « حملة السلاح » وموضعه من البلد أقصى ضواحيها على ضفاف
نهر اللوار .

إلا أنه لم يطل الزمن حتى نشأت لذلك الفندق البعيد مكانة عند
العاشقين ورجال الجندية . يؤمه الأولون هربا من عين الرقباء والحصادة . . .
ويقصده الآخرون لأنه أفضل مكان للبارزات الخفية والمشاجرات .

ولم يكن عدد أولئك القصاد كثيرا ، إلا أنهم على قلتهم كانوا يدفعون
الاجرة الكبيرة ولا يساومون . .

فلما كان مساء اليوم الثامن من شهر فبراير (شباط) سنة ١٥٦٠
ونيكول يتأهب لإغلاق أبواب فندقه ، متذمرا من سوء حاله وقلته توفيقه ،
شاكيا حرمانه منذ أسبوعين ، طرق سمعه وقع حوافر جواد . وما لبث أن
رأى فارسا طويل القامة قد وقف ببابه وصاح ، إلا يوجد أحد في هذا
المكان ؟

فلم يجب نيكول بل بقي واقفا وراء الباب يحقق النظر الى القادم .
وتلك كانت عادته ، اي انه لا يفتح الباب لاحد الا بعد ان يرقب حركاته
وسكناته .

ولعله سر بذلك الفحص والتأمل لانه فتح الباب ورفع قبعة مسلما
وقال للفارس : ارجو غفوا من مولاي ، وعذرا عن تأخري ، فقد كنت
مشغولا عنه في بيتاني ...

قال ، ويك خذ فرسي واعد لي عشاء .

قال ، هل ياكل مولاي ؟

اجاب ، نعم ، ما توافيني به .

قال ، هل يقيم مولاي زمنا طويلا في مدينة نانت ؟

اجاب ، ذلك لا يعنيك .

قال ، عندنا في هذه النواحي آثار جميلة جلية ...

قال ، صه يا مهذار واعتن بجوادك ! وتعال فالحق بي الى القاعة

الكبرى ، فلي كلام معك .

وكان الرجل الغريب يتكلم بلهجة لا تدع مجالا للجدال . فاقتراد

نيكول الجواد الى الاصطبل ولاحظه فاذا هو جواد كريم الاصل ، سرجه

موشى بالذهب فقال في نفسه ، لاجرم ان الرجل سيد عظيم ... سيد

عظيم أتى الى فندقى !!! ... اذن فله شأن سياسي او غرامي . ولكن مالي

وهذا او ذاك ، اذ لا يهمني من امره الا ان يكون كيس تقوده ضخما !

ولما عاد الى فندقه قال للسافر . أي حاجة لمولاي ؟

قال ، اعندك خادم في بيتك ؟

اجاب ، بل عندي اثنان ايها المولى .

قال ، هما شيخان او فتیان ؟

اجاب ، احدهما شيخ والاخر فتى .

قال ، اليك ريثالا لكل منهما • فدع الشيخ يمضي ويشرب والفتى يعدو للقاء عشيقته ، فلت بحاجة الى احد سواك هنا •

فصدع نيكول بامر الضيف ثم عاد اليه ، فوجده جالسا الى النار وقد اشرق منها الضوء على وجهه فبان كأنه في الاربعين من عمره ، حديد البصر ، طويل الشاربين ، اقنى الالف ، قوي البنية ، الا ان امارات الكآبة بادية عليه • فلما رفع بصره الى نيكول وقف هذا متهيئا وقال ، ان خادمي قد ذهبا ، واقفلت الباب ، ولم يبق هنا احد الا انا وانت يا سيدي •

وبعد هنيهة قال الرجل المجهول ، أأنت من يدعى نيكول بوصة •
اجاب ، نعم ، انا نيكول بوصه دون غيري من الناس ، انا هو بعينه ، صاحب فندق حيلة السلاح ، وخادمك المطيع •

قال ، انت ابن اخي ماروك ؟
اجاب ، نعم كان ماروك عمي ، فواحررتني عليه •
قال ، اما وقد تحققت ان اسمك نيكول ، فهلا علمت انك تتوجب الشنق ؟

فارتجفت ساقا نيكول وقال ، يا رباه انا استوجب الشنق ؟ ولماذا ؟
قال ، ألم يقتل هنا « الميو دلاشتاي » في مبارزة منذ شهرين ؟
اجاب • لقد كانت والله مشاجرة لا مبارزة • مشاجرة صغيرة يا مولاي !

قال ، الا تأتي الى هنا « مدام بورتو » زوجة الرئيس الاول لياينة نانت ؟ اجاب ، نعم • وتأتي ايضا سيدات كثيرات الى هنا •
قال : أليس هنا المكان الذي يستقبل فيه « اللورد تروكمارتو » سفير انكلترا جوابيه وارصاده ؟

فلم يحمر نيكول جوابا الا انه تصاغر واستكان ، فقال الرجل الغريب ، لقد علمت يا ميو نيكول انني مطلع على شؤونك • فلو انبأت بها نائب

الملك لتير لي ان اطوق عنقك واصفد يديك ، الا اني لست من اهل الشر ، فنه مطمئن القلب .. وانا تذكر في هذه الليلة عندما يمتد ستر الظلام ان فندقك هذا يكون لي انا دون سواي .

قال ، واذا اتاه مسافرون فماذا اصنع ؟

اجاب ، سوف ياتي مسافرون فتأذن بدخول كل من علفت بقبضة حمامه شريطة سوداء من الحرير .

قال ، وماذا افعل اذا جاء غير هؤلاء .

اجاب ، تمتع عن قبولهم وتقول لهم ان ليس في فندقك مكان خال لهم .

قال ، لن افارق بأبي ايها المولى .

قال ، والآن ارشدني الى غرفتي ، وهات لي عشاءني .

فانزل نيكول الرجل الغريب في احسن غرفه ، وطلب اليه ان يلاحظ متانة الاقفال والنوافذ وسك الجدران ، ثم هيا له عشاء فاخرا ، واستأذن منه بعد ان اكده خلاصه . وهنا لا يتوهم القارىء ان نيكول آوى الى مضجعه ، لانه مضى الى مطبخه وقعد يعاقر الراح ويأكل طعامه وهو يقول قاتل الله جوزيف اللعين - وجوزيف اسم الطباخ الذي يشتغل في مطبخه - فانه اهيل قدر الطعام حتى نضج اكثر مما ينبغي له . وهذا الضيف الذي نزل بي الليلة راغب في الانفراد منتظر بعض اصدقاء له يرد الانفراد بهم والتحدث معهم فهو لا يمكن ان يكون من اصدقاء الملك . ثم ان هذا الشيطان يعرف عني اشياء .. يتهمني بوقوع حوادث قتل في فندقي، ولكن هل يكون الذنب في ذلك ذنبي انا ؟ أليس عنوان المحل فندق حملة السلاح، ورجال الحرب لا يكونون عادة من الملائكة المحبين للسلام ؟ ولا انكر ان قصة سفير انكلترة وجواسيه قد تسوء « المسيو دي جيز » اذا اطلع عليها ؟ واخش ان يحمله حب الانتقام على شقي .

ونظر نيكول الى سقف مطبخه وقد علق فيه لحما مقددا بحبال ثخينة تهتز في الفضاء فقال ، اني افضل رؤية هذا اللحم المقدد يتأرجح فوق رأسي على ان اهتز انا في اعلى مشقة . وسوف اطلب الى اللورد تروكمارتو سفير انكلترة عندما يأتي الى هنا ان يبتعد ، الا اذا كان كيه منتفخا جدا . . .

وما زال نيكول يسأل نفسه ويشاورها حتى انتهى به التأمل الى هذه النتيجة ، قال ، ان الضيف الذي نزل عندي يعرف اخباري كما اني اجعل اخباره ، فهو اقوى مني . فيجب علي ان استطلع شؤونه لاساويه في قوته .

وصعد الدرج مستهلا حتى وقف امام باب غرفة الرجل ، عازما على معرفة ما يكون منه . وكانت ثقب ابواب الغرف كلها واسعة . فابصره نيكول جالسا على كرسي من خشب السديان يطالع كتابا مجلدا بقטיפئة سوداء . وتمكن نيكول من ان يقرأ على القטיפئة هاتين الكلمتين : التوراة المقدسة .

فلما انتهى الرجل من القراءة اخذ يتشمى في العرق . ثم حل الحبل عن هيانه وتناول منه شيئا عرف نيكول انه اطار (برواز) لتصويره رجل ، فتفرس فيها فرآها مشابهة لضيفه ، الا ان المصور فيها اشقر الشعر وضيفه اسوده . فجعل الرجل التصويرة على خوان . وسمعه نيكول يقول واحسرتاه عليك يا جبار ! ولكن قرعنا وانت في ضربحك ، فسوف اتقم لك ا

ونظر الرجل الغريب الى تلك التصويرة مليا ثم اخذ يتشمى في الغرفة وهو يظن نفسه متفردا فكان يتكلم بصوت مرتفع ويقول : لقد نجرأنا يا سيو دي جيز ، ويا امير لورين على مهاجمة اشراف فرنساويين . . . كان لي عديل احبه كما يحب الوالد ابنه ، وكنا تزوجنا شقيقتين ، ولا قرابة

بيننا غير تلك . الا اننا متشابهان خلقا كائنا اخوان : فلم تكتفيا بقتله بل عذبه الملازم « ميشال فيلار » بأمر كما ، فازهق روحه وهو يعاني عذاب الاستنطاق . وقد آن وقتي يا فرنسوى دي جيز ... كنت اتردد في قبول ما يقدمه اليّ الامير ... اما الان فان البغضاء تحول دون ترددي ، ولا ينقضي شهر واحد حتى اكون قد اتقمت لحبيبي جبار ، وانتقلت الملك وفرنسا من هذه السلالة اللعينة ، سلالة جيز » ...

ولم يفهم صاحب الفندق معنى ذلك الكلام تماما ، الا انه ارتعدت فرائصه لان ما سمعه دله على ان ضيفه عدو للدوق دي جيز . وما من احد في ذلك العهد الا وهو يرهب فرنسوى دوق دي جيز ، وزير الملك الشاب ، بل المتسلط على فرنسا اكثر من الملك فرنسوى الثاني ، ومن امرأته ماري ستوارت ، او من والدته الملكة كاترين دي مديس . ولم يكن من احد الا وهو يخشى سطوة ذلك الدوق الا اذا كان متصفا بسمالة نادرة .

اما فرنسوى الثاني ، وهو الذي جرت على عهده حوادث هذه الميرة ، فهو بكر انجال الملك هنري الثاني وكاترين دي مديس ، ولد سنة ١٥٤٤ وتوفي سنة ١٥٦٠ ، وتزوج بماري ستوارت سنة ١٥٥٨ ، وتبوأ عرش فرنسا سنة ١٥٥٩ ، وجده « فرنسوى الاول » الوارد خبره في الرواية الموسومة « بدار العجائب » وفي الرواية التالية المسماة باسمه .

الفصل الثاني

(المآمرات)

لم يقع في اليوم التالي حادث من شأنه ان يؤثر في نيكول بوصه صاحب فندق حملة السلاح . فان الرجل الغريب بقي في غرفته . وتناول الخادمان ريالين جديدين منه ، واسترسل نيكول في تأملاته .

لكنه لما امسى الماء اخذ يمشى امام فندقه قابصر رجلين غربيين على عمدي سيفيهما شريطة سوداء من حرير فاستقبلهما وقال ، نزل امسى عندي ضيف لا شك في انه من اصدقائكما .

فقالا معا : هل اتى ؟

اجاب نعم ... وهو رجل غريب الخلق ، اذ قدمت اليه اجود خصرة عندي فلم ينطق بكلمة شكر ...

واذا بقائل يقول . اذهب يا نيكول الى نهر اللوار وانظر اذا كان قد تحول عن مجراه ثم عد فاخبرني .

فانشى نيكول قابصر الرجل الغريب وقال ان نهر اللوار لا يتحول عن مجراه . واذا تركت الفندق فمن يستقبل صديقك ؟

فاجابه ، انا استقبلهما .

فادرك نيكول ان لا فائدة من الجدل . وقصد الى البرية وهو يلتمس
سوء خلق الرجل الغريب ، فقد طرده وقتما كان يأمل ان يسمع اشياء مهمة .
وهو يحب سماع مثل تلك الاشياء حبا جما . ولا يعد استطلاع فضولا بل
رغبة في الوقوف على احوال بلاده . وهو اوضح منزلة من ان يعد نفسه
من اهل الياسة والمؤامرات والتحزب على الحكومة والاحكام ، الا انه
يحب المتحزبين والمتآمرين كما يميل اخرون الى الموسيقى . وطالما دارت
المفاوضات الحرة في فندقه وشهداها او سمعا بفضل شقوق الابواب وحدة
اذنيه .

كانت المنافسة والمقاتلة دائرة رحاها في ذلك الزمن بين طائفتين هما
الكاثوليك والبروتستانت . ونيكول لم يكن ينتمي الى طائفة منهما الا
حبا تقضي احوال الجمعيات . وبين كبار الناس . ومن كان مثله فهو لا
يلام على تذبذبه . وفيما كان يتعد عن الفندق سمع احد الرجلين يقول
للرجل الذي جاء اولا ، انحن هنا في موضع آمن ؟

فاجابه . نعم ، لان صاحب الفندق مغفل يخشى المشقة اذا اخبر
بوجودنا هنا ، فلا خوف من هذا القبيل . اما العس فلا يتجرأون على
الخروج من مدينة نانت ، واذا افلح اصدقاؤنا في الخروج منها دون ان
يبصرهم احد امكننا التفاوض ونحن مطمئنون ...

وقال احدهم ، اني ارجو ذلك يا مولاي ، ولكن ...

قال ، تكلم ! اي شيء تخافه يا « لافين » ؟

قال ، اخشى ان يكون بين الحضور احد الخائنين .

قال ، ما هذا الكلام !

اجاب ، لسوء الحظ انا لنا جميعا بروتستانتين ، لان بعض المعاهدين
كاثوليكيون ، وهم لم يدخلوا المؤامرات الا لشدة كرههم للدوق دي جيز .

قال ، ان كرههم للدوق دي جيز خير ضامن لاماتهم ، ووفائهم لنا ...
وكان المتكلم بهذا الكلام رجلا قصير القامة ، اسمر اللون ، مظلم
الوجه ، لامع البصر .

وتكلم الرجل الذي دعاه « لافين » بمولاي ، قال ، اني واثق من
كرهك للدوق دي جيز ولذلك ضربت صفحا عما فرط منك في الماضي مسا
لا يليق برجل شريف ان يفعله يا « بلترو ... »

فقال المدعو بلترو بلهجة كآبة : انت فاكر الجميل يا مولاي لارنودي ،
بل انت شيه بسائر الناس في ذلك . فهل اذكرك بما جرى لك في حصار
ميس يوم كدت تقتل لولاي ؟ وهل تلومني لاني قمت بالواجب المفروض
علي اذ تجسست اخبار الاعداء لمصلحة الملك ؟ .

فاجابه لارنودي بعظمة ، قال : لم انس شيئا ، ولكن اذا شئت منسي
نسيان جاسوسيتك الماضية فر منذ اليوم سيرة جندي لا جاسوس . والان
فلتاهب لللاقة اصدقائنا .

وبعد هنيئة اقبل اخرون الى الفندق فادخلهم لافين ، وكانوا يتجهون
الى لارنودي ويتلفظون بهاتين الكلمتين وهما (مع الملك) فيجيبهم لارنودي
بقوله (على امراء لورين) حتى بلغ عدد القادمين ستة عشر ، كل منهم
ينوب عن ولاية من ولايات فرنسا . فلما تم عددهم جميعا امر لارنودي
ان يتكلم اصغر الحضور سنا . فنهض احدهم وقال ، اظني اصغركم سنا ،
فانا اطلب اقامة العدل بالنيابة عن طائفة الكفليين ، واسمي بولدي رشيان
من اشراف موفان .

فظهر الاستحسان على الحضور . وقال لارنودي مع معرفته للرجل :
ما هي شكواك ؟

اجاب ، كان لي اخ فرنساوي من كرام فرنساويين وشرفائهم ، قتله

الكردينال دي لورين اذ سطر عليه ثلاثة الاف غلام . وقد مزق بدن اخي
وسحبت احشائه على ارض الشوارع ، وطرح فواده للكلاب ، وضرب
الجمهور تلك الحيوانات التي ابت اكله . قانا اطلب موت الكردينال دي
لورين !

قال ، كم جندي لديك ؟

اجاب ، عندي ألفا رجل كلهم متأهب لسحق الكاثوليكيين المقيمين في
بروفانس يوم اعلان الثورة والانقلاب .

ونهض بعد بول دي رشان هذا شريف آخر اسمه مونبرون ، فآخر
اسمه ماليني ، فشرحا حالة الشاكن في البلاد وفي مدينة ليون ، ووعد كل
منها بأن يقدم خمسمائة مقاتل او الفا . ثم اخذ كل موفد من كل ولاية
يتكلم عن حالة الشعب مفصلا اباب الخضاء التي يضرها للدوق دي
جيز البروتستانتيون والكاثوليكيون من اهل ولايته .

ثم نهض لارنودي وقال ، مهما يكن من تباين اباب كرهكم فاقسم
جميعا اعداء للدوق دي جيز ؟

فاجابوه جميعا بقولهم ، نعم !

قال ، ان آل جيز قد استخدموا نفوذهم الاول على الملك المتوفي هنري
الثاني . ليزوج ابنة اخيهم ماري ملكة ايكوسيا ، بالملك فرنسوا الثاني .
وهم بفضل رابطة هذا النسب قد احاطوا بالملك وصاروا حاكمين باسمه .

فقال الحضور ، هذا صحيح !

قال لارنودي ايضا : ثم ان الكردينال دي لورين قبض على منالية
البلاد ، ثم اخذت رئاسة الجيش من « الدوق دي مونسوراني » وسلمت
الى الدوق دي جيز ، واضطر ملك النافار الى الابتعاد عن البلاط ، واصبح
الخطر محيضا بأمر دي كوند ، واستفعل اضطهاد البروتستانتين ، حتى
باتوا لا يأمنون على ارواحهم اذا سمعوا العظات الدينية . وحدث في

العام الماضي أن عضوا من النواب ، هو مستشار « بورج » قد صدر عليه حكم بالموت لا لسبب ، غير امياله المذهبية ، فقامت أوروبا ولحنت على الحكم ، الا ان ذلك المستشار اعدم . وها قد صودرت املاك المصلحين ويبحث بنصف ثمنها الى الوشاة والجواسيس . ولا ينقضي زمن قصير حتى تنتشر احكام النفي في جميع فرنسا ، فاذا لم نصد تيار البغي الذي يهددنا الان ...

فنهض « بلترو » وقطع كلام الخطيب قائلا ، ذلك بغيا وانما هو ملكية جديدة تنها اسبابها ! فانت لا تعرفون « فرنسوى دي جيز » حق المعرفة . ان فرنساوين كيفما كانت امياله المذهبية يجلون الملك ويحترمونه غير مكرئين لضعفه وصغر سنه . اما آل « جيز » فليسوا بفرنساوين ، وليست فرنسا في نظرهم الا بلدا قد افتتحوها ، وما الملك بين ايديهم الا العوبة يلعبون بها . اما اذا انقلبت هذه العوبة الى آلة تحول دون مظالمهم فهم يلاشونها ويصيرونها عدما ...

وفيما كان بلترو يتكلم ، زال ما كان قد خامر نفوس السامعين من ريب ، وكانت عينا بلترو تلمعان وكأنه ينطق عن وحي والهام . وتسولى الحضور ارتياح حقيقي عندما شعر بلترو بخنجره وقال ، لنقسم جميعا على قتل الدوق دي جيز اذا التقى أبنا به !!
فاجابه الحضور ، انا نقسم .

فقال لارنودي اذ ذلك ، وقد ارتاح الى ما سمع من بلترو الجاسوس القديم :
اعلموا ايها السادة ان الخطر جسيم ، ولا بد لنا من تلافيه قبل استفحاله .

وقال بول دي رشيان ، من نصيرنا في البلاط ؟
فاجابه لارنودي : نصيرنا رجل عظيم يساوي الدوق دي جيز رفعة

شان . امير لا يستطيع ذكر اسمه ، ولكنكم تعرفونه جميعا .

قال ، لعله ملك النافار ؟

فاجاب لارنودي ، ليس لملك النافار ارادة .

قال ، ان زوجته ذات ارادة كافية .

اجاب ، نعم ان زوجته « حنة دالبر » امرأة نبيلة وانما تحتاج اعمالا

الى زعيم قدير غير بعيد عن عرش فرنسا .

قال ، اذن فمن الزعيم ؟

اجاب ، قلت لكم انني لا استطيع ان اسيه ، غير ان اسمه على كل

الشفاه .

فتلفظ الحضور باسم « امير كوندو » بصوت منخفض .

فقال لارنودي ، لقد بحث الي ذلك الزعيم الذي اشرت اليه بالايضاحات

اللازمة مع « الميودي ميرة » فهو يروم ان تكون ظواهر اعمالنا موسومة

بالصدق . والبلاط الان في نواحي بلوا . اما جنودنا فلا بد من اجتماعهم

في طوران في اوائل شهر مارس واذا ذلك نهاجم البلاط ، ونقدم الى الملك

عرضا ، نسأله فيه طرد الدوق دي جيز واخيه الكردينال دي لورين ، فياخذ

آل جيز السفر ، ويؤخذ نقيض عليهم وننقذ الملك وزوجته ووالدته من

أسر هذه الاسرة .

ولو تمكن لارنودي عندئذ من ان يخترق بيصره ظلام الليل لابصر

رأس « نيكول بوصه » مطلا من كوة للفندق . فانه ذهب الى ضفاف

اللووار كما امر ، ليتحقق ان ذلك النهر لم يتحول عن مجراه ، ثم رجع الى

فندقه فدخله من باب سري محجوب بالادغال في بستانه حتى وصل الى

سديانة وراء مطبخه ، فتسلقها وقعد على احد اغصانها الضخمة فسمع كل

ما قيل في ذلك المجتمع ، وشهد تلك المؤامرة التي كانت اساسا للحرب

المدينة التي قامت في القرن السادس عشر ، وامتزجت فيها الحياة بالدين .

وشعر نيكول بفؤاده يخفق شديداً من حنقه على الدوق دي جيز بعدما
سمع ما سمعه لتدير تلك المؤامرة التي لو كانت لاشياح الدوق دي جيز
لتشيع اللارنودي والبروتستانتين ، لكنه استرسل وقتئذ في امياله الطبيعية
وجعل يسأل نفسه ، كيف يستطيع صبرا مدة شهر حتى يرى النتيجة .

وكان لارنودي قد شهر سيفه وصاح بالحضور ، بعيتنا الانتقام !
فليت آل جيز ! فليت الغرباء !

وجعل الحضور يصرخون « ليمت فرنسوا دي جيز ! فليت الكردينال
دي لورين » !

وقال لارنودي ، احضروا جميعكم بعد شهر الى طوران .
فاجابوه على الفور ، سنكون فيها .
ثم قال ، بعد شهر تأتي ساعة الانتقام !...

واذ ذاك رأى نيكول المتأمرين يرحلون عن الفندق يحذر ، فركب
بعضهم الافراس ، وسار بعضهم مشياً على الاقدام الى شمال مدينة نانت .
ثم لم يبق في الفندق الا لارنودي وبلترو ولافين . ففكر نيكول وقتئذ
في الظهور لهم بعد اختجابه . فنزل عن السديانة ولقي اضيافه فقال لهم
بلهجة الداجة : لقد تحققت ايها السادة ان نهر اللوار لا يزال ...

فقال له لارنودي ، اذهب واعد جوادي للرحيل ، لاني مسافر بعد
ساعة ...

واحضر نيكول الجواد ، ثم صعد فائماً ضيفه بأنه صعد بأمره . وخرج
الثلاثة من الفندق بعد ان ربط لارنودي هيائه بعنق الجواد وقال لبلترو ،
أتسافر الى باريس ؟

اجاب ، كلا ، وانما الى اورليان .

قال ، هل اخبرك الامير عن المكان الذي ينتظرنني فيه ؟

اجاب : ان الامير يكون في باريس بعد خمسة عشر يوما عند باب
« القديس انطوان » ساعة الغسق .

فاطرق لارنودي هنية ثم قال ، لقد أسأت استقبالك في هذا المساء
يا سيو بلترو ، ولم أكن اعرفك بعد ، فاطلب منك صفحا ، وهات يدك !
قال ، اليك يدي ! . . قال ، لا بد من أسباب خطيرة تحملك على كره الدوق
دي جيز .

اجاب ، انه عدو بلادي ومذهبي الديني فانا لذلك اكرهه .
قال ، اما من سبب شخصي يحملك على كرهه ؟
اجاب ، لا .

قال ، وما رأيك فيما لو كان الدوق دي جيز سببا في مقتل واحد من
اقر بائك او امرأة حبيبة اليك ؟

اجاب ، اذن لكنت اقسم على انه لا يتجو من يدي .
قال ، اصغ الي يا سيو بلترو . اني اجهل ما خباياه لي الاقدار ، ولكن
اذا فاجاني الموت فهل تتقم لي كما لو كنت قريبك ، وهل تقسم لي على
ذلك ؟

فتنظر بلترو الى لارنودي مليا ثم اجابه ، اقسم لك ، لانك اول
شريف من البلاط رضي بان يرى اني غير جاسوس .

ثم افترق الثلاثة فسلك بلترو طريق انجر وسار لارنودي مع لافين ،
وكان هذا كاتم سره ، في طريق مانس بعد ان القى الى نيكول بكيس مملوء
ذهبا وقال له ، اذا حدثت احدا بما رأيت الليلة فأذكر كلامي انسي اكون
وميلة الى شنقك .

فاجابه نيكول بانه من اهل الكتمان ، واخذ يمد الدنانير ويدسها في
جيبه . وقبل ان ينام في تلك الليلة طفق يحدث نفسه ويقول ، لاجرم ان
النار ستضطرم في باريس ، وما اخال الدوق دي جيز المكين الا مشرفا

على العطب ، لان هؤلاء المتآمرين اشراف قادرون ورجال لا يشربون
خمرًا ، ومع ذلك فقد دفعوا اليّ ذهبًا كثيرًا أجرًا ليلة صرفوها في فندقسي
وجميعهم ميمون باريس مقيمون فيها ***

وهنا توقف نيكول لحظة وكأنما خطر له خاطر مفاجئ ، فقال ، لو ان
عمي ماروك ترك لي بيتا في باريس بدلا من هذا الفندق الحقير الذي غادره
في ثانت ، اذن لكنت ***

الا انه لم يتم جملة بل قال ، ماذا الذي يستعني من الرحيل الى باريس؟
ابيع فندقسي هذا واسافر اليها .

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

الفصل الثالث

(مكتبة لوم)

كان « مخزن يعقوب لوم » عبارة عن مكتبة كبيرة عامرة بالمؤلفات الشعرية والفلسفية والادبية ، يتردد اليها رجال البلاط فيطلبون منها مؤلفات كليمان ماروت ورونزار في الموسيقى ، ومؤلفات رابليه واتيان دولي في الفلسفة . وغيرها من الكتب التي كانت متداولة في ذلك العهد . والمكتبة ليست بعيدة عن الكنيسة الكبرى ، لها باب فخم ، وقد نضدت في احدى شرفاتها الكتب النفيسة تنظيدا محكما يرى منه المارة اسماءها على جلودها .

ومن حسن حظ يعقوب هذا ان كاترين دي مديس ، الملكة الوالدة ، كانت تحب الشعر والشعراء ، وان بلاط الملك كان حافلا بالادباء ، ولذلك اثرى يعقوب وجمع مالا كثيرا ، وكان رجال البلاط يعاملونه غير معاملة التجار لانه من اهل العلم ، ويكرمونه اكرامهم لكل شاعر وكاتب في ذلك الزمن . وصدق فيهم قول من قال ، ان الناس على دين ملوكهم .

الا ان ائنة الاشرار تناولت الكتبى المسكين ، فزعصوا ان لجمال ابته مادلين يدا في ثروته . وقال احد الوعاظ ، ان يعقوب لوم انما اغتنى لانه الكنيى الوحيد الذى رضى بان يبيع نسخا من التوراة لاهل المذهب

البروتستانتى . ومما لا ريب فيه ان حانوت يعقوب كان حاوراً كتباً كثيرة .
وان ابنته كانت كذلك ذات حسن باهر .

وبعد انقضاء ثلاثة ايام على الحوادث التي جرت في فندق حماة السلاح
كان يعقوب لوم جالسا الى مكتبه ينظر في مسودات طبعة جديدة لديوان
الشاعر بونار (المتوفى سنة ١٥٨٥) فسع وقع حوافر جواد ، فرفع
رأسه وابصر مسافرا يترجل عن فرسه امام باب الحانوت ويقول له ، حياك
الله يالوم !

فصاح يعقوب لوم طربا : اهلا وسهلا بك يا بلترو !

وبلترو هذا من الذين كانوا في فندق حملة السلاح ، كما مر بك .
وتصافح الرجلان ، ولبثا صامتين وكل منهما لذه التأمل في وجه
صديقه . وكان بلترو يحب يعقوب لوم ، وقد اقتنى قبلا من مكتبته تلك
الكتب التي تبحث في احوال مذهب الجديد . وكان يعرف في يعقوب
اخلاصا للمذهب البروتستانتى ، وانه لا يذهب لحضور الصلاة عند
الكاثوليك الا ليشتمل اليه ابناء المذهب الكاثوليكي . وقد رآه ينصت
الى وعظ البروتستانتين ، وييدي غيرة حقيقية شهد له بها اهل مذهبهم .
وفضلا عن ذلك فان جان بلترو هذا كان يحمر وجهه كلما نظرت اليه مادلين
لوم بعينها الزرقاوين . فهو لا يسر باورليان الا وينزل ضيفا على الكتبي .
وطالما جاءه يكتب من تخوم البلاد الفرنسية عملا بأمر امير كوندو او دي
كولينى ، وهي كتب كلها طعن على الدوق دي جيز . وبعد ان طال الصمت
قال يعقوب لوم ، هل حدث كل ما كنا تأمل ؟

فاجابه ، نعم .

— اي موعد موعدكم ؟

— اوائل شهر مارس (اذار) .

— من تسلّم القيادة ؟

— لارنودي •

— هل كان الامير في جملة الحضور ؟

— كأنه كان ، ولكنه لم يظهر للناس •

— ماذا يكون اذا تم النجاح ؟

— سيتم النجاح بلا شك •

— وماذا يفعلون بال جيز ؟

— وهل من وسيلة غير قتلهم ؟

— ان قتل انسان امر فظيع •

— نعم الا اذا كان عدوا مضرا •

— سوف يثور الشعب في باريس •

— لذلك يجب اخبار الشعب واثارته على آل جيز •

— ذلك امر عسير •

— لا ينبغي ان توجد صعوبات عندما يراد تعزيد الديانة الحقيقية على

ان الامير يثق بك ويعتمد عليك •

— فماذا افعل !

— عليك ان تطبع من هذا الكتاب بضعة الاف نسخة • واخرج من

صدرته كتابا مخطوطا وسلمه الى يعقوب فقرأ في اوله هذه الكلمة «النمر» •

فقال ، يوجد نمران لا نمر واحد ، وكل منهما سفاح فتاك ، لاني اظن

المراد بكلمة النمر اسيرة لورين •••

اجاب ، نعم •

ونظر نظرة في الكتاب وقال ، أنت واضعه ؟

اجاب ، نعم انا وضعت به امر الامير •

قال ، اذن سوف انشره •

فاجابه بلترو ، اشكرك بالنيابة عن دياتنا المقدسة •

واذ ذاك فتح باب في داخل الحانوت وظهرت فتاة اقبلت على ايها يعقوب فقبلته ثم انشئت الى بلترو فحيته دون ان ترفع بصرها اليه . فحيها بقوله ، سلام على مادلين الـديعة الجمال !

فقالت ، انت يادي ميرة لا تفتأ تسلق وتطرى .

اجاب ، كلا ايها الآنة ، وانت تعلمين ان يوما اراك فيه لهو عندي من ايام العادة .

وكان مادلين لم تسمع كلماته ، ولا ندري هل ساءتها تلك المباشطة ام كانت تود ان تسمع مثلها من غير ذلك الرجل . وكانت مادلين معتدلة القامة ، نجلاء العينين ، لابة ثوبا ابيض يظهر اندماج اعضائها وحن تركيب بدنـها الغض . وكانت جميلة المنظر لطيفة الحركة ، ما رآها بلترو مرة الا ظل كالأبكم امامها غير متجري . على مطارحتها الحب خوفا من ان يلقي صدا ونفورا فيفقد آماله واوهامه السارة .

وصرف بلترو نهاره وقد ظابت له فيه محادثة يعقوب لوم عند خاسو الحانوت من العلاء كما لذ له النظر الى مادلين عندما تكون امامه . فلما كان الماء قال الرجل لضيـفه ، وقد جلا الى المائدة ، لقد طالعت كتابك . قال ما رأيك فيه ؟ اجاب ، انه مهيج مشير . فقال ذلك خير وابقى ، لان النتيجة تكون كبيرة .

وسمعت مادلين هذا الكلام فقالت ، رحماك يا ابت ، انك في غنى عن نشر هجاء يسوقك الى مواقف الخطر .

فاجاب ، ان الدفاع عن مذهبنا يقضي علينا بركوب المخاطر .

قالت ، لا انكر ذلك ، ولكنك تقدم اكثر من سواك . فسا هذا الكتاب ، ومن المقصود به ؟

اجاب ، انه الدوق دي جيز .

قالت ، بحقك يا ابي لا تطبعه لان الدوق دي جيز ذو بطش وسلطة ،
ولا يسكن ان ينجم عما تفعله الا الضرر الذي سيقع علينا .

فارتعد بلترو وقال ، ما كنت احسب ان ابنة يعقوب لوم تتشيع للدوق
دي جيز .

اجابت ، مهلا يا مسيو بلترو ولا تتسرع في الحكم ، فاني لا اتشيع
للدوق دي جيز ، ولم اره قط ، ولا احبه ، ولا احقره ، وانما غرضي ان
ادفع عن والدي خطرا محيقا به . ونفسي تحدثني ان في هذا الكتاب المهيج
ضررا كبيرا يلحق به .

فقال يعقوب ، اطمئي يا بنية فلن يدري احد بان هذا الكتاب صدر
من عندي . ومتى تم طبعه اسلمه الى المسيو بلترو ، فيأخذه ولا يبقى عندي
منه الا نسختان اخفيهما عن كل انسان .

فصمت الفتاة ، وتناولوا العشاء وهم سكوت . فلما كان الليل استاذن
بلترو من يعقوب وابنته وركب جواده بغدما رنا الى مادلين رنو عاشق ، ثم
اتجه الى باب المدينة ليسافر الى باريس . فقال له يعقوب ، متى تعود الينا؟
اجاب ، ليلة مباشرة المشروع .

وسمعت مادلين هذا الجواب . فلما رجعت الى الحافوت قالت لابيها،
عن اي مشروع تكلم المسيو بلترو؟

اجاب ، عن امر ليس بذى بال . عن كنيية يجمعها ويعدها للنضال .

قالت ، حذار يا ابنت فاننا قوم صغار ، واركك تعرض لامور هي من
شان رجال بلاط الملك فانك ميد عظيم . فانت تطبع كتب القوم وتبيعها ،
مع ان كل ما تمتلكه من مال انما جاء من كتابات الكاثوليكين لا من تلك
الكتب البروتستانتية .

اجاب ، اصبت يا بنية ، ولا انكر ان ثروتي جاءت من نشر الكتب
الكاثوليكية ، غير انها مصدر متاجرة ، ولكن لا يحق لي ان اعرض عن

اعتقادي الحديث • ولئن وجب عليّ أن أقضي في سبيل الاتصاف له ، أو
أفقد ثروتي ومكتبتي فاني مستعد • فلم تحر مادلين جوابا لأنها هي نفسها
كانت متعصبة للمذهب البروتستانتي •

ثم أن يعقوب لوم اشتغل قليلا في مكتبته ، ثم صعد مع ابنته إلى الطبة
العليا من البيت وفيها غرفهما • وبعد هنيئة اطفىء نور المصابيح ، وساد
السكون التام على المنزل •



أما جان بلترو فمضى يسير راكبا غير مرع • وفيما هو خارج من
مدينة أورليان ليلتك طريق باريس أبصر فارسين قد وصلا إلى باب المدينة
وطلبا الدخول ، فقال لهذا الحارس ، أن الدخول ممنوع إلا بجواز •

فاستاء أحد الفارسين ، وقال لقد تأخرنا •
فاجابه رفيقه ، مهلا يا مولاي فالأمر يسير ، وما علينا إلا أن استأذن
من ضابط الحراس بالمرور •

— لست أود أن يدري أحد بوصولي إلى مدينة أورليان •
— ولكن ما من وسيلة لنا يا مولاي غير هذه الوسيلة • وما أخالك
تود أن تقضي ليلتك تحت السماء •

— أقبل يا جيلوما تراه منامبا ، وإنما استوثق من الضابط بالكتمان •
ولم يسمع بلترو محادثة الرجلين ، لكنه أدرك مرادهما • ودهش لما
رأى الضابط يخرج من مكتبه مبادرا إلى خدمة الرجل ، أمرا الحارس بفتح
الباب •

فقال في نفسه ، يا للعجب من فارسين يأتيان إلى أورليان ليلا وتفتح
لهما أبوابها بغير جواز وبسجرد أن يعرفهما الضابط المتولي الحراسة •

واطرق بـلترو يفكر • فلما مر الفارسان به عاد فلحق بهما • وسار
الفارسان في الطريق الذي سار فيه قبلا عندما فارق بيت الكتبي ، فقال في
نفسه ، اراهنا ذاهبين الى الشارع الذي كنت فيه • ولا ريب عندي في ان
هذين الفارسين من رجال البلاط • ويشبه احدهما ... ولكن لا !! فذلك
غير ممكن • فاته لا يرحل عن بلوا ، ولا يد للملك من وجوده هناك ...

واذا به قد اضطرب لان الفارسين وفقا لباب مخزن الكتبي يعقوب
لوم ، فترجل اكبرهما عن جواده وساق رفيقه الجوادين الى زقاق قريب •
وكذلك ترجل بـلترو وربط جواده عند عطفة شارع ، وتمشى ملاصقا
جدران البيوت حتى دنا من حائوت الكتبي فاخترأ عند باب هناك وانتظر •
واحس بحركة خفيفة كأنها اشارة ، ثم اضاء نور على شرفة نافذة مادلين
لوم ، وسقط سلم من حبال الى الشارع ، فقبض الرجل على السلم ووثب
الى غرفة الفتاة سرعا ، الا ان ضياء المصباح اثار وجهه فعرفه بـلترو ، فجعل
يده على الجدار كي لا يسقط مضى عليه ، ثم قال بصوت خافت : يا للداهية
هذا فرنسوى دي جيز !

وثار الدم في وجه بـلترو فجرد سيفه وركض الى البيت فتعلق بالسلم
حتى وصل الى الشرفة وهم بدخول الغرفة ايضا واذا بالدوق قد خرج منها
وقتل وضربه ضربة شديدة على رأسه ثم طرحه الى الشارع •

الفصل الرابع

(احد ابطل هذه السيرة)

كان « برنارافيل » مطاميا بارعا مقيما في باريس في بيت اتيق • وقد ترك له والده اطيافا ومالا ، فزاد برنار المال والاطيان بجده واجتهاده • وكان من اهل الجد والاقدام ، متزوجا من امرأة فتاة المحاسن اسمها مرسلين الا انها كانت طائشة تحب الملذات والمسرات •

وكان برنار قد ناهز الخمين من عمره ، اما زوجته فكانت دون العشرين سنا ، ولا ندري كيف رضي بالاقتران بها ، او رضيت هي بالاقتران به ، غير مراعيان ما بينهما من تفاوت في السن والخلق ، الا انه كان يهواها • وان لم تكن تهواه فلم يمنعها ذلك من تدبير شئون منزله كما يجب •••

وعلاوة على كل اختلاف بينهما كانت هي كاثوليكية ، وهو بروتستانتيا • وهذا الخلاف كان خطير الشأن في ذلك الزمن (وللأسف ما زال كذلك الآن) •

ولبثت مرسلين عدة شهور تنضجر من الذهاب وحدها الى الكنيسة الى ان كان احد الايام اذ ابصرت في الكنيسة شابا من الاشراف حسن المنظر يرنو اليها باسم ويقدم اليها الماء المقدس ، فقالت في نفسها ، خير لي ان لا يكون زوجي معي • وكانت قد تلقت تربية حنة ، فما لبثت ان تناست ذلك

الشباب ولم تفكر فيه ، حاسبة ان الاشراف لم يخلقوا لمن كانت مثلها لانهم يميلون الى السلوان والنسيان ولا يعرضون عن سيدات البلاط الا حبا في التنقل او ضجرا منهن ، ثم لا يلبثون الا وقتا قصيرا حتى يرجعوا اليهن . فقالت في نفسها ، لئن قدر علي ان اتزوج ممن لا احبه فاني استطيع ان اختار لي حبيبا لا يجب ان يكون من طبقة الاشراف !...

وفي ذات يوم ذهبت لتحضر صلاة العصر في يوم عيد ، ولما انتهت الصلاة همت بالانصراف لكي لا تدع زوجها ينتظرها طويلا ، وعندما اوشكت ان تطبق كتابها الصغير رأت ورقة زرقاء قد سقطت عليه ، وعليها شريط ذهبي وكلمات قليلة علمت انها من محب عاشق يطلب ودها .

فقالت في نفسها من يكون هذا الوقح الذي تجرأ على ان يكتب الي ؟ ولم تشأ ان تقرأ تلك الرسالة الغرامية لكنها ما لبثت ان قالت ، لا بد من معرفة ذلك المجرم لاعاقبه على اجتراءه . ثم قرأت ما فيها واليك نصها :

« أيتها السيدة النبيلة .

« على مقربة منك ، في موضع خاف عليك ، انسان يرقب نظرة من نظراتك » .

فقالت لا شك انه غبي من اهل بلاط الملك ، ونهضت لتخرج من الكنيسة . فلما وقفت قرب جرن الماء المقدس اصفر وجهها ولم تجر على التقدم لانها ابصرت فتى واقفا امامها باسطا اليها يده بذلك الماء ، فقالت في نفسها : انه لصاحب الرسالة التي قرأتها .

على ان ذلك الشاب لم يكن من اشراف حاشية الملك وانما هو طالب يتلقى العلم في كلية سوربون ، واسمه « جاليو دي نرساك » . وكان طويل القامة ، هزيل الجسم ، صغير الرأس ، ازرق العينين ، اشقر الشعر ، وكأنه فتاة بحسن وجهه . وكان رفاقه في المدرسة يدعونه « الوجه الصبيح » وقد درس اللتين اليونانية واللاتينية . وكانت أسرته تنوي الباه طيلسان

الراهب ، او ثوب الحاكم ، لان اياه مات في حصار « متس » وكان له اخوان قتل في المبارزة . وكان اخوه الاكبر مقيما مع والدته في الريف يخاصم جيرانه ، فرأت الوالدة المسكينة ان تجنب ولدها الباقي لها حمل السلاح لانه اصغر بنيا واحبهم اليها ، فاشفقت عليه ان يصيبه ما اصاب اخويه من قبل . فعمدت بتربيته الى الاستاذ « برنابا مرفزان » من اساتذة كلية السوربون . وكان رجلا عالما الا انه كبير يحب اللهو والطرب . فلزمه « جاليو دي نرساك » وكان في بدء امره تلميذا مجتهدا ، غير ان مدة اجتهداه لم تطل اكثر من ثلاثة شهور . واحب جاليو دروس التاريخ وكره سائر العلوم . وكان في اكثر الاوقات يناوىء العس ويعاكهم ، ويبادر الى سماع الوعظ عندما يعلم ان هنالك فتيات حسانا من البروتستانتات . ويزاول لعب الحكم بالسيف (المثاقفة) . وكان استاذ برنابا يفض الطرف عنه ، وفي بعض الاحيان يشاركه في مراته ، الا اذا تهور فيها تهورا كبيرا .

ولما رأى جاليو « مرسلين » شغف بها ، فهجر دروسه ولذاته وعكف على تتبعها ومراقبتها دون ان تشمر به . فبذ ذلك اليوم صارت تراه نسي طريقها . وكان لطيفا رقيقا ، شديد الاحترام والحياء حتى عطف عليه وجراته على الاقتراب منها ، فأقسم لها يمين الوفاء حتى جعلها تحش باليمن التي اقسمتها لزوجها ...

وكان يحدث في ذلك العهد امور دينية ذات شأن شغلت برنار اذيل عن سلوك زوجته . لان البروتستانت بدأوا يشرحون التوراة ، ويجدون فيها كل يوم ما يوجب القضاء على بلاط فرنسا ، والكردينال دي لورين . واخيه فرنسوى دي جيز . وكان رجال طائفة البروتستانت يجاهرون بما تكلم به المجتمعون قبلا في فندق حملة السلاح ملحين لا يجمرون على ايضاح وافصاح .

على ان برنار افيل لم يكن على رأي القاتلين باستخدام الشدة ، وانما
يذهب الى ان الدين لا يقاوم الا بالشرع . ولكنه لم يتجراً على مخالفة
ذوي الافكار الثائرة ، وكان ابناء الطائفة جميعا يضربون على وتر واحد .

وفي ذات يوم سمع خطب الوعاظ ، وخرج قاصداً بيته فاحس بيد
وقعت على كتفه ، وسع قائلاً يقول . السلام عليك يا برنار !
فاجاب ، آأنت هنا يا لارنودي ، وقد كنت اظنك مقيماً في طوران .

وكان برنار يميل كل الميل الى الرجال المنتهين الى امير كوندّة المفضلين
عنده . ولارنودي يحب برنار اعترافاً بحيله ، لانه هو الذي ترافع في
قضية عديله جبار مراعاة استحق من اجلها امتان لارنودي وان لم تجد
جبار نفعا .

فقال لارنودي ، لقد عدت منذ صباح اليوم الى هنا ، ولما كان منز
مهملاً في غيابي فكرت في الاقامة عندك بضعة ايام .
فاجابه ، أنت صاحب البيت يا سيدي لارنودي ، فاهلاً وسهلاً ومرحباً
بك !!

— شكراً لك ، ولكنني لا اسألك ضيافة بسيطة .
— تكلم ، اي حاجة لك ؟
— اني لقي حاجة الى استقبال رجل عندك . . . والاجتماع به ومخاطبته
سراً .

— قلت لك ان البيت يتك يا لارنودي ، فافعل ما تشاء .
وسار الرجلان في طريق بيت برنار وهما يتكلمان في مواضيع مختلفة
ليس لها شأن خاص ، محاذرين التكلم في المواضيع الدينية خوفاً ان
يسمهما احد الكاثوليكين ، فلم يتداولوا في امر هام الا مآء عندما ذهبت
مادلين تعد غرفة للمضيف .

فقال لارنودي اذ ذاك : ايها العزيز برنار ان دياتنا تعدك من انصارها
بل من اشدّهم اخلاصا ... وقد أزف وقت العمل ...

فاعترت برنار هزة وقال : اني متأهب للرافعة امام مجلس النواب ...
- ان مجلس النواب ييغضنا ، فصوتك فيه لا يسمع !

- اذن اية وسيلة تروم ان اتخذ ؟

- أي وسيلة ؟ وهل لنا غير القوة ؟

- اتدعوني الى مؤامرة ؟

- نعم ، وقد تهياً كل شيء .

- ومتى تعلن هذه المؤامرة ؟

- في اوائل شهر مارس المقبل . ان بلاط الملك بين ايدي آل جيز ،

وهم شر اعداء مذهبنا . فلنرف نذهب الى البلاط وننقذ الملك منهم .

- وماذا تفعلون بآل جيز واعوانهم ؟

- لقد تهيات اسباب التوفيق . ومن يدري ؟ فقد يقطون قتلى .

فحدق برنار في وجه لارنودي مدهوشا وقال : أتتجراؤون على مهاجمة

الدوق دي جيز والكردينال دي لورين ؟

- ولماذا لا تفعل ؟

- انهما عمال للملكة ماري .

- ان ماري ستوارت امرأة اجنبية ، اما زوجها فرنسوا فهو مجرد

من الارادة . وقد انتزعت السلطة من ايدي امرائنا الشرعيين . فمن واجبات

اشراف فرنساوين ان يقاتلوا في سبيل اعادة السلطة الى امرائنا .

فلم يجب برنار . ومما لا ريب فيه انه كان يحب مذهبه ويفضله على

سائر المذاهب ، الا انه اكبر تلك المؤامرة وخاف منها لانه كان رجلا مسالما

ذا ثروة كبيرة ، فبات يسأل نفسه عما يصيبه ويصيب زوجته مارسلين ،

ووظيفته في مجلس النواب ، واملاكه اذا خسر الثائرون او المعتصبون ، او

إذا علم الدوق دي جيز بأن لارنودي بات ليلة في منزله ، وزاره فيه خفية شخص مجهول . ولم يفكر برنار في الاستعلام عن اسم ذلك الشخص المجهول لأنه يعلم أنه لا بد أن يكون عدوا للدوق دي جيز ، أو هو شريف من رجال البلاط لا يروم أن يراه أحد في باريس ، في حين أنه يظن موجودا في طوران . فلما نهض لارنودي قال لبرنار ، اني ذاهب لابحث عن الشخص الذي يجب عليّ الاجتماع عندك ، فلا تدع احدا يقف امامه او يبصره عند مروره . فهل فهمت ؟

فاحس برنار بالرعدة تسري في عروقه ، وفكر يقول ، ويحي لقد صرت من المتآمرين على السلطة الحاكمة دون ان اروم ذلك ، وهذا بيتي صار ملجأ لزعماء المؤامرة . ويلاء ، لو درى مسيو دي جيز بذلك !

الفصل الخامس

(غرام وسياسة)

وفيسا كان برنار اخيل يرتعد من مجرد تفكره في انغضاب آل جيز ومعاداته اياهم ، ابصرت زوجته مارسلين القتي جاليو دي نرساك يتمشى تحت نافذة غرفتها وهو لايس افخر ملايه ، متقلد خنجرا ، يختال عجبا كأنه قائد الحراس ، فاحمر وجه مارسلين واشارت اليه تحية . ثم نزلت الى غرفة المائدة فالقت زوجها حائرا لا يدري كيف يفعل . وابتسار امرأته كعادته فصاحت ، ايزور بيتك احد المتأمرين ، وتدع القوم يتفاوضون عندك في امر يضر بالدولة ؟ .. الا ان في ذلك اضرازا بك من كل وجه ، وقد يودي بحياتنا معا ، فعذار !

فقال بصوت الخاضع الذليل : اذن ما رأيك ؟

قالت ، اين الكردينال دي لورين اليوم ، آفي باريس ؟

اجاب ، نعم . واطلعه لم يرجع الى البلاط .

قالت ، اذهب واجتمع به لانه يريد لك الخير برغم مذهبك السيء ، واطلعه على المؤامرة ، فتتخذ املاكا من الخراب ، وتنتقد نفسك من القتل والافلاس اذا لم يفلح لارنودي .

.. ولكن كيف اصنع اذا درى لارنودي ؟

— ومن ذا الذي يخبره ؟؟

— أصبت أيتها الحبيبة ، فسوف اذهب غدا فالقى الكردينال دي لورين

— قد يفوت الوقت غدا .

— إذن أنت ترين ان اذهب الليلة الى قصر دي جيز ؟

— لا رأي لي ، وانما ابدت فكري لك .

— أصبت يا مارسلين ، فانت حكيمة في كل حال . والآن عليّ بعصاي

وردائي . وفضلا عن ذلك ، أليس من واجبات رعايا الملك ان يطلعوه على

كل مؤامرة مضرة بالدولة ؟ الا عفوا يا مارسلين فاني اتركك الان مرغسا

لاني ذاهب الى قصر دي جيز .

واستصحب خادمه ، وخرج من البيت ، فاصطدم عند العتبة بجاليو .

وكان ينظر الى التوافد غير مكترث لمن في الشارع . فقال المحامي . لا شك

ان هذا الطالب سكران . فاجابه جاليو بقوله له ، انت احقق ، وجعل يحرك

خنجره في غمده .

ولم يتجاوز برقار طرف الشارع حتى كانت مارسلين عند الباب يطفح

وجهها بشرا . فتناول يد الطالب وقالت له ، يا لك من غبي مغفل ! قال

لماذا ؟

— لانك اتيت الى بيتي !

— أمن الغباوة والغفلة ان اجي . لاراك ؟

— لقد خاطرت بملاقاة زوجي !

— ان خنجري معي أيتها السيدة ، وهو طويل ماض ، وفيه من المضاء

ما يكفي لشك رجلين معا .

— لا تكلمني عن الخاجر والسيوف يا حبيبي جاليو ، فانت باسل

كأثر رجال البلاط • هذا امر اعرفه ، ولكن ليس من شأنك القتال
وإستخدام السلاح •

— ومن يدري ؟ فأنني كلما رأيت رجال السلاح مارين اشعر بالدمع
يجري على خدي فما الكتب وعلم الحقوق من شأن امثالي ، بل هي من
شأن الجبناء الرعاعيد • • وهل من حرفة يا مارسلين افضل من الحب
والنضال ، او من النضال والحب ؟

— انت تخيفني بهذا الكلام يا عزيزي جاليو فلا تعدد على سمعي لانني
اخشى عليك الردى • فماذا فعلت اليوم ؟
— لقد تغديت عند استاذي وتركته ثلثا بالخصرة التي ارسلت بها اليه
والدتي •

قالت ، ثم ماذا ؟

قال ، ثم شهدت مبارزة اثنين من اصدقائي •

— ارجو ان لا يكون قد مات احدهما ؟

— بل احدهما (بارانس) مشرف على التلف •

— وارحمته للمكين !

— الذنب ذنبه • فقد اصر على قوله ان ليس في الوجود امرأة شعرها
اشد شقرة من شعر الحناء مارجو ، وان شعر الفتاة « ليزة » ليس بشديد
السواد • وكل الناس يعلمون ان شعر ليزة اشد سوادا من ظلام الليل •

— ومن تكون مارجو وليزة ايها الخير بالجمال ؟

— لا تألي عنهما فانهما من بنات الهوى • الا انهما ملكتان بين بنات
طبقتهم ، كما ان كاترين وماري ملكتان بين نسوة البلاط •

قالت ، أتعرف بنات الهوى يا جاليو ؟

اجاب ، أليس على المرء ان يعرف كل شيء في الدنيا ؟ وذلك قسم من

اقسام دروسنا ، بل لعله اهم فصل منها برعت فيه .

— ثم ماذا ؟

— ثم عدت الى الفندق فالتفت صاحبه غير من عهدي ، لان المالك القديم اترى وارتحل . اما المالك الجديد فقد اتانا من مدينة نانت ...

— اترأه يكتم السر كسلفه ؟

— انه اصم كحجارة القبور .

— الخوف لا يفارقني يا عزيزي جالو ، واخشى على الدوام ان يشهر

حبي لك ويبلغ الامر زوجي فيقتلني ويقضي على هائنا وسرورنا .

— ومن ذا الذي يجيء باحثا عنك في منزل طالب علم ؟ لانتك لا تخرجين

من البيت الا للصلاة والاعتراف . فاحبيني كاهنا ، فان السيدات ينتظرن

عند الكاهن وقتا طويلا ريشا يجيء دور اعتراف كل واحدة منهن .

— لا تجدف ، لانني اتطير من هذا الكلام .

وسار الاثنان الى حجرة الطالب وكانت على بعد خطوتين من كلية

السوربون . وكان صاحب النزل يتظرهما على الباب وقبته يده ، فقالت

مرسلين لعشيقتها مازحة : ما باله قد كشف اليوم رأسه ؟ ترى هل شعره

جميل كشعر الحسناء مارجو ؟

— يا لك من خبيثة فهل انت غيرى عليّ منها ؟

ثم مال الى صاحب النزل فقال : ما اسمك يا صاح ؟

اجاب ، خادمتك نيكول بروسه .

قال ، هات لحما باردا وفاكهة وخسرا جيدة الى غرفتي .

— سوف يرى سيدي رأيه في الخسرة التي وردت عليّ من غاسقونيا

منذ ثلاثة ايام .

وكان ليكول كاذبا لانه لم يكذ يضل الى باريس ، ولم يرد عليه شيء
من غاسقونيا كما زعم .

فقال جاليو ، انت تدري يا ليكول انني رجل محب للوحدة ، وان ما
من امرأة دخلت قبرا عرفتني .

اجاب ، اني اقسم على ذلك يا عزيزي جاليو .
- لت بحاجة الى القسم ، وانما تذكر فقط !...

وجعل جاليو يده على خنجره ، ثم لحق ببارسلين وقد سبقتة الى
السلم .

ولمعد الى لارنودي . فقد ترك بيت المحامي بعد ان ثبت لديه انه ما
من رقيب في جوار البيت ولا من عين ترى رفيقه القادم ، فاتجه الى شارع
« سن انطوان » فوصل الى باب عند متهاة . وكانت هناك شرذمة من
الفرسان ينتظرونه . فلما وقعت ابصارهم عليه تقدم اليه احدهم فحياء .
فقال له لارنودي ، رعاك الله يا روبر دلاهاي ، اين الامير ؟

اجاب انه هنا ، ولكننا لا نود ان ندعه يذهب وحده معك . ان
الكردينال دي لورين لا يزال في باريس ، ونخشى ان تصادف احد الاشراف
من اعوانه .

قال ، ان الكردينال قد سافر في صباح اليوم يا سيو روبر ، فلما من
خطر يخشى على الامير اذا اتى معي . وعندي منزل آمن في البلد ، اما
هذه المواضع الخالية فليست موضع آمن .

- اذن انا ذاهب لاني الامير برصوا لك . وبعد بضع دقائق سارا الامير
مع لارنودي فسارا الى بيت برنار افيل . فلما وصلا الى عتبة الدار قال
الامير ، الا يرانا احد ؟

فاجابه لارنودي ، لا !

قال ، الا يرانا اهل بيت افنيل ؟

اجاب ، لقد طلبت منه اخلاء البيت ، ولست اسمع صوتا ، فلا شك انه
صرف من عنده .

ودخل الرجلان وصعدا الى المنزل المعد للارنودي . وخلق الامير داءه
وارتمى على مقعده وهو يقول ، الا تعسا لامير مثلي ، دمه من دم الملوك
ولكنه يضطر الى الاختباء كأنه مجرما . قاتلك الله يا مسيو دي جيز فانك
تفطرني كل يوم الى ما لا يجعل بي .

فقال لارنودي ، لا يسني زمن قصير حتى يغدو المسيو دي جيز اسيرا
عند مولاي امير كوندو . ثم خفض صوته وقال ، الا اذا مات دي جيز قبل
ذلك : وكان لويس دي بوربون امير كوندو يومئذ في الثلاثين من عمره
ومن يراه لأول مرة ويتأمل قصر قامته ، ودماثة خلقتة لا يحب انه بطل
الحروب التي شمرها هنري الثاني ، والزعيم الحقيقي لاتباع مذهب كلنيز ،
والنبيل الظريف المحبوب من سيدات البلاط ، والرجل الذي يهاب لحدّة
فهمه كما يهاب لمضاء سيفه ، بل الرجل الذي كان اعداء الدوق دي جيز
يعدونه خلفا لذلك الدوق . الا ان امارات العظمة والكبر كانت بادية على
وجه الامير ، وهو برغم انحناء كنفه اول فارس في الاقطار الفرنسية اذا
ركب فرسا .

وقال للارنودي ، اما الان وقد صرنا الى هذه الخطوة افلا تحدثني بما
جرى لك في سفرك ؟

اجاب ، لقد وصلت يا مولاي الى مدينة نانت منذ ايام ، وفي وسمي ان
اقول لك ان كل شيء قد تهيأ وتدبر .
— هل وصل نواب الولايات ؟

— نعم كلهم •

— ما عدد جنودنا ؟

— ثمانية آلاف او عشرة آلاف • وحدث ولا حرج عن حراسة زعمائهم

وكرهمم للدوق دي جيز •

— مما لا ريب فيه ان ذلك الدوق المختال لا يعرف للوقاحة حدا •

ويكاد يوهم الناس ان منزلة قومه اشرف من منزلة الملوك نسبا • الا مهلا

يا ابن عمي ، فقد يمكن ان تستد الى السلطة ايدي النساء والاولاد ، ولكن

لا يزال يوجد في اسرة سن لويس رجال • وانت يا لارنودي فاعلم انني لا

احب الشدة والعنف •

— نحن آتون لنقدم ملتصا الى الملك ...

— في أي يوم ؟

— في يوم ١٠ مارس (آذار) او ما يقاربه • ولكن هل يبقى البلاط

في مدينة بلوا ؟

— الامر يسير على ما ارى • فانكم تصلون ليلا ، ولا يشرق الصباح

بنوره حتى تقبضوا على ابن عمي دي جيز ، فتحسنون معاملته كما يليق •

واذ ذاك اتولى قيادتكم ثم نرى في ارشاد الملك الى الصواب • اما كاترين

والدة الملك فسوف تكون معي • نعم ان الملك لا يحبني ، الا انه يحب

زوجته ، فلا يعصاني طويلا ... ثم ان اخي انطوان لا عزيزة له ، فسوف

ابقى على امين الختم وابعد سن « اندري » • ولكن ما رأيك يا لارنودي ،

هل تظن اشراف البلاط يخفضون رؤوسهم امام رجل احذب (يعني نفسه) ؟

فاجاب لارنودي ، يعلم اشراف البلاط يا مولاي انك سيد نبيل كريم

باسل مخلص للملك •

قال ، انت تحب الاطراء يا لارنودي ، فانه لا يكفي لاختضاع بلاط فرنسا ان يكون المرء كريما باسلا . وقس عليه بلاط الوالدة فلورنتين . وثق ان لحن صورة ابن عمي تأثيرا في القوم ، يفوق تأثير بساته وكرمه . وكاترين لم تحبه لانه جندي باسل بل احبته لانه لطيف الهيئة حسن الرواء ، والنساء ، يا لارنودي ، في بلاط كاترين أعظم سلطة من الملك نفسه .

واجاب لارنودي ، نعم ، ولكن سلطتهن مقصورة على من يتسلمون اليهن ... فلم يجب امير كوندé .

فقال لارنودي بعد سكوت قصير المدة : اي شأن في الجيش يكون لبترو ؟

قال ، اتعني دي ميرة ؟

اجاب ، نعم فهو الذي ارسلته اليّ الي فانت ليخبرني بانك ستكون في باريس في هذه الايام .

قال ، دعه يفعل ما يحلو له .

قال ، ألم يكن فيما مضى جاسوسا ؟

اجاب ، اعرف ذلك . واهل البلاط يحتقرون الرجل . على انه اسدى ايادي بيضاء في حصار متس . فهو من كرام الناس وشجعانهم .

قال لارنودي ، وهو ينفذ الدوق دي جيز بفضا لا يباويه فيه احد من المتآمرين .

اجاب ، ذلك غريزي فيه . واظنه يقتله اذا تمكن من قتله . فراقبه عند القبض على الدوق فاني لا اروم سفك دمه . اما الان وقد اتفقنا على كل امر فاني مفارقتك يا لارنودي .

— دعني اسير معك واتولى حراستك يا سيدي .

— بل البث عند صديقك أفيل ، قلت بمسافر الى بلوا غدا صباحا ،
ولي في باريس شغل خاص .

— ألا تنتهي من عشرة الناء يا مولاي .

— امكت واسأل الله لي توفيقا .

فشيح لارنودي الامير الى باب البيت ، ونظر اليه وهو يتعد ، فلما
غاب عن نظره قال ، ان هذا الامير ما برح شجاعا يصفح عن اعدائه ويهزأ
بالاخطار ! الا كن مطمئن القلب يا لويس دي بوروبون فان اصدقائك
سأهرون عليك . وسوف يفتكون بالدوق دي جيز قبل ان يتمكن من
قتلك .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل السادس

(بلاط فرنسوا الثاني)

لما رجع المحامي برنار افيل الى بيته لم يجد فيه زوجته فتعجب وصاح قائلاً ، كيف تركت البيت الساعة وأنا في أشد الاحتياج الى رأيها ؟ وبعد قليل عادت زوجته مارسلين وقالت ، لقد كنت في الكنية يا صديقي ، أسأل الله لك النجاح في سعيك . فما الذي قاله لك الكردينال ؟...

اجاب ، انه رحل اليوم .

قالت . رحل الى اين ؟

— لقد لحق بـ بلاط الملك ، فكيف العمل ؟

ولاح مارسلين الهناء والحرية من خلال ستور هذا الحادث ، فلم تتردد بل قالت ، لا بد من سفرك الى بلوا فتلقى الكردينال هناك .

وفي اليوم التالي سافر افيل فوصل الى بلوا في يوم احد . وكان الكردينال وسائر رجال البلاط في الكنية . فهاور افيل قائد الحراس في امره فإشار عليه بالانتظار عند باب الكنية لعله يرى الكردينال وقت خروجه منها .

وما عثم ان انفتح بابها فانبعث من داخلها عطر البخور والطيوب وطرقت

اذنيه نضبات الارغن في اخر القداس . وقد علمنا انه كان بروتستانتيا فقمقم
يقول ، قبحا لهذا المذهب ، الذي يشبه مذهب الوثنيين عبادة الاصنام .

الا انه لم يتمكن من الاسترسال في تأملاته بشأن المذهب الكاثوليكي
لان القداس كان قد انتهى وخرج اهل البلاط من الكنيسة ، فأبصر افيل
شابا لابسا صدره بيضاء عليها صليب ، يتقدم وهو معجب بنفسه . وكان
ذلك الشاب فرنسوا الثاني الابن البكر لكاترين دي مديس ، ولم يبلغ
العشرين بعد . وما يهل تحققه انه كان العوبة بين ايدي رجلين حازمين
هما فرنسوا دي جيز واخوه الكردينال دي لورين . وكان الملك متهلل
الوجه في ذلك اليوم لانه قد مضى اسبوع كامل لم يرفه ابن عمه امير
كوندة . ولم يكن فرنسوا الثاني يحب ذلك الامير . ولروره سبب اخر ،
هو انه امر باتخاذ الالهة للصيد . وكان الصيد من ملذات الملك لانه
يستريح في اثنائه من سماع الطعن على البروتستانتين والكاثوليكين
والثائرين والناقضين ، ثم انه يتمتع وهو في الصيد بصحة زوجته الملكة
ماري .

وكانت زوجته ماري ستوارت ملكة سكتلندا وفرنسا تمشي وراءه .
وقد بهر حسنها الابصار وازرى بحسن كل فتاة من غادات البلاط . وكان
شارل نيبها يمشي الى جانبها ناظرا اليها نظرات ملؤها الاعجاب .

وكاترين دي مديس تمشي وراء كرتها مرتدية بالسواد . وكان سواد
ثيابها وصمة في ذلك البناء والبهاء اللذين حولها . وما من احد يستطيع
ان يحزر عمر كاترين . فقد كانت ذات حسن بقي فتانا لانها رشيقة القوام ،
لها جيد ناصع البياض ، ويدان طالما لحدتها كرتها ماري ستوارت على
بياضهما وصفرهما . ثم انها كانت متأنقة في لبها الاسود ، تنخفض ابصار
عظماء المملكة امام بصرها . ولم تكن تدعى ام الملك ، بل الملكة الوالدة .

فتقدمت تمشي بين أجمل حاشية من حواشي الملكات في العالم • وبين نائها «ديانا دي بوايه» و «اميرة كوند» و «دوقة دي جيز» و «مدام ديانا» ابنة هنري الثاني غير الشرعية ، وغيرهن من السيدات • اما الرجال فكانوا يمشون وراء كاترين ونائها ، وفي مقدمتهم امراء لورين ، والفطرسة والكبرياء ظاهرة على وجوههم ، وحركاتهم شاهدة بعظم سلطتهم • فلما رأى «افيل» موكب السيدات والحاشية ضاع رشده فلم يتجراً على مخاطبة الكردينال دي لورين • ولم يفق من ذهوله وخجله حتى ابصر بين الجمهور صديقا له اسمه للمان دوزي ، وكان سكرتير الكردينال ، فكلمه • وبعد هنيهة ادخله ذلك الصديق مكتب الكردينال ، وكان عنده اخوه فرنسوا • فقال افيل ، ارجو عفوا من مولاي الكردينال ، فما اقدمت على مقابلته الا لامر خطير يتعلق بحياته •

— بحياتي أنا ؟

— نعم ، وحياة مولاي الدوق •

فقال الدوق ، وهل يوجد من يتجراً على مؤامرة ضدي ، بل ضدنا ؟

فاجابه افيل ، نعم يا مولاي •

قال ، اذن ما صدر امرا الى ملازمي باعداد بعض المشائق للمتآمرين ••

— وأسفاه ، ان بعض المشائق غير كافية •

— ما معنى هذا الكلام يا افيل ؟

— ليست المؤامرة المدبرة مكيدة يسيرة يراد بها اغتيال ، وانما هي

مؤامرة كبيرة •

— اظن ان القائمين بها من طائفة البروتستانت ، تلك الطائفة اللعينة

التي تحاول رفع رأسها • الا فلتحذر !! ان رؤوس الرعايا اذا ارتفعت كثيرا

امر الملوك خدمهم المخلصين بقطعها •

وقال الكردينال ، لا تنس يا اخي ان المحامي افيل بروتاتتي •
اجاب ، اعرف ذلك حق المعرفة ، فهو الذي رافق في قضية جبار ديهو
عديل لارنودي المخلص لامير كوندو ***
وهنا تفرس في وجه افيل وقال ، لعل امير كوندو في جملة اولئك
المتآمرين ؟

اجاب ، اجعل ذلك يا مولاي •
قال ، عجب لك يا افيل واثت البروتستتي التقى الذي هاجمني بلسانه
مرارا كيف جئت اليوم تكشف لي سر تلك المؤامرة الموجهة ضدي اكثر
منها هي ضد الملك ؟

اجاب ، لا انكر يا مولاي اني بروتاتتي • الا انني ، قبل كل اعتبار
اخر ، من رعايا جلالة الملك الامناء • ومن طباعي انني اكره العنف ، ولذلك
أنبأتك آسفا بما علمته ، فلا تسألني عن اكثر من هذا البيان ، فقد فعلت ما
يجب عليّ واللام •

وهم بالانصراف فقال له الدوق ، بل البث ههنا • ان في وجودك في
باريس خطرا يقع عليك ، ثم انك لم تطلعنا على كل شيء • قسى يكون
موعد هجوم المتآمرين •

... في اوائل شهر مارس القادم ، يا مولاي •

... اذن بعد ايام قلائل ؟

... نعم يا مولاي وسوف يأتي المتآمرون الى بلوا ليقدموا ملتصقا الى
الملك •

قال ، ويومئذ يفتكون بي او يظفرون الى فرنوا الثاني ابعادي • لعمر
الحق ! ان الخطة حسنة • والآن سيذهبون بك يا افيل الى منزل تقيم فيه
وتتلقى اوامرا •

ففكر افنيل في ان مارسلين لا بد ان تنتظره لكنه قال في نفسه ، ان اسوار بلوا خير لها من الاسواق الكبيرة . ولئن طال زمن اقامته في بلوا فلا يصعب عليه ان يبعث برسالة الى زوجته فيستحضرها ، فانقاد الى الممكن الذي امر له به الدوق دي جيز . ولما فارق الاخوين لبثا هنية وهما صامتان .

وكان فرنسوا دي جيز واخوه الكردينال دي لورين يومئذ في اول شبابهما . تلقيا العلم واولما بالمذهب الكاثوليكي وكانا باسطين حازمين محبوبين من سكان باريس ، مكروهين في بلاط الملك . اما الملكة الوالدة فلم تكن تجرأ على مناوأتها . واما الملك فكان امامهما خلوا من كل ارادة وعزيمة . وهما متحدان اتحادا عجيبا ، ساعيان على مهل الى غرض واحد ، ولا يكادان يجبران على ان ييوح احدهما به للآخر . وقد صارت اليهما شؤون المملكة يأمران فيها وينهيان ويتناولان من خزانها المال ، ويحكمان باسم ابن اخيهما الملك . وما يزيد نفوذهما وعظمتها اتحادهما . فان ايها كلود دي لورين اوصاهما بالاتحاد وقال لهما ، ان الاسرة التي يتحد اعضاؤها وهم عديدون ، قد تدرك ابعدا شأوا . ولذلك كان غرض كل واحد او واحدة من اسرة لورين واحدا . هو تعظيم بيت لورين .

فقال الكردينال ، على م عولت يا اخي ؟

— على اجتذاب اعدائنا هؤلاء الى معركة طاحنة .

— لست اغني بكلامي لارنودي ، وان كان علي ما ارى زعيم العصابات

وكبير المتآمرين ، ولكن وراه ابن عمنا امير كوندو .

قال ، لنضرب المتآمرين اولاً ، ثم نرى كيف نتخلص من الامير . ولعلنا

نجد من الاسرى من يخونه .

— واذا لم نجد فيهم خائنا او لم نجد بينهم متبها للامير ؟

— الا تحسب حسابا للاستنطاق يا اخي ، على اننا سوف نحصل من الملك على ما نبتغي ، والفضل يعود الى ماري ... فهل رأيت الملك لما كان يحلق اليها بصره اليوم في الكنية ؟

... نعم ولا خوف علينا من هذا الهوى ، فان الطبيب (فرتل) اكد لي ان فرنوا لا يعقب وارثين .

وفيما كان اميرا لورين يتكلمان بهذا الكلام عن بكر هنري الثاني وهو المحسن اليهما ، اتفتح باب الحجرة التي كانا فيها وقال احد الحراس : الملك ! ودخل الملك فخطب الدوق قائلا ، عجباً منك يا ابن العم ، ما اراك مستعدا للذهاب الى الصيد والقنص ؟

— اننا لا نذهب الى الصيد والقنص في هذا النهار ايها الملك .
— ولكنني اشعر بضجر وسأم اذا لم تكن معي ، ولئن لم تصحبني فان ماري تكتئب وتقطب وجهها .

— لا شك انني لم احسن الايضاح ايها الملك اذ قلت لك اننا لا نذهب الى الصيد والقنص في هذا النهار ، وانما اردت ان اقول ان البلاط بأسره لا يذهب .

— ما معنى هذا الكلام ، ألم اصدر امرا في هذا الصباح باتخاذ الالهية ؟ ألم يتلق ناظر الصيد ذلك الامر ايضا ؟

اجاب الدوق ، لا قدرة لنا على الصيد اليوم .

— ولماذا يا ابن العم المحترم ؟

— لان البرية لا امن فيها .

— أليس عندي حراسي ؟ وفضلا عن ذلك فمن يجترئ على مهاجمة ملك فرنسا ؟

— ان اعداءنا لا يرهبون احدا ايها الملك .

— اوضح ايها الدوق معنى كلامك ، فاني لا افهمه .

وقد هاج الجنى الملك لحرمانه لذة الصيد في ذلك النهار ، واخذ
ارتعاد ، واظلم وجهه الى ان قال الكردينال مستملا متأنيا في تلفظه : لقد
اكتشفنا اليوم مؤامرة .

— قال الملك ، ومن يدبرها ويدبرها ؟

— اجاب ، لم ندر حتى الان . فان للمتآمرين زعيما تجهله ، وهم
خاضعون الان لواحد من اشراف بلاط الملك .

— من هو ؟

— هو لارنودي على الغالب .

— ان لارنودي روح ابن عمي كوندو ويده اليمنى !

— لسا تهم امير كوندو ايها الملك .

— وانك لمخطيء يا عماه لان ابن عمي كوندو مدير تلك المؤامرة . ولا
يخفى على ذلك . ولكن على اي امر عزمتما ، وماذا تصنع ؟ اني اراكما
مطمئنين كانه لا خطر عليّ ! الا جرد سيفك يا عماه وهجوما على العدو !

ولقد احترم الملك فائز فيه احتداه ، فترامى على كرسي وهو يلتهث
تعبا ، ثم اصيب بحصى مفاجئة ، فظهرت على وجهه بقع صفراء ، وانسكب
العرق من جبينه ، ولعت عيناه وتاه بصره ، وجعل يده على سيفه وهو لا
يقوى على تجريده . فنظر الدوق واخوه الى ذلك الفتى العليل البدن ثم
همس الدوق في اذن اخيه يقول ، اذا ائبه بنو « قالوى » هذا الشاب
الضعيف فان سلاطنتهم تنقض في القريب العاجل .

وقال الملك فرنسوا الثاني : ماذا تفعل ايها الدوق ؟

— نرتحل عن بلوا .

— أنتقهر امام اعدائنا ؟

— كلا ايها الملك ولكن نخادعهم ، والحرب خدعة . ولا بد ان يصلوا بعد ايام الى اسوار بلوا ، فلا يجدون فيها احدا منا فيفسد قسم من تدبيرهم . واذا ذاك يلحقون بنا الى امبواز لاننا سائرون اليها . ومعلوم ان امبواز محصنة ، وفيها سهل علينا الهجوم فنسحق المتآمرين سحقا قبل ان يتمكنوا من الوصول اليها .

— انقبض على الامير ؟

— انا لا تزال تجهل ايها الملك توليته رئاسة القوم .

واذا ذاك سمعوا وقع حوافر خيول في ايوان القصر تحست نوافذ الكردينال ، فاطل الملك من النافذة ورفع صوته مناديا ابن عمه امير كوندرة لانه رآه تحت النافذة وقد وصل ساعتئذ من باريس وقد نهكه التعب . قدخل وانحنى امام الملك ، فقال له بلهجة تشف عن تهكم : لماذا تركنا ، فلا تجد الآلة دي ليول كافية لمكثك في بلاطنا ؟

اجاب ، لقد كنت في الصيد ايها الملك مع بعض رجالي ، وفكرت في ان وجودي عندك لا يفيد ...

قال ، انت واهم يا ابن العم ، ومنذ الان لا تفارقنا . فخفض كوندرة رأسه ونظر الى وجه الدوق فرأى فيه شيئا من السخر وتال في نفسه ، لعل الملك وعميه عارفون بقدومي الساعة من باريس .

وانثنى الملك الى فرنسوا دي جيز وقال له ، مر بالتأهب للسفر ، فصاح كوندرة ، ألرتحل عن بلوا !

اجاب ، نعم يا ابن العم ... فهل في ذلك ما يعيظ مقاصدك ؟ .. انا مسافرون في هذا الماء .

— لست ادري حتى الان يا ابن عمي اي جهة نقصد ، ولكن سوف تصبحنا فترى . ومضى الملك وهو محتدم حائق .

الفصل السابع

(في امبواز)

وفي اليوم التالي كان بلاط الملك في امبواز ، وقد جهل رجال الحاشية ووصائف الشرف والملكتان السبب الذي من اجله ارتحلوا عن بلدوا .
واراد آل جيز والملك ان يفتضح المتآمرون ، اما امير كوندرة فلم يكن الكلام في هذا الشأن من مصلحته ، واما المحامي افيل ، فلم يكن يجبر على الخروج من المخذع الذي اختص به .

فلما كان يوم ١٠ مارس (اذار) شعر القوم بحركة او حادثة خطيرة ،
الا انه لم يتبين لاحد ما هي .

اما المتآمرون ، فكانوا يأتون عصابات تؤلف كل منها من خمسمائة رجل الى ستمائة . يتوافدون من البرية مختبئين في الغابات والقصور والفنادق . وهي عصابات غريبة لانها مؤلفة من جنود ، وعامة ومقاتلين وبروتستانتين وقرويين ، جاء اكثرهم في الموعد المضروب مغضبي الاعين ، حاسبين انهم انما اتوا ليقدموا ملتصقا الى الملك : والرؤساء وحدهم كانوا يعلمون ان القصد من ذلك المسمى قهر الدوق دي جيز . وهؤلاء لم يروا الا التظاهر بغرض صالح . اما لارنودي فكان حاضرا في كل مكان يرى

في الطرق والفنادق وفي مقدمة كل عصابة ناقلا الى الرؤساء او امره الاخيرة .
الا انه كان قلقا لانه لم يتلق نيا من امير كوندو ، ومع ذلك فقد حسب ان
الحذر قضى على الامير بالسكوت ، وان لا بد ان يلتقاء وقت دخول المدينة
مستعدا لتولي رئاسة المتآمرين . ولقد اخل بخطته انتقال الملك ورجاله من
بلوا الى امبواز ، الا انه تحاشى الخلل بسرعة .

ففي مساء يوم ٩ مارس (اذار) لم يكذ يدخل الفندق الذي اتخذه
مقاما متوسطا حتى التف برذائه واضطجع قرب الموقدة ويده على قبضة
سيفه والاخرى على غدارته . فنام ساعات ولم يستيقظ الا عندما اطفأ
صاحب الفندق انواره استعدادا لاغلاقه . واذا ذلك ابصر لارنودي في زاوية
من مخدعه غنيين محدقين فيه ، فقال في نفسه : لقد وقع بصري قبلا على
هاتين العينين .

وكان كثير الارتباب ، شأن من يهم بامر خطير ، فاتجه الى تلك الزاوية
من الحجرة حاملا مصباحا ، ثم وقف وقال هذا بلترو !

اجاب ، نعم انا ذاك يا مسيو دي لارنودي . ألم تكن تتوقع ان تراني ؟
قال ، بلى ، ولكن في غير هذا المكان . وانني كنت احبك الان فسي
امبواز .

اجاب ، اصبت ، وكان ينبغي ان الحق بالبلاط ، الا ان المسيو دي جيز
امر باقفال الابواب قبل الوقت المعتاد ، فاضطرت الى البيت هنا .

فتفرس لارنودي في وجه الرجل وصاح ما دهاك وما هذا الذي في
رأسك .

اجاب ، انه تذكّار من الدوق دي جيز .

قال ، هل دس عليك من يقتلك ؟

... كلا لم يدس عليّ احدا بل تولى الامر بيده ، ولئن لم يفلح فليس

الخطأ خطأه .

— حدثني بذلك يا بلترو .

— قصتي قصيرة . كنت اهوى فتاة حسناء ، ففتت مدينة اورليان ...

— قال لعلها ابنة الكبي لوم ؟

— نعم ، وابوها صديقي كما تعلم . فلما عدت من مدينة فانت ، اردت

الاجتماع بهما . وفي ذلك المساء بعينه قضت الصدفة بان اقفى خطوات

الدوق دي جيز ، وكان ذلك ساعة همت بمغادرة اورليان . فتبعته حتى

رايته وقف بعانوت الكبي يعقوب لوم ، وابصرت سلما من الجبال تدلى

اليه من شرفة مادلين ، فتسلق الدوق على الحبل وصعد الى حجرة تلك

الفتاة التي كنت اهوها ...

قال لارنودي ، قبضه الله من فاسق !

قال بلترو ، الا تذكر يوم سألني في فانت عما اذا كان يوجد سبب

شخصي يحصلني على معاداة الدوق دي جيز واجبتك انني انما ابغضه لانه

عدو مليكي ومذهبي . فالان انا ابغضه لانه عشيق مادلين . واسأل الله

ان يبقى على حياته الى ان التقى به واقتله بيدي .

ولكن كيف جرحته ؟

— تبعته وما كدت اصل الى الشرفة حتى انفتح باب غرفة الفتاة

مادلين ، ثم شعرت بالهم شديد في رأسي فسقطت من الشرفة الى ارض

الشارع ، ولبثت مددا هناك حتى الصباح . فلما فتح يعقوب لوم مكتبته

ابصرني فادخلني بيته ، وعالجني مادلين من غير ان تتكلم ، ولم اخاطبها

بكلمة لانني لم اقول على توبيخها . ولا شك عندي ان الدوق اغراها

وخدعها وقال لها انه من رجال البلاط دون ان يعرفها بنفسه .

قال لارنودي ، ان مصابك يا بلترو يشدد حبل ولائنا واتحادنا . وانما

نحن ، انا وانت ، لا غرض لنا من حياتنا الا الانتقام لانفسنا !
— هذا صحيح .

— لقد اقسمت لي اذ كنا في مدينة نانت على ان تتقم لي اذا مت
قبلك انتقامك لاحد اقربائك .

— اني لا ازال على عهدي وقسمي .

— شكرا لك ولست ادري هل نفلح في مشروعنا ام لا ، غير ان نقي
تحدثني بالخفية . فاذا هلكت ...

— اكون انا حاضرا يا ميسو لارنودي . . اما انا فاشعر انني لا اموت
الا بعد ان يتقم لي .

وخرج الرجلان من الفندق للاهتمام بمعدات الهجوم .



وبعد رحيلهما بضع دقائق وقف بغل وحصان باب الفندق ، وكان
على البغل امرأة ، اما الحصان فكان يتطيه شاب . فترجل الشاب واقبل
على المرأة فمد اليها يده ليسانعدها على النزول . ثم طرق باب الفندق وطلب
غرفة وسريرا وعشاء . فتذمر صاحب الفندق ودمدم ساخطا على الذين
يسافرون ليلا الا انه لما رأى دينارا وهاجا يلعب بيد الشاب ذهبت عنه
كشرته . وبادر الى الطبة السفلى من الفندق ليأتي بالنبيذ المطلوب . فلما
خلا الشاب الى المرأة قال لها ، قاتل الله زوجك ايها السيدة ! كيف رأى
استقدامك من باريس وقد كنا فيها على اتم نعيم وسرور . وايم الحق لقد
كان في وسعنا ان ندعه وشأنه بضعة اسابيع ايضا .

قالت ، لقد اخبرتك يا جاليو ان لهذا الامر علاقة بحياتنا وثروتنا، فان
زوجي سافر من باريس مرعا بادرا الى البلاط فمتعوه من العودة، فطلب

اليّ اللّحاق به ، فهل في ذلك ما يدعو الى العجب ؟

اجاب ، لقد كان يجب على زوجك ، ايها السيدة ، ان يفكر في ان السفر لا يخلو من خطر اذا كانت الطرق مزدحمة بالصّوص ... ولم تصادف منذ هذا الصّباح الا سكارى وجنودا مسلّحين واثرا را كان ملك اسبانيا محاصر مدينة متس (١) .

قالت ، يظن زوجي ان ممي خدما امنا . ولكن هل خفت ايها الطالب من الرجال المسلّحين الذين رأيتهم في طريقنا ؟

اجاب ، انا خفت ؟ . انا جاليو دي ترسك اخاف ! وحق في وجه مارسلين ثم قال ، اني اجهل الخوف ولا افهم معناه لكنني اعجب لاجتماع الرجال الذين صادفتهم في الطريق واكثرهم مدجج بالسلاح ... وبعضهم يقرأ التوراة .

قالت ، لعلهم من البروتستانتين .

اجاب ، ما احسب هؤلاء الوعاظ يتقلّدون السلاح ويسرون الى امبواز وقد اتقل اليها بلاط الملك ، فهم لا يجرأون .

قالت ، لا تنظر اليّ يا جاليو هذه النظرات . فانا اعرف انك باسل ، ولكنني اتوسل اليك ان تدع خنجرك جانبا اذا نشب القتال غدا ...

— وهل يشب القتال غدا .

— اني لي معرفة ذلك .

(١) ورد ذكر حصار متس مرارا ولذلك رأينا ان نذكر شيئا عنه . فمتس مدينة فرنسية على بعد ٣١٦ كيلومترا من باريس . استخلصتها فرنسا من شارلكان سنة ١٥٥٢ على عهد فرنوا الثاني . وحاصرها شارلكان قدافع عنها فرنوا دي جيز احسن مدافعة . اما الآن فهي من المدن الالمانية ، اذ تخلت فرنسا عنها بعد حرب السبعين ، ثم استعادتها بعد ذلك .

— اذن فلماذا تكلميني عن ذلك .

وجاء صاحب الفندق باللحم المقدد والخمر فذاقها جاليو وقال ، انها خمرة جيدة وسوف اهدي اليها استاذي برنابا . . . ولم يكذب يتم هذه الكلمات حتى ضرب باب الفندق ففتحه صاحبه ودخل رجل يادن احمر الوجه صغير العينين . فما كاد يراه جاليو حتى صاح ، هذا استاذي ! فاجابه ، نعم استاذك ايها الجاهل ! قال ، هذه كلمة لا اطلق سماعها يا برنابا ، فارجم فيها والا تكدرت منك .

اجاب ، اني رجعت فيها عن طية خاطر .

قال ، والان اجلس ايها العالم الشهير قريبا منا ، وحدثنا فاني لك سامع . واسمح لي بان اعرفك باجمل امرأة جلست الى وجهك القرمزي لأول مرة .

قال ، كيف لحقت بي ؟

اجاب ، اني اكرتت بغلا الا انه لطيف فيلسوف .

— لقد أثار في هذا البرهان الذي يدلني على ولائك . فاشرب يا استاذي ، والذي اراه ان الناس قد تغلب عليك . . . بل ارى اليهم قد نام .

وكان برنابا قد اطبق عينيه وفسه ملائ بما دسه فيه من طعام . وكانت الصبية قد لزمت الصمت امام الاستاذ . قالت ، اني لاخلش ان يكون قد عرفني . فاجابها لا تخافي . وهي انه عرفك فهو كنوم ، وقلما يهمه النظر الى وجهه النساء لانه لا يحب الا الكتب والخمر والطعام .

— وهل يعبك انت ؟

— على سبيل العادة ، فهو قد تبعني لانه اعتادني . وعلاوة على ذلك فانه من أطف الندمان وان تجاوز الخسین ، وعنده حكايات مطربة على

الدوام ، وكيس ملآن قد ينفعني عندما أفارقك .

— أتروم ان تفارقني يا جاليو ؟

— وأأسفاه انك تصبحين بعيدة عني حطما تدخلين امبواز . اما الان

وقد وصلت اليها فلا حاجة بك الى رفيق . فما رأيك اذا رجعت الى باريس ؟

— هل اشتقت الى ليزه ومارجو ؟

— لا ، ولكن لا أفكر فيك هنالك . اما اذا لبثت وحيدا في امبواز فاني

سأتحرش بالحراس واقتلهم تلهيا .

— لا حاجة بك يا جاليو الى مثل هذا التلهي ، فان المرأة لا يصعب

عليها ان تلتقى من تهواه عندما تشاء . وأنا احوالك كما تعلم .

وهكذا بقيا يتحدثان حتى سمعا غطيظ برنابا فتنباها الى ان وقت الرقاد

قد حان . فاضجعا وافاقا على دوي الطلقات النارية . وكذلك افاق برنابا

من نومه ، الا انه بقي متمسكا به برغم رأي صاحب الفندق ونصحه له

بالنهوض .



اما لارنودي وبلترو فقد راقبا التأهبات . وكانا قد ركبا جوادين ودارا

دورة حول امبواز . واجتمع المتآمرون في الطرق منتظرين بذاهب الصبر

طلوع النهار ليدخلوا المدينة . وبعد ان تحققوا ان كل شيء قد اعد كما

ينبغي ارادا ان يعرفوا احوال المدينة ، فابصرا بعض الحراس عند جدرانها

يتمشون كمعادتهم والابواب مفتوحة كالعادة ايضا والسكينة سائدة على

المدينة . وابصر بلترو نورا من خلال نافذة من نوافذ القصر الذي يقيم فيه

الملك وبلاطه ، فقال ، لا شك ان أمير كوندé ينتظرنا .

فاجابه لارنودي ، وعسى ان لا يكون هذا النور في غرفة الدوق دي

جيز ، وان لا يكون ساهرا يترقب .

ثم رجعا فالفيا ثلاث كئائب ، وجعلا عند كل باب كيسة ، ووقف
لارنودي في اشد المواقف خطرا عند احد الابواب . وعهد الى بلترو وبول
دي رشان بالوقوف امام البابين الآخرين ، ثم تقدموا .

وكان حاكم امبواز ، وهو الدوق دي نيفار ، داخل السور يراقب ،
فدخل وقتئذ على الملك ، وصاح ، لقد تقدموا ايها الملك !!

قال الملك ، لا شك انهم ابناؤ مذهب كلفين ، وزعيمهم لارنودي .
اجاب ، انا نجهل ذلك ايها الملك ، ولا ندري سوى ان العدو يدنو منا
قال ، اذن فجردوا السيوف واهجموا على الهاجمين فهم الاعداء
ملكنا !

واستيقظ القصر من رقده اذ ذاك ، ودخلت احدى الوصائف على
الملكة الوالدة تقول لها ان العصابات المسلحة هاجمة على المدينة وانهم من
البروتانتين .

ثم خرج الملك وعيناه حمران يكاد الدم يفيض منهما وميفه مجرد
بيده وهو يقول ، اني لا اري ابن عمي كوندرة ، فاين هو ؟

فاجابه امير كوندرة وكان يرى ويسمع قال ، اني اعددت امضى السيوف
لمقاتلة اعداء الملك .

وهو لم يكن يجهل ان كل شيء يظهر في بلاط الملك فقضى ليته عند
عشيقة له في القصر ليعد عنه الظنون . فقال الملك ، ان اشياع مذهب كلفين
هاجمون علينا وهم بضعة آلاف تجرؤا على مليككم فلا بد من انقاذ العدل
.. والمأمول من عنا الحبيب الدوق فرنسوا دي جيز ان يسير بكم اليهم .

وجرد الاشراف سيوفهم ، فقال الملك مخاطبا امير كوندرة ، على ابناؤ
امراء البيت المالك ان يكونوا حضورا ساعة الخطر ، وسوف يوليكم عنا
الدفاع عن احد الابواب .

فاجابه امير كوندرة ، انني اتمنى ايها الملك ان اموت في سبيل خدمتك !

الفصل الثامن

(القتال)

في ذلك الوقت تشب القتال وعلا دوي الرصاص الذي به جالو دي نرساك ، ومارسلين ، وبرنابا ، وللحال غصت شرف الاسوار بالمقاتلين ، وتساقط الرصاص مطرا على لارنودي ورجاله ، وخر القتلى ركاما . الا ان ذلك الموت الزؤام لم يشن المتآمرين ، بل زحفوا الى الامام حتى وصلت كتائبهم الثلاث الى خنادق المدينة ، واذا بالابواب قد انفتحت فجأة وخرج منها الفرسان جماعات كثيرة فهجموا على المحاصرين ، وكان هؤلاء قد نهكتهم مشقات الفر ورفودهم ليلة ملتجئين السماء ، وقلما توقعوا لقاء عدو حازم فتفرقوا في الحال . وكان الدوق دي جيز في مقدمة اولئك الفرسان الذين هاجموا لارنودي ورجاله . فعزم لارنودي على ان يقاتل متقهقرا مع رجاله ، فلم يلق السلاح ولم تتمكن الكتيبان الاخريان اللتان يقودهما بلترو ودي رشيان من الثبات امام جنود متريحين ، فتقهقروا كذلك . ووقف جنود الدوق متعجبين من سرعة انتصارهم غير عالمين ان معظم المتآمرين انما توافدوا لرفع ملتس الى الملك . وكان وقوف جنود الدوق دي جيز سببا في اتحاد المتآمرين والتفافهم حول لارنودي فقال لهم ، لا شك انه كان بيننا خائن سوف نحاكمه فيما بعد ، اما اليوم فليس امامنا

الا القتال متراجعين ، فليصرف كل منكم جنوده مجتنباً لقاء جنود الملك ،
وسوف نلتقي الليلة في ضواحي بلوا ، وسيظن الدوق دي جيز اننا انهزمتنا
واذ ذلك تدبر .

وكان لارنودي يتكلم بلهجة تبعث الطمأنينة في النفوس ، الا انه احس
بان الهزيمة تامة فلم يتجراً على التلفظ باسم امير كوندرة ، وهو لا يدري
اذا كان قد تخلى عنه او قبض عليه فهو سجين . . . واقبل فرمان الملك
ووصل بعضهم شاهرين سيوفهم وكانوا عشرين فارساً .

فتواهب بعض السكاري الى لارنودي واصطفوا حوله لعلهم ان لا
يد من وقوعهم اسرى ، ففضلوا القوط في القتال على عذاب الاستطاق .
فودع لارنودي اصدقاءه وألجأ بلبترو ودي رشان الى الرجوع ، مبيناً
لهم ان وجودهما مع الجند مما لا بد منه خوفاً من الهزيمة . وكان الفرسان
المعشرون لا يزالون على بعد خمسين خطوة من لارنودي .

واذا به قد ابصر الدوق فصاح الرجال ، اطلقوا النار على الدوق !
اما الدوق دي جيز فنادى فرمانه قائلاً الى الامام ! اقتلوا
البروتستانتين !

ولم يصب الرصاص الدوق ، فقال لارنودي ، قتله الله الا يصيب اللعين
الرصاص ! الا اطلقوا النار يا قوم مرة ثانية .

ثم تقهقروا ثيماً فثيماً حتى وصلوا الى الفندق .

فصدعوا بالامر ، ولما انتشع الدخان ظن الفرسان ان جنود لارنودي
قد اخلوا لهم الطريق فقال احدهم ، وهو البارون دي برديان من رجال
الدوق ، تباً للجناء فقد هربوا :

فاجابه الدوق ، كلا لم يهربوا فقد ابصرت لارنودي في طليعتهم ،
ولارنودي لا يهرب دون ان يقاتل بسيفه .

وقبل ان يصل الفرسان الى مقربة من الفندق اعترضتهم مركبة يعبرها جنود لارنودي .

وكان المقيمون في الفندق يراقبون المعركة بقلق ، وقد وقفت مارسلين الى كوة تنظر منها الى القتال والفتى جاليو دي نرساك بقربها يتلظى شوقا الى مساعدة لارنودي . اما صاحب الفندق فقد آوى الى زاوية يبكي ويلعن رجال الحرب . وكذلك الاستاذ برنابا فقد توصل الى تلميذه طالبا اليه ان يرافقه الى الطبقة السفلى من الفندق ظنا منه ان رصاص المقاتلين لا يصل الى تلك الطبقة . وقعد هناك يطالع اشعارا من نظم منيكا موضوعها احتقار الخطر .

وامر الدوق دي جيز برديان بان يدور حول الفندق ويهاجم مؤخرة لارنودي . ولحق بالفرسان بعض حملة البنادق من جنود الملك فمروا بين الخيل ، وبات هكذا لارنودي بهذه الحركة التي اتاها برديان محاطا بالسيوف والبنادق .

وشاهد جاليو دي نرساك كل ذلك فقال ، لا شك ان هذا الشريف شجاع ، وحرام ان يقتله الجنود دون ان ياعده احد . فتشبثت مارسلين به تقول له بحقك يا حبيبي جاليو لا تذهب .

قال ، لا تحاولي ان تمنعيني بل البشي هنا ولا خطر عليك . اني عزمتم على القتال .

وفيما كان جاليو نازلا سمع مطلق البنادق وقد خر رفاق لارنودي قتلى الا انه هو بقي واقفا متلاميضا منتظرا من يهجم عليه . فناداه جاليو ، صبرا ايها الرجل الشجاع فاني آت لنصرتك !...

ووثب وثبة صار بها الى جانبه واختطف سيفا من يد رجل بروتستاتي كان مع لارنودي وصرخ في وجوه فرسان الدوق قائلا ، ويحكم يا لسام الا تخجلون واتم عشرون من مهاجمة شريف واحد ؟

فاستضحك الفرسان الا انهم لم يأتوا بحركة . وكانت الطريق ضيقة
ومن يتقدم يخاطر بجواده وتفسه . وصاح الدوق ، بادروا الى قتل هؤلاء
البروتستانتين !!

فاجابه جاليو ، اما انا فليست منهم ايها المولى .
قال ، اذن ما شأنك معهم ؟

اجاب ، اني اقاتل مع الاضعف وهو من تروم اغتياله .
ثم خفض صوته وقال لارنودي ، ان جوادي في فناء الفندق فخذ
واهرب من الباب الخلفي اذ ليس عنده احد فتنبو ، اما انا فاني فتي ولا
يفتكون بي .

الا ان لارنودي لم يتمكن من الجواب على هذه الكلمات لان البارون
برداليان حمل بندقيته واقل ، قاطلق النار على صدره فسقط صريحا على
جثة لافين صاحب سره وكان قد جرح قبل ذلك واغشي عليه . اما جاليو
فما برح مجردا سيفه شاتما الفرسان ، فقال الدوق دي جيز هاتوا هذا
الغلام الى امبواز .

ولكن لم يكن انجاز ذلك الامر من الهبات الهيئات . فحيما كان الدوق
دي جيز يطارد الهاربين هجم البارون برداليان على جاليو ، فما لبث
البارون ان اصيب بجرح في كتفه من سيف جاليو . فامر رجاله باطلاق
النار على خصمه ، الا ان جاليو كان مغرما بضرب السيف كارها للطلقات
النارية ، فدخل الفندق واقتل بابه فوجد مارسلين امامه تتوسل اليه وهي
تكاد تسوت رعبا . فسار بها الى بستان الفندق وكان جواده هناك فركبه
واركب مارسلين امامه .

وفيا كان برداليان يقتلع باب الفندق مع رجاله فر جاليو من باب
البستان .



وهكذا كان هلاك المتآمرين على يد الدوق دي جيز فامتزجت دماؤهم
بماء نهر اللوار ودام الذبح والتقتيل حتى امتد ستر الظلام . وبان الجنود
يسوقون الاسرى الى المدينة انواجاً . . .

اما امير كوندّة فلم يفارق الموضع الذي اقامه فيه الدوق دي جيز بأمر
الملك ولم يتجرأ على مخاطبة اولئك الاسرى لانه كان يتوق الى معرفة ما
جرى للارنودى ولا يدري هل قتل وضاع كل امل . وفيما هو يفكر ابصر
جاليو دي نرساك مقبلاً وامامه مرسلين على الجواد منقبة الوجه . فلما
اقترب جاليو سدد اليه احد الحراس بندقيته وقال له أنت من انصار
القدس ام من انصار الوعظ .

والمراد بانصار القدس الكاثوليكيون وبانصار الوعظ البروتستانتون
فارتبك جاليو من هذا السؤال لكنه وقف وصاح ، ليحيى الملك !!
واذ ذاك رأى فارساً اعرج يأمر الفرسان وينهاهم وهو لايس افخر
اللباس فعلم انه امير كوندّة ، فصاح ايضاً ، ليحيى الامير !!
فرفع رأسه وقال ، دعوه يدخل .

فقال الحارس ، لعله يا مولاي احد المتآمرين ؟
وهكذا دخل جاليو المدينة مع مارسلين زوجة المحامي افيل . ولم
يكذ يسير قليلاً حتى سمع وقع خطى وراءه فالتفت فرأى الامير يشير الى
زقاق فدخله فتبعه اليه وقال له ، أتدري ماذا جرى في الطريق ؟
اجاب ، لقد قدمت البلد ونزلت في اول فندق الى يار المدينة .
وايقظني في الصباح دوي رصاص البنادق فابصرت جنوداً وقرويين
مسلحين وهم قاصدون الى المدينة وما لبثوا ان دحروهم فرسان ظلموا عليهم
فجأة .

— هل رأيت قائد اولئك القرويين والجنود ؟

— رأيت شريفاً باسلاً قد سقط وقت تقهقرهم ولا أدري إذا كان رئيسهم
— صفه لي •

— أنه طويل القامة ، على وجهه امارات العزم ، اسود الشعر يخالطه
بياض ...

فخفص كوندة صوته وقال ، لعله هو ... فهل مات ؟

— نعم عند قدمي •

— هل كنت في جملة المقاتلين •

— لا ولكنني رأيت ذلك الشريف الباسل وحيداً يقاتل عصبة فنزلت
من القندق لماعدته عليهم •

— وكيف نجوت منهم •

فضحك جالو وقال ، لقد كانت نجاتي بأعجوبة •

— مع صاحبك هذه ؟

— نعم •

— ما اسمك •

— جالو دي نرساك طالب في كلية الربون •

— اذن تعال غداً يا ميو دي نرساك الى القصر واطلب مقابلي فيه
فقد اكون محتاجاً اليك •

— ليت لي نصيباً في خدمتك يا مولاي ، لان نفسي لا تميل الى تلقي
العلوم ودرس اللاهوت كما يروم اهلي •

— أفضّل تقلد السيف ؟

— نعم يا مولاي •

— اذن الى الغد •

— الى الغد يا مولاي •

واوصل مارسلين الى زوجها في القصر ، اما هو فأتجه الى فندق ودخله
فأكل وشرب وقعد يفكر ، فخطر في باله استأذه برنابا فقال ماذا جرى له يا
تري ؟ وكان جاليو يحب برنابا فلم يتمالك ان فارق الفندق ومضى يبحث
عنه ..

قلنا ان ذلك الامتاذ اختبأ وقت المعركة في الطبقة السفلى . فلما سمع
الجنود يقولون « اين ذهب الطالب اللعين . فلا بد من قتله » ! قال برنابا
في نفسه ، لقد أمنت عليه الان . وصبر حتى خلا الفندق من الجند فصعد
اليه ، ولما رآه صاحبه قال له ، أأنت هنا ؟

فاجابه ، اني اجتنب كل فرصة تسنح لفك دماء الناس ، فأين الطالب
الفتى ؟

قال ، لقد مضى دون ان يدفع اليّ مالا فلا بد من ان تدفع انت . بل
تدفع عن سائر الناس . فان مركبتي تعطمت وبابه اقتلع وجملته ما اطلبه
منك عشرة ريالات ... فلا تخرج من هنا الا بعد اداء هذا المبلغ .

وكان القدر كبيرا والاجرة كثيرة بالقياس الى مييت ليلة على كرسي في
بدروم الفندق الا ان برنابا دفع المبلغ لشدة ماله وقال ، هل تدري الى
اين اتجه صديقي الفتى ؟

اجاب ، اظنه مضى الى امبواز .

قال ، شكرا لك .

وسار برنابا فالتقى بجاليو عند ابواب المدينة فهناه بالسلامة ثم قال
له ، ما هذا الجنون الذي دهالك ؟ اتلقي بنفسك الى الهلكة ؟

اجاب ، سوف تلومني فيما بعد يا استاذي ، اما الان فانت جائع
عطشان ، الا اذا كنت قد تناولت شيئا من المخزون في الطبقة السفلى التي
كنت فيها .

قال ، لم أذق طعاما منذ صباح اليوم ، فهل تعرفه فندقا صالحا ؟
وبعد نصف ساعة كان برنابا يلتهم دجاجة وينظر مليا الى زجاجة امامه
من خمر بورجونيا . فقال لتلميذه هل عقدت النية على ترك المدرسة ؟
فاجابه ، نعم يا استاذي . قال ، لما ذلك !... اجاب ، لانني اريد ان اكون
من رجال الامير كوندو . قال ، أتعني ذلك الاحدب ! واي نفع لك من
خدمته ؟ اجاب ، نعم انه احبب ولكنه اشجع من الدوق دي جيز عم الملك ،
ومحبوب من نساء البلاط جميعا ...

وقال برنابا ، ان المرأة مخلوق بديع يوجد في ابخرة الخمر المعتقة كما
يوجد في اروقة قصر اللوفر . ألم تفدك مني القدوة الصالحة ؟ ألم تنفك
آرائني الجديدة حتى اردت الرجوع عن العيش الرغد ، عيش العلماء ؟
تقر عينك بالاضجاع على الثرى البارد حينما اكون متمددا على سرير جيد
وفراش لين ؟ ايطيب لك القتال وتلقي ضربات السيوف حينما اكون
مستلقيا على كرسي واسع مريح من خشب السنديان اظالم قصائد ونزار ؟
انت تعلم ان التعرض للحرب والنزال يقضي عليك احيانا بالامتناع عن
الاكل او باتخاذ خبز القروي قوتا ، في حين ان مائدتي مغطاة على الدوام
بغطاء ابيض كالثج ، عليه قناني الخمر المعتقة والثمار الناضجة واللحوم
الطيبة وغيرها من المآكل الشهية ، فهل تستطيع يا جاليو ان تهجر ذلك كله
وتقاسي شظف العيش ؟

قال جاليو ، اصغ اليّ يا استاذي لاني اريد ان اترشد برأيك . قال
تكلم . قال ، اني اهوى امرأة حسناء منذ بضعة شهور . قال الاستاذ ،
قد عرفت انها فهي زوجة المحامي ! قال لقد سمعت كلامك يا استاذي دون ان
اسبقك بالكلام ، فاسمع كلامي الى اخره . اني اهوى امرأة حسناء كب
اليها زوجها وهو في امواز يستقدمها اليه فصحبها الى هنا ، ونزلنا في
فندق ، واستيقظنا عند الصباح على وقع الرصاص ، فبادرت انت الى القبر

مختبئا فيه ، وليث انا عند النافذة ، فشهدت قتالا بين جماعة من الفرسان ،
ورجل واحد ، فاسرعت اليه لاسعفه .

فقال برنابا ، وأخطأت يا جاليو اذ ان الاقوى يستحق الاحترام .

قال جاليو ، ان الرجل قتل امامي واراد قاتله الفتك بي فضربته بسيفي
واحتجبت عنه . قال الاستاذ ، واحسنت باحتجابك فقط ، قال جاليو ، ولما
وصلت الى اميرك امر امير كوندو بدخولي البلد وطلب مني ان اذهب الى
القصر ، فالقاه فيه . فوعده بما شاء ، وتوسلت اليه ان يستخدم سيفي .
قال ، ومتى تمضي الى القصر ، اجاب غدا . وان طالبا صغيرا مثلي لا يقوى
على مقاومة مثل ذلك الشريف الذي جرحته اليوم . اما اذا كنت من رجال
امير كوندو فلا يصعب عليّ الدفاع عن نفسي . قال برنابا ، هذا كلام يقارنه
الصواب يا بني ، ولكن بقي امر لم تفكر فيه ، هو ان والدتك لا توافق
ابدا على احترامك حصل السلاح ...

قال ، ولكنك ستكتب اليها يا استاذي .

قال ، اكتب اليها انك تروم استبدال طيسان الراهب بتقلد السلاح !
اجاب ، نعم يا استاذي الحبيب . نعم ، تكتب اليها ذلك حبا بي ،
وتؤكد لها انني احسنت عملا .

قال ، كيف ذلك وانا لست على رأيك ؟ ...

اجاب ، دعني ايها العزيز املني عليك الرسالة التي ستكتبها الى
والدتي . واما انت فما عليك الا ان تذيّلها بتوقيعك .

قال ، وانا فماذا اصنع عندما تصير واحدا من رجال البلاط ؟

اجاب ، ازورك مرة في كل اسبوع وكلما زرتك تعد طعاما فاخرا
وشرابا طيبا في اقداح من افخر البلور .

الفصل التاسع

(جيز وكوندة)

وفي اليوم التالي كان البارون دي برداليان ، من رجال الذوق دي جيز ، وهو الذي ضربه جاليو بسيفه ، طريحا على مقعد امام نافذته في القصر يلعن سوء حظه ، فابصر شابا قد دخل القصر وهو متهلل الوجه . وفيما كان يأل نفسه اين لقي ذلك الشاب رآه قد مال اليه وحياء تحية حنة وقال له ، غفوا يا سيدي ، هل لك في ان تدلني على ممكن امير كوندة ؟ فاجابه ، اصعد في السلم الكبير الذي تراه هناك ، فان منازل الامير في الطبقة الاولى

قال ، اني خادمك يا سيدي واشكرك كثيرا .

... ليس في الامر ما يوجب الشكر ، ولكن ، هل لك في ان تشرفني بمعرفة اسمك الكريم ؟ . . . اجاب ، اسمي جاليو دي نرباك يا سيدي .

قال ، وانا اسمي البارون دي برداليان .

قال ، ارجو ان تعدني في جملة اصدقائك ايها البارون .

وبعد هنيهة صاح البارون ، يالله هذا هو الطالب الذي ضربني بالامس وألجاني اليوم الى ملازمة هذا الكرسي . الا انه كان بالامس لايسا ثوب طالب من مدرسة السوربون ، اما اليوم فهو يلبس لباس ظرفاء البلاط ويذهب ليلقي امير كوندة . فالمثلة غامضة .

وكان جاليو قد وصل الى منازل الامير وهو لا يدري ماذا يفعل .
وكان الامير يروح ويحيى في غرفه وقد علم ان لارنودي مات وان
التآمرين تفرقوا ، فكان ينتظر بذهاب الصبر ان يرى الملك ، ليتحقق انهم
لا يتصونه بالاشترائك مع التآمرين . فلما وقع بصره على جاليو قال له ،
ادخل ايها الطالب ، اجاب ، اني اتيت عملا بامر مولاي . قال ، هل تعرف
اسم الرجل الشريف الذي سقط قتيل امامك امس ؟ اجاب ، لقد بلغني
اليوم انه يدعى المسو دي لارنودي . قال ، ولماذا دافعت عنه ؟ اجاب ،
لانه كان واحدا يقاتل عشرين .

فنظر الامير الى جاليو مدهوشا فقال له ، اذن انت فتى شجاع كريم .
اجاب ، اني من الاشراف يا مولاي ، وكل الذين دعوا باسمي شرفوه
باعمالهم . قال ، ان البارون دي برداليان حائز عليك . اجاب ، لست
اعرفه . قال ، هو الذي جرحته امس .

فضحك جاليو . فقال الامير ، اراك راغبا في دخول البلاط وقد
استبدلت ثوب الطالب بثوب اخر . اجاب ، لولاك يا مولاي لربما تم قتلي
على يد جنود الدوق دي جيز ، فدعني اصير من رجالك !

اجاب ، لقد سرتني ذلك منك يادي نرساك ، ولكنك تدري انني لست
ذا سلطة كبيرة ، وانك ربما اضطرت الى القتال لاجلي ؟

ـ انما اردت الانضمام اليك يا مولاي لرغبتني في القتال .

فقال الامير ، اني ذاهب للتليم على الملك فاذا صحبتني ربما التقيت
بالبارون دي برداليان ، فلا ارى لك ان تفارق مسكني . وسارجع لالتقى
اليك بعض الايضاحات .

ومضى الامير الى الرواق الاكبر وقد اجتمع فيه البلاط . فلاحظ
لاعته اعراض رجال الحاشية عنه كأنهم خافوا الاقتضاح اذا اقبلوا عليه ،

واذ ذاك نادى الحاجب بقدم الملك .

فتقدم فرنسوا الثاني تبعة الملكة الوالدة وعماء الدوق دي جيز والكردينال دي لورين ، وهما على بعد قليل عنه ، فقاتل الملك ، لقد رأيتهم العصاة ايها السادة يرفعون علم الثورة ويشبون الى ابواز . وانما تفرقوا وانهمزوا بحسن فراسة عننا العزيز ، الدوق دي جيز ، وبالتدابير التي اتخذها . وقد اسرنا منهم عددا كبيرا ، وسوف يستنطقون حتى نعترف منهم اسم زعيم الثورة . لانهم اذا ثبت ان قائدهم كان يدعى الميود دي لارنودي ، وهو الرجل الذي كان ابن عننا كوندرة نصيره في كل زمان ومكان ، فما لا ريب فيه ايضا ان ذلك الرجل لم يتجراً على مباشرة مشروعه لو لم يجد عضدا اعظم منه .

وهنا رشق الملك امير كوندرة بنظرة بغضاء . وكان الامير يسمع وكأن الحديث لا يعنيه . وتحولت اليه الانظار ، واتسع نطاق الفراغ بينه وبين بطانة الملك ، فقال الملك ، ان خادمتنا الامين البارون دي برداليان قد تمكن من قتل الثائر لارنودي والحاقه باخيه جبار . ولما رأينا جرأة بعض رعايانا قد تعاطمت ، لم نجد بدا من توسيع سلطة عننا دي جيز وهو الذي دافع عنا بباته المشهورة . وقد كتبنا له براءة في هذا اليوم ، وخولناه بها النيابة العامة على مملكتنا فرنسا ، وامرنا رعايانا الائمة المخلصين بان يساعدوه على اعدائنا واعداء ديننا .

واقبل الملك يتحدث مع عمه دي جيز عاطفا عليه ثم دخل حجرته بعدما اعلن انه ذاهب للتزهد في البرية بعد ظهر ذلك اليوم .

فلما ارتفعت الشمس في قبة الفلك خرج الملك ، وتبعه بلاطه فاجتاز الموكب ساحة البلد وارتفعت اصوات المرتاعين لانهم ابصروا في تلك الساحة آلات الاعدام ، والحراس يقردون اليها الاسرى ، ويقتلونهم دون محاكمة .

فقال الملك ، ان الجلاد قد عانى اليوم تعباً فصر بإعطائه خمسين ديناراً
مكافأة له .

وقيل للجلاد ان قتل الناس من غير محاكمة خارج عن القانون . فاجاب ،
انهم لصوص ، ونحن نقتلهم بقطع رؤوسهم كما تفعل بالاشراف فلا يحق
لهم ان يشكوا .

وقال الدوق دي جيز للملك فرنسوا الثاني : كذلك يهلك اعداء مذهبنا
واعداء الملك !

وتجراً أمير كوندé وحده على الكلام فصاح ، ان هذه المذبحة فظيعة
جدا !!

وكان بلاط الشوارع مصبوغاً بالدم ، والجثث مطروحة في كل مكان .
وقد انتهزوا من ظلام الليل فرصة فذبحوا عدداً وفيراً من الاسرى . ولما
خرج الموكب من المدينة وامكن ان يروا قسماً من اسوارها دنت كاترين
من ابنتها وقالت له ، انظر ايها الملك !

وارته الاسوار وقد اتخذ الجلادون شرفاتها لجبال الشق ، فابصر
جثثاً قد جردت من الملابس تأرجح في الفضاء .

وحجبت الملكة الوالدة وجهها براحتها وهي تكرر قولها ، انظر ايها
الملك !!

فقال لها ، الا ينبغي ان نعاقب النافرين يا اماء ؟
فاجابته ، ولكنهم على كل حال رعاياك ، ولو فـتحتاج الى سواعدهم
في يوم نضال .

قال ، ان اشرار الرعايا لا يصلحون للجندية .
ولقد توسلت الملكتان الى الملك كثيراً طالبتين اليه ان يأمر بالكف عن
ذبح الناس ، فلم تفلح الا في اليوم التالي . فلم ينج من القتل الا عدد
قليل من هؤلاء التعساء .

الفصل العاشر

(موعد غرام يتحول الى بعثة سياية)

ولما رجع الملك من نزته قصد الدوق دي جيز البارون دي برداليان ليشكره على قتله ارنودي قالقاه كثير الامتنان من انعطاف الملك فرنسوا الثاني ومدحه اياه . ثم قال له الدوق ، اخبرني ماذا فعلت بالطالب الذي ضربك بسيفه ؟ قال ، ان اللعين قد فر مني ، ولكنني سأدركه في القريب العاجل لانه موجود هنا في القصر .

قال ، وكيف ذلك ؟

اجاب ، انه عند الامير !

فبعث الدوق دي جيز وصاح ، اذن فقد كان ذلك الفتى من رسل الامير كوندو ! الا قل لي يا برداليان ، اقدر انت على المضي ؟

اجاب ، نعم اذا كان القصد من خدمتك وخدمة الملك !

قال ، اذن تعال معي وعجل .

فسار به الدوق الى حجرة فرنسوا الثاني وكرر على سمعه شكوكه فتملأ الملك ، واجاب ، سوف تتكلم عن ذلك غدا يا عماء ، اما في هذه الليلة فاتي اروم محادثة الملكة . ولك ان تقيم حراسا على ابواب امير كوندو ريثما نرى .

وقیما كان الدوق وبردالیان خارجین من حجرة الملك ابصرا شابا مر بهما وهو يحاول ان ينزل قبعته على وجهه فقال بردالیان بصوت متخفص ، هذا هو يا مولاي .

وكان الشاب جالو ، وهو مبادر الى موعد من مارسلین ، فاختماً الدوق والبارون في موضع مظلم ثم تبعاه فنزل جالو الى سلم الحراس والتقى كلمة المرور وخرج من القصر .

فقال الدوق لبردالیان ، الا تخاف من جرحك ؟
فاجابه ، اظنه يندمل تماما اذا تمكنت من امساك هذا الفتى الابله .
قال ، لا ينبغي لنا قتله ، ولكن يجب ان نعرف المكان الذي يقصده .
وسار جالو الى الفندق والرجلان يتبعانه فلقى استاذہ برنابا فقال له ، اني بحاجة الى غرفتك يا استاذي .

— الا تزال مشغولا بالحصان يا ايها التليذ الصالح ؟ ما اظنك الا مقتولا ذات يوم بكيدهن .

— بل ذات ليلة .

— بل ذات ليلة . ولكن ماذا افعل انا اذا تركت لك غرفتي ؟ ..

— تشرب زجاجة ، وتنام .

— أأنام على المائدة ؟

— بل حيث تشاء . ولكن عجل هذه حبيتي اقبلت !

وعاد يستقبل مارسلین فاصحدها السلم قبل ان يتمكن الدوق والبارون من التفرس في وجهها . بل لبث الرجلان يرصدانه في زاوية القاعة حتى نزل ومارسلین . وكان برنابا قد تنبه اليهما وهو متظاهر بالنوم ، فانذر جالو وقال له ان هذين الرجلين جاسوسان فحذار منهما .

فارتعد جالو خيفة ان يكون احد الرجلين افيل زوج مارسلین . فلما

لم يخاطباه اطمأن قلبه وقال في نفسه انهما يرصدان غيري . الا انه عقد النية على ان يطلهما في الطريق من الفندق الى القصر . وادركت مارسلين مراده فلم تتلفظ بكلمة . وسارا معا وكان الرجلان يتبعانهما . وتبين لجاليو انهما لا يتحولان عن اللحاق به فلم يجد بدا من ان يلجأ الى اير الوسائل ، وهي ان يقصد الى القصر ويفترق عن مارسلين قبل الوصول الى بابه فتدخل وحدها ثم يدخل وحده كأنما لا احد يتبعه .

وقال الدوق ، افئنه قد وقع بين ايدينا في هذه المرة .
واوسع الخطى ليدخل القصر وقت دخول جاليو ، الا ان هذا سمع وقع خطى الرجلين وراءه فما كاد يبلغ فناء القصر حتى اختبأ وراء عمود ، وكانت مارسلين قد وصلت الى مخدعها من غير عائق . واخذ الدوق وبرداليان يبحثان عن جاليو ويسألان الحراس ، فلم يعرفا عنه شيئا وطافا في فناء القصر مرارا ثم اتجها الى السلم واذا ذاك ترك جاليو مخبأه واقتطع قطعة من رداءه ، فلف بها حذاءيه لكي لا يسمع لخطاه صوت . وتبع الدوق والبارون برداليان حتى رآهما وقفا بباب امير كوندرة . وابصر احدهما يلصق عينه بثقب الباب وسمعه يغتم ويقول ، لا صوت ولا ضياء فقد احتال الخبيث علينا ونجا منا .

واسترا سائر في الرواق حتى وصلا الى باب عنده حارسان ، فقال الدوق ، هل رقد الكردينال ؟ فاجابه احد الحارسين بقوله كلا يا مولاي . فدخلوا غرفة الكردينال . وصبر جاليو وقد سمع قول الحارس «يا مولاي» مخاطبا الدوق ، وابصر الرجل الاخر يرفع يده الى كتفه متنهذا متوجعا فعلم انهما الدوق وبرداليان . وبعد هنيهة رأى الحارسين قد غلبهما النعاس ، فلم يتردد بل مشى ولا صوت يسمع لتقديمه لالتفاف حذاءيه بالنسيج حتى وصل الى الباب فرآه غير موصد بفتاح . وحمله الفضول على فتحه فسمع صوتا واسم امير كوندرة يتردد في اثناء الحديث ، الا انه لم يفهم ما

يقال • فدخل واقتل الباب وجعل خنجره بيده واتجه الى ستر من القטיפه
يفصل بين الايوان الذي وصل اليه ، والحجرة التي صدر منها الصوت •
وهنا وقف مرهقا للسمع اذنيه • وكان الدوق وبرداليان يحدثان الكردينال
بما رأيا ، فقال الكردينال ، المراجع ان ذلك الشاب جاسوس للامير ، وان
المرأة التي اجتمع بها في الفندق احدى وصائف كاترين وانها استخدمتها
للمراسلة بينها وبين امير كوندو • والان شكرا لك يا برداليان فاذهب لان
لي حديثا طويلا مع الدوق • وعند ذلك صاح الدوق بعدة يقول ، ما بالك
يا اخي • وهل من حاجة بنا الى برهان اخر يشهد باحترام الامير • الرأي
عندي ان نضرب اعداءنا قبل ان يشتد مساعدهم ويصيروا قادرين علينا
فيضربونا •

— ان ناظر اختام الدولة والقائد الاكبر لضابط الملكة لا بد ان يكونا
من اعدائنا ايضا •

— لنضرب اولاً ابن عنا كوندو ، اما الاخران فسوف نهتم بهما فيما
بعد • ولئن كنت على رأيي دعني اشكوه غدا في مجلس الملك فيدعوه
اليه ، واذ ذاك يسهل علينا القبض عليه • ومعلوم ان جميع رجاله يتعدون
الان عن البلاط •

— هذا هو الرأي الصواب • فانا انتظر كاترين واسبر غوريتها • ولئن
رأيت فيها اقل رغبة في تعذيب الامير هاجمناه كما تقول ...

— الى القدي يا اخي • ومضى الدوق •

وقد تأثر جالو من سماعه هذا الكلام ، وكان من اسرار الدولة
وقتئذ ، وفيما هو يهم بالانصراف افتتح باب خفي في الجدار فبادر الى
الاختباء مرة ثانية وراء ستر القטיפه • ثم ابصر امرأة ، واذ ذاك قام في
سريره نضال انتهى بقوله لنفسه ، اذا انطوى حديث الكردينال مع هذه

المرأة على غرام ومطارحة ، غادرتها وشأنها ، وإذا كان فحواه سياسة
لبث اسع خدمة لمصلحة الامير . وتلقى الكردينال تلك المرأة بقوله ، لقد
كنت اخشى ان لا تأتي الليلة .

فاجابه ، ان في معادتي لرجل فاضل مثلك سروري الاوفر ، ولا سيما
اذا شاورتك في ما يعرض لي ويؤثر في من الافكار .

فرفع الكردينال صوته وقال ، كنت خائفا ان لا تأتي ايها السيدة لان
اسقف شارتر ^(١) في المدينة على ما قيل لي .

— واي شأن لي مع اسقف شارتر ؟

— لقد احبته ايها السيدة .

— هل تظن ذلك ايها الكردينال شارل ؟ ولعلك على صواب . انما تذكر

امرا هو انه لا ينبغي للعاقل ان يناقش الحساب امرأة على ماضي حياتها .

— لو علمت بانك مقيمة على حبه حتى اليوم لسعيت الى قتله .

— بغير محاكمة ؟

— بغير محاكمة .

— انعم بها من وسيلة حسنة للتخلص من الناس . ولكن لما ذلك ؟

— لانني احوالك ايها السيدة ، وانا غيور .

— هذه اشياء هائلة تبوح لي بها ، فهلا لاحظت ولدي وعبوسه اليوم ؟

— ان حبه للدين يهيج كثيرا .

— ان اخالك استخدم ذلك الحب الديني للفتك بجميع اصدقاء ابن عمي

امير كوندة . وهو عمل غير حميد .

— بل هي حرب صالحة ، فهل تحبين امير كوندة ؟

(١) كان شائعا من كاترين مديس انها كانت تهوى ذلك الاسقف .

— كلا... وهل اهتم بالسياسة ؟ اني لا افهم شيئا من انظمة الحكم ،
ولكنني رأيت الدم المراق غزيرا •

— انه دم اعداء الكاثوليكين ...

— بل دم الفرنسيين يا كردينال ، ولو كنت في مكانك لاشرت على الملك
بالرأفة •

— اترانا تتكلم الآن في السياسة •

— لا ، ولكنني امرأة فانا اتكلم بما يشعر به قواد المرأة •

— اترومين ان اعضد الامير ؟

— ولماذا تسألني هذا السؤال بشأنه دون سواه ؟ فهل يخشى عليه من
احد ؟ ولقد تلفظت كاترين دي مديس بهذه الكلمات دون ادنى اكتراث ،
فقال الكردينال في نفسه ، انها لا تعرف شيئا ولا ترتاب في شيء •

وقالت كاترين ايضا ، دعنا من هذه الشؤون السياسية ولنتكلم كلام
الفلاسفة الحقيقيين عن خبث الرجال ونحدر النساء ...

وهنا لم يشأ جاليو ان يسمع اكثر مما سمع فخرج على مهل فمر بين
الحارسين الراقدين ، وقصد الى منزل امير كوندرة فاطلعه على ما جرى
امامه فقال له ، هل انت على يقين ؟ فاجابه ، على اتم يقين يا مولاي • قال ،
اذن غدا اكون سجيناً ؟

اجاب ، نعم الا اذا سافرت يا مولاي •

قال ، وماذا قالت الملكة الوالدة عندما كلمها الكردينال عن مهاجمتي ؟

اجاب ، لا شيء يا مولاي بل رأيتها تبسم كأنها سمعت حديثاً عن
حيلة نفية •

فقال الامير في نفسه : أتركني هي ايضا ، وهل نسيت ان مرافقنا
واحدة • الا تبأ لهذا البلاط اللعين ، بلاط المكر والماكرين !

واذ ذاك سمع جاليو صوتاً خفيفاً فقال الى الموضع الذي صدر منه الصوت فابصر ورقة صغيرة فالتقطها وقدمها الى الامير قائلاً ، هذه الورقة لمولاي ولا ريب . فتناول امير كوندّة الورقة وطالع فيها هذه الكلمات :
« حذار لنفسك واهرب اذا قدرت ! »
« كاترين »

فتهلل وجه الامير وقال ، لقد اخطأت في ارتيائي بكاترين ، فهي مخطئة للاميرة المالكة . اذن الى الغد يا ابن عمي دي جيز ، وانت يا جاليو اذهب فتم هيناً فلت تدري اذا كنت تنام غدا .

قال ، انني ارحب بالقتال منذ الان .
واضطجع جاليو في غرفة مجاورة لغرفة الامير .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الحادي عشر

(مجلس الملك)

ولما استيقظ جالير كانت الشمس قد دخل نورها مخدعه ، ففتح عينيه
وسمع قائلا يقول له ، يلوح لي يا عزيزي جالير انك تحب الفرش الوثيرة
التي في بلاط الملك ؟

فادار وجهه فابصر البارون دي برداليان عند مدخل الغرفة ينظر اليه
نظرة الساخر المتهمك ، فلم يقطب وجهه بل اجابه • اني على الدوام احسب
الفرش الوثيرة •

— رأيي انك لا تزدرى فرش الفنادق •

— نعم اذا كنت على سفر • ولكن يلوح لي انني تشرفت قبل الان
بلقائك •

— صدقت ، فانك رأيتني ثلاث مرات •

— ألم استعلم منك عن طريقي حين وصولي الى القصر ؟

نعم ، وهي مرة واحدة فقط •

— لست اذكر غيرها ...

— عجباً لمن كان في منك ويفقد ذاكرته !

- لعل ذلك من الترية والعادة • ولكن تفضل بالدخول الى هنا •
- كلا فاني لا استطيع التقدم •
- واي مانع يمنعك ؟
- اني مقيم هنا على حراستك ولا يحق لي الدخول على منزل الامير •
- مقيم على حراستي انا ؟ فهل صرت من القواد العظام حتى صرت انت حارسا عندي ؟
- ربما كان ذلك •
- تكرم بالايضاح •••
- ان الملك امرني بالوقوف هنا لاسنحك من الخروج وهكذا لم يبق لك من رجاء في مواعدة وصائف الملكة ولا في التنزه في المدينة •
- انت يا سيدي تنم على وصائف الملكة •••
- وكيف ذلك ، فهل نسيت ايضا موعدك ليلة امس ؟
- مواعدي ليلة امس ؟
- لا تمزح فقد خرجت امس من القصر •
- انا ؟
- اني رأيتك بعيني •
- أهذه احدى المرات الثلاث التي رأيتني فيها ؟
- نعم ايها الطالب •
- انت واهم يا سيدي فلت طالبا وانما انا موظف عند الامير، ولكن هل لك في ان تخبرني عن الموضع الاخر الذي اجتمعنا فيه ايضا ••• اجاب،
- حبا وكرامة ••• كان التقاؤنا على الطريق الذي بين باريس وامبواز قرب فندق في ساعة قتال ورصاص البنادق يتطاير في الفضاء •
- اتلك هي المرة الثالثة ؟

— نعم وفيها تلقيت منك ضربة سيف على كفي . وأشار برداليان الى كتفه .

— يسوءني كثيرا ما اصابك ولكنني لا اتذكر انني لقيت في ذلك الموضع او غيره .

ونظر الى برداليان نظرة ساذج حتى جعل هذا يسأل نفسه عما اذا كان واحدا . اما جاليو فادرك انه لا يفيد في ذلك الحال الا الاحتيال وقد اقيم الحراس على حجرة الامير بامر الملك ، وليس لدى الامير احد ينصره او يدافع عنه .

فقال ، اذا اعتبرنا ما نحن فيه الان فانتا مجبان ، انا ومولاي الامير ، وانت السجان ؟ أفتأذن لي بانباء سيدي الامير .

— لقد انبيء الامير .

— من أنباء ؟

— انا يا سيدي ، وقد مضى زمن وانا اقرع بابك هذا حتى اضطر جناب الامير الى ان يفتحه بنفسه وانت نائم ملء جفونك .

— ذلك من فضل الشباب .

— ذلك من نتائج التعب . وليس بشكر على من يجول في الاسواق ليلا ان يتعب ...

— صدقت ، الا انني نسيت ذهابي بالامس الى مقابلة غرامية . ولكن بحقك يا ميو برداليان ، الا ما انبأتني عن تلك الحبيبة ، اترأها حسناء ؟
— اظنك تسخر بي يا رجل ، فحذار !!

فكاد يرميه جاليو بكلمة لاذعة الا انه امسك عنها ونهض غير مكترث واخذ يتمشى في المخدع حتى وصل الى النافذة ففتحها ليستنشق الهواء . لكنه تعجب لما رأى فرقة من حملة البنادق تحت النافذة . وفي ذلك الوقت رفع امير كوندلة السر عن بابه ونادى جاليو واجتذبه الى وسط غرفته

وقال ، تكلم واخفض صوتك ، فقد سمعت ما قلته لهذا البارون اللعين ،
وانني لراض عنك ...

— لقد فعلت ما قدرت عليه .

— هل تظن أنك افلحت في تحويله عن اعتقاده ؟

— لست على يقين ، وانما اظنه قد ترزعزع اعتقاده شيا .

— تذكر ما اوصيك به الان ، فاذا سلّيت قل أنك انما دخلت البلاط
بناء على طلب رفع الي من والدتك ، وانني عرفت والدك فيما مضى ،
واتخذتك وصيفا لي حافظا ولاءه . واما مشاجرتك في الفندق ، وقد افلحت
فيها ، فانكرها بتاتا .

— سمعا وطاعة يا مولاي .

— واعلم ان لا قيمة هنا لغير البالة والدهاء ، فيجب على المرء ان
يحسن ضرب السيف وتدبير الحيلة . ولا تعرض عن وصائف الملكة فهن
ثرائرات لا يكتسب سرا عن يحسن ملاطفتهم ومداعبتهم . وقد بدأت امس
بما يجب ويدهش ، فاستمر على ذلك .

— شكرا لك يا مولاي .

— واختر من اسلحتي السيف الذي تجده افضل السيوف ، ومن
خيلي الجواد الذي يسمع صوتك . واحش غداراتك على الدوام ، قلنا
هنا في موضع دعة وامن ، ولكننا سنقصد النافار ^(١) في القريب العاجل .
فهل تعجبك الاسفار وملاقة الاخطار ...؟

— اني لها يا مولاي .

— اني ذاهب الى مجلس الملك فاتبعني وجرّد سيفك نصف تجريد من
غمده ، والبت مستعدا للدفاع عني عند اول دعوة مني . واتجه كوندّة الى
باب مخدعه دون ان يظهر عليه شيء من الاهتمام بحاله كسجين . فقال له

(١) النافار مملكة قديمة على سفحي القسم الشرقي من جبال البيرينه .

البارون دي برداليان ، غفوا يا مولاي ، فاني على الرغم مني لا استطيع ان ادعك تخرج من هنا ، لان الاوامر التي لدي بهذا الشأن شديدة .

فاجابه الامير ، لئن حاولت مني من الخروج فانت تلجئي الى قتلك فائر هذا الكلام في البارون ، الا انه قال ، ومع ذلك فاني لا آمن غضب الملك اذا تركك تخرج .

— قل غضب الدوق دي جيز لا الملك . الا فاعلم يا هذا ان امراء البيت المالك لا يطيعون غير الملك ، وقد تركك تمثل في هذا الصباح روايتك المضحكة اما الان فارجو منك ان تترك بابي هذا . على انني ذاهب لالقي فرئوا الثاني وقد اذنت لك بان تكون من حراس الشرف فتلحق بي . واجتاز الامير اروقة القصر بعظمة حتى وصل الى قاعة المشورة فقال ، افتحوا ايها الحراس !

فاجابوه ، ان جلالة الملك مجتمع على عميه آل جيز .

قال ، افتحوا ايها الحراس !

فاجابوه ، لقد تلقينا امرا بان لا نفتح لاحد .

فلم يجب كوندو لكنه التفت الى جاليو وقال له ، تقدم ايها الشريف ، ما دام هؤلاء القرويون الغلاظ لا يفعلون ما يجب عليهم فافعل انت .

فتقدم جاليو ففتح الباب ودخل كوندو الايوان الذي اسمه قاعة المشورة وقال للحاجب . انبيء الملك بقدوم الامير دي كوندو ؟

فتردد الحاجب الا ان نظرة الامير كانت فصيحة فلم يتمالك ان زحزح السر ونادى بصوت يضطرب فقال ، مولاي امير دي كوندو !

فامتنع المتحدثون عن الكلام ، ونظر الملك والدوق دي جيز واخوه الكردينال والملكة الوالدة الى القادم ، متعجبين لانهم حسبوه سجيناً يحرمه البارون دي برداليان .

فصاح الامير بكبر : يلوح لي ان حضوري يضايقكم !

فاجابه الملك بلهجة الغضب قال ، لقد كنا نظن يا ابن العم انك في مسكنك !

وكان عما الملك يحدثانه منذ الصباح بما عرفاه في ذلك الليل ويحاولان ان يتصدرا منه امرا نهائيا بالقبض على امير كوندت * وكادا يحصلان عليه عند دخول الملكة الوالدة الا انها جعلت تلقي الاسئلة عليهما ، وتورى وتلمح حتى منعت ابنا من التوقيع على ذلك الامر * ولما حضر الامير تحير اعداؤه فقال متسحلا * مما لا شك فيه ان ابن عمي دي جيز كان يفضل ان لا اجي * الى هنا ، الا انني علمت بان جلالتك عقدت مجلسا * ولما كنت ممن امراء البيت المالكي ، وكل مجلس لا يمكن انعقاده بدوني ، اتيت لابط رايي الحقير في هذا المجلس الكبير ، ولاؤكد اخلاصي لجلالة الملك *

فبنت كاترين وادرك كوندت انها نصيرته في ما يروم فقال ، على ان لدي شؤوننا خطيرة اردت ان احدثكم عنها ، وارجو من جلالة الملك ان يدعو الى هذا المجلس المسيو دي مونورانسي ⁽¹⁾ في هذا الصباح ، وسيدعى الى هنا *

فبسم الاخوان تبسم اكتاب ، وهمس احدهما في اذن الاخر يقول ، لقد قد تدبرنا *

فاجابه ، ان هذه المرأة اقوى منا يا شارل فلا بد من اهلاكها وفي اثناء ذلك تناولت كاترين يدي ابنا ملاطفة وهو لا يحفل بتلك الملاطفة لانه لم يحب امه قط * وزال ما كان له من العطف عليها منذ ما تزوج ماري ستوارت * فكان يرى في والدته حصة زوجته وعدوة عمي حبيته *

واذ ذاك فتح الباب ودخل القاعة مونورانسي ، فانحنى امام الملك

(1) مونورانسي اسم امرة فرنساوية شهيرة . والميو دي مونورانسي هذا من اشهر رجالها لانه كان مارشال فرنسا اي اكبر قوادها *

وكاترين وسلم على الدوق دي جيز واخيه باحتقار ، ودنا من امير دي كوندو
ثم قال ، هل دعوتني ايها الملك ؟

— لقد دعوتك لاقف على رأيك بشأن المؤامرة القضيعة التي كدنا نذهب
ضحاياها .

لقد اجتزت البلاد ايها الملك ، واجهل ما هي المؤامرة التي تكلم عنها
جلالتك وانما عرفت ان التأديب كان هائلا وان وقت الرفق والرفقة قد ازف .
فعض الدوق دي جيز شاربه واخذ ينظر الى ضفاف اللوار ، فقال
مونموراني ، هل عرفتم زعماء المؤامرة ؟

اجاب الملك ، نعم .

قال ، وهل من الممكن معرفة اسمائهم ؟

فلم يجب الملك ، غير ان امير دي كوندو استل سيفه من غمده وجعله
على منضدة ، والقي قفازاه الى جانب السيف .

فصاح الملك ، ما معنى هذا ؟

قال امير كوندو ، لقد مضت ثلاثة ايام وحولي جواسيس مجهولون
يرقبون حركاتي وسكناتي ، والشكوك الدنيئة حائمة حولي ، واعدائي
الخائنون لا يهابون مهاجمة امير من بيت الملك ولا يرهبون لويس دي
بوربون (يعني نفسه) وهم جبنا ، ينعمهم جنهم من الهجوم نهارا وعلاية ،
فيعدون الى السعي والنية سرا لاهلاكهم . وقد رأيت في صباح هذا
اليوم حراسا وقوقا عند بابي وتحت نوافذي ، كأتني من المجرمين . ولقد
سألت يا ميودي مونموراني عن زعماء المؤامرة واسمائهم ، فانا اجيئك
انه لا يوجد شاهد واحد يدل على اولئك الزعماء . ولقد اجتهدوا كل
الاجتهاد في حمل الاسرى الماكين على الاعتراف كذبا بما لا يعرفون ،

وقد تلفظ بعضهم باسماء ضخمة ، وانما كان ذلك تخلصاً من عذاب الاستطاق الهائل ، وعلى هذه التهم توكأ اعداؤنا ليدخلوا على الملك الشك في اخلاصنا . اما هؤلاء الزعماء الذين لم يشأ جلالة الملك ذكر اسمائهم فاني اذكرها لك يا ميودي مونسوراني ، او انا اذكر لك من يتهمونه خفية ، فأولهم انت !!

قال مونسوراني ، أنا !... ومن ذا يتجرأ ؟...
اجاب امير كوند ، ما من احد هنا الا ويتجرأون عليه . أجل ، انهم يتهمونك انت ثم يتهمون زعيم المستنفي ، ويتهمون معكما الامير لويس دي بوربون .

قال مونسوراني ، انت ايها الامير ؟

اجاب ، نعم انا . ولم يتجرأ احد حتى الآن على التكلم امامي عن هذه الرشاية الدنيئة . ولكنني مطلع على ما يجري في البلاط . ومن يدري ما يكون لو لم اقدم الى هنا للدفاع عن نفسي ؟... كان يمكن ان يسفك الليلة دم امير ينتمي الى سن لويس ! على انني ايها السادة اجهل ، واود ان اجهل ، مصدر هذه التهم . ولكن اذا تجرأ احد على اعادتها فانا اسأل جلالة الملك ان يتكرم عليّ فيأذن لي بقتله في مبارزة . هذا سفي وهذا ققازي اطرحهما امام السامعين !...

وكان لهذه الكلمات وقع خطير على السامعين ، فتناولت الملكة الوالدة مسبحتها وبادرت الى عد خزائنها ، واصفر وجه الملك اصفراراً شديداً وظهرت عليه بقع صفراء هي آثار مرض اتصل اليه من مولده . واما مونسوراني فلم يكذب يتسكن من اخفاء سروره ، لانه كان العدو لآل دي جيز ، واما الدوق واخوه الكردينال فلم يعرفا ما يفعلان . فقد استرد امير كوند في ساعة ، ما كانا يظنان انه اضاعه . ورأى الدوق دي جيز انه

يستحيل الاعتراض ، فعمول على اتخاذ خطة المسألة ريثما يتسكن من سوق
الامور الى الجهة التي يرونها ، فنهض وقال ، ان هذه التهم ولا شك دنية
فظيعة ... واحبها تحط من قدري كما تحط من قدر ابن عسي الامير ،
ولئن وجب قتال لاجلها ، فلا يكون من شهداء لويس دي بوربون احد قبلي
لاني اعد هذا الدفاع شرفا لسيفي .

ودنا الدوق دي جيز من امير كوندّة ، فلم يح هذا الا الاعتراف بدهاء
ابن عمه فقال له ، اقر لك بان كلامك لا يدهشني ، وهو ما ينتظر سماعه
من بطل مثلك ، فانا اشكر لك هذه المؤازرة .

قال ، ألم يكن ذلك من واجباتي ؟

فاستطار الفرح كاترين وقالت ، بل ذلك من واجبات كل خادم للملك .
وهكذا حصل امير كوندّة على ما اراد فخرج من قاعة المجلس رافع
الرأس تها ، فوجد عند الباب خادمه الامين جاليو يحدث برداليان ويقول
له ، نعم اني لم اتقصد ميفا من زمن الا قريب ، ولم يعلمني استاذي الا
المصارعة ، فان بقيت مصرا على منازلتني فانا سنضطر الى ترك سلاحنا جانبا
والمصارعة حتى يفوز اقوانا جسا .

اجاب ، اذن انا انتظر حتى تتعلم استعمال السلاح لان المصارعة
ليست من شائي .

— هذا هو الرأي الصواب ايها البارون . افتأذن لي بمفارقتك ... ؟

— بل انا اصحبك ، لان حياتك عزيزة لدي .

وهنا قال امير كوندّة ، لا حاجة لي بهذه الخدمة منك يا ميو دي
برداليان ، واشكرك على مصاحبتك اياي .
فاشار الدوق دي جيز الى برداليان يأمره باللاحاق به ، وابتعد الامير

مع جاليو فقال برداليان للدوق ، لا يهنا لي عيش حتى اقطع اذني ذلك
الفتى المغفل .

— ألم تقح معه باب الخصام ؟

— ذلك مستحيل فهو لا يسمع الا ما يعجبه سماعه ، واذا سمع كلمة
مؤلمة اخذ يدندن .

— لعله جبان ؟

— كلا ، ولكن لا بد له من سبب يحصله على اجتناب المشاجرة في هذا
الوقت ، ولعل لديه امرا من مولاه الامير !

— عليك بمراقبة المولى والشاب فقد اخطأنا مرماهما اليوم ولكننا
ننصيهما في وقت غير بعيد .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل الثاني عشر

(كيف فاز امير كوندو مرة ثانية على الدوق دي جيز)

ولما رجع امير كوندو الى منزله يادر الدوق دي جيز الى ملاقة الملك مرة ثانية فرآه يرتعد من تذكر الحادث الذي وقع امامه . وكان مونوراني قد مضى والكردينال متمعض ينظر الى السهي صامتا يال عما حصل اخاه على الرجوع عن عدوه . اما كاترين فكانت تتظاهر بانها تصلي .

فلما جلس الدوق قرب اخيه قال له ، هل لك في ايضاح معنى خروجك من هنا الساعة ؟

فاجابه ، لقد سرنا في طريق غير قويسة ، ولذلك لم يكن بد من الرجوع قال كيف ذلك ونحن واثقون بانه كان زعيم المؤامرة ؟

وقالت كاترين ، انه من امراء البيت المالك في فرنسا !

قال الكردينال ، ليس في نظر العدالة امير او كبير !

فقال الدوق ، اصببت يا اخي ولكن ليس ذا وقت التعرض له . فهل ابصرت النار التي اتقدت في عينيه والطائنة التي لاحت عليه وهو يتكلم ؟ وقد يكون موته سببا في فتنة عامة ، وفي تصديق المنشورات والكتب

المهيجة التي تطبع وتنتشر في كل يوم ولا تتضمن الا الطعن على آل جيز •
فهم يتهموننا باننا نروم ملاءمة الدم الملكي ...
قال ، انت تبالح يا اخي !

اجاب ، انا ابالح ؟ • خذ وانظر ! • •

والقى الدوق على المنضدة كتابا صغيرا على الصفحة الاولى منه هذه
الكلمة : « النمر » • مطبوعة بالاحمر وتحت هذه الكلمة صورة « ارمة »
بيت جيز فقال ، اليك ما يكتبونه ضدنا •

فنظر الكردينال في الكتاب وصاح غاضبا ، من اين هذا ؟

فاجابه الدوق ، من اورليان •

— اتعرف اسم الكتبي الذي تجاسر على طبعه ؟

— كلا غير ان فيالار تلقى اوامري بهذا الشأن وسيقبض على الكتبي
ويشق غدا • ومن سوء الحظ ان الوشايات والسمايات تنتشر بسرعة ،
فقد وزعت ألوف من هذا الكتاب ، فلا بد لنا من ان نبرهن لاعدائنا ان
هذه المطاعن افتراء وكذب • اما امير كوندة فوقف نلقاه عندما تقوى
جيوشنا • وكن مطمئن القلب يا اخي فذلك امر لا تطول مدته •

وكانت كاترين تسمع هذه المحادثة وهي صامئة والملك يصغي دون
مشاركة في الحديث مع ان الاسئلة تتعلق بتأجه ، وذانك الرجلان قابضان
بأيديهما على نصيب الملكة ، ولم ينبهه من ذهوله الا الامل بالقبض على
امير كوندة فقال ، نعم لا بد من مراقبته ومتى قدرنا على القبض عليه
ومحاكمته و ... •

وهنا حاجة الغضب فنهض وتمشى الى النافذة وقال ، الهواء الهواء
والا اختنقت ! • •

فوثبت كاترين الى ولدها وقد ادركت مراده الا انه لم يستشق الهواء حتى تراجع الى الوراء وسقط مغشيا عليه . وفيما كانت والدته تنهضه دنا الدوق والكردينالى من النافذة فتقهقرا في الحال لان الهواء كان يحمل رائحة خبيثة قاسدة صادرة من الجثث التي اسرع اليها التن وكانت ملء شوارع المدينة ورائحتها ملء الفضاء فيها وفي ضواحيها . وقد شق يومئذ من البروتستانتين عدد كبير في كل مكان حتى في جوار القصر وقرب النهر . وبعد هنيهة استفاق الملك فكانت اول كلمة نطق بها قوله ، هيا بنا نسا فر !

فقال الدوق ، الى أين ؟

— الى شونسو او الى بلوا او الى حيث تريدون فان الرائحة هنا لا تطاق .

وقال الدوق ، ولكن متى يكون الفر .

اجاب الملك في هذا اليوم بعينه ، فلت اريد المبيت ههنا . فتدبروا يا عماء ، ان هذه الرائحة تؤذي .

وخرج ووالدته كاترين تنده .

وبعد بضع ساعات كان البلاط يسير الى شونسو وحصلوا الملك على مخفة وقد اصابته حصى شديدة وقال الطبيب قرئ ان الخطر ينذر حياته اذا بقي في امبواز .

وتبع آل جيز الملك وهم حائقون لان سفره حبط تدابيرهم واخبر امير كوندé بما جرى وكان قد خرج راكبا جواده فقال انه لا يرجع الا في المساء ، وذلك لان سفره اعاد اليه حريته ، وعرف الاخوان ان الامير لم يتردد طويلا في ما عزم عليه ، وانه اما ان يكون قد سافر الى باريس او الى

النافار ، وكان في هذه المملكة اخوه انطوان دي بوربون ذا الشأن والسلطة والاميرة دي كوندé . وانه متى اتعد عن البلاط امكنه ان يهيء فتنة جديدة ويجمع جنوداً . فلما وصل الدوق دي جيز والكردينال الى شوننو ارسلوا الى امير كوندé رجلاً اسمه دي جنليس لكي يكون جاسوساً عليه ، فلم يرض كوندé ان يقابله الا في اليوم التالي ، فقال له جنليس ، لم اشأ يا مولاي رجوعاً الى البلاط قبل ان اعلم اذا كان لديك ما تقوله لجلالة الملك .

فاجابه ، لا شيء عندي سوى اني الحق بالملك عند تمكني من ذلك . اذا رام الاطلاع على خبري فقل له انني خادمه المطيع الخاضع ونسييه الودود ، وانني برغم التهم التي رميت بها عنده سوف يرى مني اخلاصاً دائماً ، الا اذا اكرهني على اعتناق غير مذهبي ، فانا لا اسمع قداساً واحتج على الاكراه في الدين .

— هذه ابناء سيئة ليتك تعهد بها الى غيري .

— حبا وكرامة يا ميو جنليس . ولكن لم تبلغ رسالتي فانا ما بلغتها بنفسي ، وآمل ان القي اخي ملك النافار ، ولست القاه الا بعد الاستئذان من ملك فرنسا .

وبعد رحيل جنليس ، نادى امير كوندé جاليو فقال له ، ان الوقت لا يسع للحديث ، وقد فهمت كنه ما ينويه ابن عسي دي جيز . فهو يروم ان يقتادني الى باريس وهو فيها السيد المطلق والامر المطاع ، او الى مجلس النواب وله فيه الكلمة العليا . وقد خسر ابن عسي المعركة الاولى منذ يومين ، فخير لي ان اتسمل لامتاع بفشله وانتصاري . فهل تود يا جاليو ان تقابل بردالياً مرة ثانية ؟

اجاب ، لا يلذ لي شيء مثل ان اتعفه بضربة ثانية من سيفي لعله يتأدب معي .

— اياك والمبارزة في هذا الوقت ، وانما يجب ان تعلن على رؤوس
الاشهاد انك راحل الى باريس لتلتحق بالبلاط ثم تبقي يوما واحدا .

— وبعد اليوم الواحد ؟

— متى انقضى النهار ولم تجدني اتيت تظهر الدهش والتعجب ،
فيما لونتك عني ، فتمازح برداليان حتى يلوح لك ان دائرة المزاح قد
ضاعت ، فتسافر لاحقا بي الى غسقونيا .

ولقد انجز جاليو الامر فوصل الى شنونو ، وكان الملك قد عزم على
الوقوف فيها اياما قبل الاستمرار الى باريس . فظل جاليو ثلاثة ايام
يجابو رجال البلاط عن مولاه امير كوندو . ولما رأى ان المستفيين قد
قل وثوقهم بكلامه عزم على السفر . الا ان مارسلين وعدته بيلة في حديقة
شنونو ، فار الى الموعد ولقي حبيته في خيمة ملتفة وهي ترتعد فرحا
. خوفا الا ان سرورها باللقاء لم تطل مدته لان حلة البنادق احاطوا
بالخيلة من كل جهة وكان فيهم الدوق دي جيزوغيره من رجال الدوق .
فقال الدوق ، هل تحققت يا برداليان دخوله هذه الخيلة الكثيفة ؟ فاجابه ،
نعم .

قال الدوق ، سدوا المنافذ ! وهل عرفت السيدة التي سبقته الى هنا ؟
— كلا فانها كانت مبرقة .

— لا جرم انها صاحبة التي اجتمع بها في الفندق . اذن فنحن نكرهما
على ان يلمانا رسالة كاترين المكتوبة الى امير كوندو ، فاني على يقين من
ان الملكة الوالدة ترسل الامير ، وان جاليو هو الرسول .
ثم رفع الدوق صوته وقال ، اقبضوا على الاثنين !
وسمع جاليو هذه الكلمات فقال في نفسه هيهات . . . يا مارسلين تبهي

جيدا الى ما يجري . متى سمعتي اصرخ « الي ايها البواسل » اهربي الى
ناحية القصر ، لان الطريق تكون وقتئذ خالية لك .

وضاقت دائرة المهاجمين شيئا فشيئا وقال الدوق ، اخرجوا والا فالنار !!
الا ان جاليو كان يحاول ان يعرف عدد خصومه فتحقق ان مشيين
من الماشي الثلاثة المؤدية الى الخيلة قد وقف فيهما بعض الاشراف متقلدي
اليوف وحلة البنادق ، وان الثالث ليس فيه الا اثنان من حملة البنادق .
فقال في نفسه ، اذن ويل لهما . وفي اسرع من رد الطرف وثب عليهما
فطرحهما على الارض بضربتين من قبضته قبل ان يتمكن من العلم بوجوده .
وصاح لاعته ، الي ايها البواسل !!

فتواثب الدوق ورجاله مزدحمين في المشيين ، وفي اثناء ذلك كانت
مارسلين قد انسلت الى طريق القصر . ومن سوء الحظ ان المهاجمين سمعوا
وقع خطى مارسلين فحاولوا اللحاق بها ، غير ان المسافة التي بين ذلك
الموضع والقصر كانت بعيدة فقالوا سوف نقبض عليها قبل ان تصل . وهو
امر عول جاليو على ان يمنع وقوعه . ولما وصل الدوق ورجاله الى المشي
القوا جاليو شاهرا سيفه ، فقال برداليان ، هذا هو !

فقال الدوق ، افعل به ما شئت يا برداليان ولكن لا تقتله .

فاجابه جاليو ، شكرا لك ايها الدوق ، فان انطافك ملا فؤادي
سرورا .

ثم جالد برداليان بسيفه حتى ادناه من وجهه واضطر الدوق الى مد
يده ليمنع صاحبه . واذا بالرجال الثلاثة قد اخذوا يتجالدون بالسيف
وجاليو يتقهقر شيئا فشيئا وكان قد استند الى شجرة وامن ان يضرب من
خلف ، فاكتفى بان جعل يسد سيفه الى صدر الدوق تارة وإلى صدر

برداليان تارة اخرى بسرعة مذهشة حتى لم يجبر احد منها على الدنو .
وما زال يدافع عن نفسه ويمانع حتى خذلته قواه وايقن ان مارسلين نجت ،
ثم خذلته ساقاه فانهض فاصابه ضربة من سيف الدوق جرحته . واقبل
الرجال فامسكوه . وقال له الدوق ، ان هذا التقى شيطان في صورة
انسان .

قال برداليان ، انه قتل اثنين .

قال الدوق ، ولو انه التقى بكل منا على حدة لجرحنا نحن الاثنين .
فضحك برداليان وقال ، انظر الى صدرتك يا مولاي فانها مخضبة
بدمك .

قال الدوق ، كصدرتك انت . فانظر اليها .

فقال برداليان ، نعم ، ولكن هذه الجروح خدوش .
وذلك ان جالو اصابها بجراح خفيفة تدل على حذق وبراعة كبيرة
في لعب السيف . فقال برداليان ، هذا هو الذي ضربني بيفه تلك المرة
قد تحققت من معرفته اليوم .

ولما وصلوا الى القصر بحثوا في جيوب جالو فلم يجدوا معه رسالة .
وتكلم الدوق عن استطاقه فظن جالو ان وقت الاستطاق قريب فظاهر
بالاغماء ، فطرحوه في سجن عند قنطرة جر ، وفي اليوم التالي عصبت
جراحه ، وجيء به الى الدوق دي جيز فرآه جالو غاضبا لان دي جنليس
جاسوسه واقاه بانباء سيئة . وذلك ان امير كوندة وصل الى بلوا فانبأ
حكام المدينة انه لاحق ببلاط الملك : لكنه لم يتعد عن اسوار المدينة الا
قليلا حتى انحرف الى طريق اخر وصحبه رجل اسمه روبر دلاهاي قاعل
في شاكلة جواده المهماز سائرا في طريق بواتيه . وقال جانليس ايضا ان
الامير لقي في بواتيه شريفا لا يزال يجهل اسمه فصحبه الى غاسقونيا .

فكان الدوق تلقاء هذا الخبر السيء ، خبر نجاة عدوه ، يروح ويحيى
في الحجرة . واحس جاليو بالهلاك فقال في نفسه ، انتظر بالبله ، واذا
بالدوق قد تمشى اليه وقال له ، أهكذا تخدعنا يا رجل ؟ اجاب ، انسا يا
مولاي ؟ قال ، نعم انت . هيا فاعد على سمي الايضاحات الحقيقية التي
نلقيتها من مولاك ؟ اجاب لقد امرني الامير بان اسبقه وانتظره في البلاط .
ورفع جاليو بصره الى السماء .

فقال الدوق ، ألم تكن تدري بانه ينوي نية اخرى ؟

قال ، وهل كان ينوي غير ذلك ؟

اجاب ، بلا شك لانه سافر الى غسقونيا .

قال ، سافر الامير ؟ . سافر بدوني ؟ . . . اوام ، لقد كنت اتمنى ان
اصحبه في سفره ! تلفظ بهذه الكلمات بلهجة صدق واسف حتى نظر اليه
الدوق مذهلا وقال ، قسا بشرفي لست ادري اذا كان هذا اللعين صادقا
او كاذبا فلم يبق الا الجلاد . . . عليّ بفيالار (اسم الجلاد) .

وللحال اقبل فيلار وكان مشهورا بالقوة ، فارتعدت فرائص جاليو
لما رآه فقال له الدوق ، اتعرف هذا الرجل ؟

اجاب ، لا يا مولاي .

قال ، انه سجين لا يريد الكلام ، فعليك ان تحل عقدة لسانه !

وفيما كان قاليار يدنو من جاليو دخلت الملكة الوالدة حجرة الدوق
فقالت له ، ان ولدي يروم الرجوع الى باريس ويطلب اليك ان تأمر بالتأهب
للرحيل .

اجاب سمعا وطاعة يا سيدتي فعدا ناسرا .

فقالت ، من هذا الشاب ؟

اجاب ، سجين قبضا عليه امس انا والمسيو دي برداليان . وهو شاب
ذو علاقات بوصائفك .

قالت ، ما اسمه ؟ .

اجاب ، اسمه جاليو دي نرساك .

ولم يكن جاليو قد تكلم بعد الا انه امل خيرا من قدوم الملكة فرفع
بصره اليها مستعظما وقال ، اسمي جاليو دي نرساك ، من رجال الامير ،
وهم عازمون على تعذيبي .

قالت عازمون على تعذيبك ! . ألم تكن مع الامير عندما سافر ؟

اجاب ، نعم يا سيدي .

قالت ، وهل يتأخر مولاك عن الحضور ؟

فقال الدوق ، نعم يتأخر ولا شك لانه فر الى غسقونيا لعلبه بانه مجرم ،
وارسل الينا وصيفه هذا ليخادعنا به . ولا يريد هذا الغبي ان يتكلم فعهدا
الى فيلار بحل عقدة لانه .

وكان فيلار قد لصق بجاليو وامسك يده ، فتقدمت اليه الملكة ونظرت
اليه وقالت ، مكين !

ثم خفضت صوتها وهمست تقول للجلاد ، لك خمسون دينارا اذا
ادعيت ان آلات التعذيب ليست عندك .

وقال الدوق ، خذ العتي فانا لاحقون بك .

اجاب نعم ، ولكن ليس في طاقتي ان افعل شيئا هنا . . .

قال ، لماذا ؟

— لاننا رحلنا على عجل من مدينة ابواز ، فتأخرت فيها آلاتي .

— أليس لديك شيء منها ؟

كلا يا مولاي ، ولا يسعنا استنطاق هذا الشاب الا حين وصولنا
الى اورليان اثناء ذهابنا الى باريس . فمض الدوق شفّيته ولم يدرك في
خلده ان الجلاد كاذب لانه قضى زمنا طويلا في خدمة الدوق وكان فيه
امينا فاكتمى بان لعن قلة توفيقه . فقال الدوق لجاليو ، صبرا ان العذاب
لا يموتك .

اجاب ليس لدي ما اقله يا مولاي في اورليان ولا ههنا زيادة على
ما قلت .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثالث عشر

(ما وراء طبع الكتب المهيجة من الخطر)

كان الاستاذ يعقوب لوم يتشى في حانوته في اورليان مسرورا ، ولاحظته ابنته فلم تر على وجهه امارات الانزعاج كالعادة فقالت له ، ها قد طبأت نفسك يا ابنت فلست اراك مكتئبا .

— نعم يا ابنتي ، فاني اليوم اشد سرورا مني بالامس .

— اكنت مغموما يا ابنت ولم تخبرني ؟

— لم اكن مغموما ولكن القلق ازال سروري . الا تذكرين ذلك الكتاب الذي سلمني اياه بلترو ؟

— نعم هو كتاب عنوانه « النمر » كتب ضد الدوق دي جيز .

— نعم . وقد توصلت الي كي لا اطبعه ، الا انني طبعته خفية عنك ، وكان شديد اللهجة والطعن حتى جعلني افقد راحتي . وكان يخطر لي على الدوام ان احد رسل الدوق قد يشر عليه في مكبتي .

— لقد اتيت امرا اذ يا ابنت .

— لا خوف يا بنية ، فلم يبق عندي الا رزمة واحدة من هذا الكتاب وسوف يأتي صباح اليوم رسول من عند امير كوندة ليأخذ تلك الرزمة . فاذا جاء غدا احد من رجال الدوق الى هنا لم يجد عندي شيئا .

واستمر الكتي يصف الكتب والاوراق ، وانهمكت مادلين في شغل البيت . الا انها سعا وقتئذ ضجة في الشارع ، واحدا يقوم مقبلين الى الحانوت .

وكان في المدينة رجل اسمه ماتيو ، ينوب عن الجلاد فيلار في مهمة التعذيب . وقد تلقى امرا بالبحث في مكتبة يعقوب لوم عن الكتب . فاتجه بجماعة من رجاله الى حانوته فدخله فرأى اصفرار الاموات على وجه يعقوب ، فقال له ان اصفرارك يدل على احترامك وعلى ان ضميرك غير مستريح .

فاجابه لوم ان ضمير الرجل الصالح المستقيم مستريح على الدوام . فرفع ماتيو كفيه واخرج كتابا من محفظة معه واطلع الكتي عليه قائلا له : اتعرف هذا ؟ فادرك لوم انه هالك .

فقال ماتيو ، اتعرف هذا الكتاب ؟ انك لا تريد مجاوبتي على سؤالي ، فابحثوا يا رجال .

ولم تطل مدة البحث لان احد الرجال وجد الرزمة في احدى زوايا الحانوت فحملها الى ماتيو ، فاخرج هذا منها مائتي نسخة شبيهة بالنسخة التي كانت معه .

فرفع يده على كف لوم وقال ، اني انوب عن الملك والدوق دي جيز واستاذي فيلار في القبض عليك !

فاجابه الكتي ، لا يصيبنا الا ما كتب الله لنا !

وللحال اخذ الرجال بتلابيه واوثقوا يديه وعزموا على اتياده الى القصر . وانفذ العدل في القصر اسرع واعجل من اتفاده في سجن المدينة .

وكانت مادلين تتأمل ما يجري مرتاعة ، والدمع يهطل على وجنتيها . فلما امر ماتيور باقتياد ابيها ترامت على قدمي ذلك الجلال الشقي وقالت ، كلا يا سيدي حاشا لله وللمرؤة ان تفعل . انشدك الله لا تحرم ابنة من ابيها ، واتوسل اليك ان تركه لي فليس لي احد سواه وهو قومي واسرتي ..

فقال ردوا هذه الحناء !

قالت اذن اتأذن لي بان ارافقه واباطره الاسر فاذا مات اموت معه ؟ قال ، بل البشي في بيتك ، فليس لدي امر بالقبض على غير ابيك ، فلا اسوق احدا سواه .

ودفع الفتاة عنه بعنف فسقطت على قدمي ابيها مغشى عليها . فانحنى لوم وقبل ابنته ثم اتجه الى الباب وقال بصوت هادى : اني متعب فلنذهب .

واتنشر خبر القبض على يعقوب لوم ، فكان وقعته على جماعات البروتانت وقع الصاعقة . اما الكاثوليكيون ففرحوا وطربوا واخذوا يتكلمون عن ثروة الرجل . ويقولون ان مصدرها نشر الكتب المهيبة . ورأوا اعدام الرجل عدلا وانصافا . واستطالت اللسنة على مادلين فذكروا قصة الرجل الذي وجد صريعا تحت نافذتها . وفيما كانت الفتاة المكيئة تصلي عند الماء في حجرتها اسموها الكلام القارص والاهانات الجارحة ، فلم تنم ليلتها . ولما كان الصباح قصدت القصر وهي ترجو ان يؤذن لها بمقابلة ابيها وتوديعه ، فمنعها الحراس . فقالت لهم ، انه ابي يا قوم ! ان السجين ابي ، واريد ان اراه فاي خطر يخشى مني وانا امرأة ولا سلاح معي . فلماذا تطرودني ؟

فاجابوها اذهبي قالتي الملازم ماتيور فهو الذي يتولى شئك ابيك غدا وفي اليوم التالي اجتمع جمهور غفير في ساحة اورليان وظلت مادلين

ليتها تسبح وقع المطارق على الخشب . فلما كان الصباح رجعت الى
القصر عازمة على انتظار والدها . وللحال انفتح الباب الكبير ومامها
موكب من الحراس والجند والجلاد ماتيو يشي وراءهم ويحبل بصره
الوحشي في الجمهور ، وقد البسوا يعقوب لوم ثوبا اسود واحلق به
عنوان الجلاد .

فتخطت مادلين الصفوف وارتمت على صدر ابيها ، فاراد ماتيو التفريق
بينهما غير ان بقية رحمة منعه من ذلك ، فرافقت الفتاة اباهما حتى المنقة
وهي تنظر الى وجهه ، وكانت تمشي على مهل شاعرة بان كل خطوة تدنياها
من الساعة الهائلة ، ساعة تعدو ابنة يتيمة . اما يعقوب فلم يتكلم ، بل تهيأ
لان يموت موت الشجعان دفاعا عن مذهبه . ففكر في الشهداء الماضين
وفي سيره على خطتهم واقتدائه بهم .

ولما آن وقت افتراق مادلين عن ابيها تولاهما الضعف والجزع فقال لها ،
لا تجزعي يا بنية فموعدنا السماء .

فقبلته لآخر مرة وركعت على الارض مخفية وجهها بين راحتيها . فتلفظ
الجلاد بكلمات مؤداها مجازاة الخائنين بما يستحقون من عقاب عادل .
فهتف الجمهور وصاح يقول ، ليمت عدو الدين !! وليمت عدو الدوق دي
جيز !

وهنا قال الجلاد لماتيو ، تعذرني يا كسبي جهنم اذا لم انجز فيك امر
الدوق دي جيز لانه امرني بشنقك على خشبة عالية ، ولكن الوقت لا
يسم للبحث عن شجرة فانا اشنقك بالحديد .

وطوق عنقه بطوق من حديد وضغطه به فازهق روحه كما فعل بجبار
عديل لارنودي فيما مضى .

فلبت مادلين وقتا طويلا في ذلك المكان ، ولما خطر لها الانصراف وجدت بلترو يقربها وكان قد سافر ليته بطولها ليرى صديقه في اخر حياته ، فامسك بيد الفتاة ومشى واياها الى البيت ، فقالت له اليك كل ما نمتلكه من مال فادفعه الى اولئك الانذال حتى يأذنوا لك بنقل جثة ابي .

فاجابها سافعل يا مادلين .

قالت ، شكرا لك يا بلترو فاني لم ار سواك في وقت الشدة .

ودفع بلترو ثلاثين دينارا حتى تسكن من اخذ الجثة ودفنها . وعاد الى مادلين فسار بها الى المدفن وجاء بقبس ليلا فصلى على الميت . ثم ان مادلين اكرهت صديقها الوحيد بلترو على الميت عندها تلك الليلة فقال لها ، لست قادرا على قبول هذه الدعوة خيفة ان ينثلم صيتك .

فاجابته بكآبة ، ان المدينة كلها تحسبني فتاة ماقطة ، فلا صيت لي ... وغدا تكلم عن الماضي .. وعن المستقبل .

وفي اليوم التالي نزلت مادلين الى الحانوت فابصرت فيه كل ما يذكرها بأبيها فبكت بكاء شديدا ولحق بها بلترو فصدت اليه يدها وقالت له ، انت اخي فانا احبك حب الاخاء ويحق لك ان تطالبني بايضاح عما مضى .

قال ، يا لله ولم الكلام عن اشياء مضت ؟

قالت ، يجب ان تعرف كل شيء ، ولا بد لي من عفوك . فقد كنت تهواني ، وحملني جنوني على ان احتقر هوائك ، الا ان ذلك لا يمكن تلافيه .. كنت اهوى الملازم فرنسوا ، وهو الذي كاد ان يقتلك في احدى الليالي والقالك تحت نافذتي .. وكنت اجهل انك الرجل الذي وثب اليها من الشارع .

فسبقها الكلام قائلا ، هل تعرفين يا مادلين اسم الرجل ؟

اجابت : اسه فرنسوا ... وهو ملازم ... وقد وعدني ...
قال : يا لك من فتاة مكيئة ! ... لقد وعدك بان يقترن بك ؟ ...
أليس الامر كذلك ؟

وفي تلك الدقيقة سماع قرع الطبول في الساحة ، وارتفعت اصوات
الناس ، فارتعد بلترو وصعد الى شرفة البيت فتبعته مادلين قابصوا جمهورا
من الاشراف لابسين افخر الملابس وهم يتقدمون المركبات الى ساحة
اورليان .

فقلت مادلين ، ما هذا ؟ أليس بلاط الملك ؟
اجاب ، نعم يا مادلين ، هذا موكب الملك فرنسوا الثاني ، فانه راجع
الى باريس مارا باورليان .

واذا بمادلين قد مدت يدها الى احد الفرسان وقالت لبلترو بصوت
خشن ، من ذاك الفارس ؟

فلم يجر جوابا .

قالت ، تكلم بحق السماء !

اجاب ، هو فرنسوا دي جيز .

قالت ، يا للداهية .

وسقطت على الشرفة من غير حراك لانها عرفت به الملازم فرنسوا .
فوثب اليها بلترو وحاول تنبيهها واعادة رشدها اليها وكان يفهم الكلام
قائلا ، ويل لك يا دوق فرنسوا ، وويل لقومك لان كل ما جرى يستحق
القصاص :

الفصل الرابع عشر

(ليلة جميلة)

كان الدوق دي جيز قد عزم على الوقوف في اورليان ليأمر باستنطاق جاليو دي نرساك ، وكان معنى الاستنطاق في ذلك الزمن تعذيب المتهم بآلات التعذيب . ولكن لما ذكر للدوق اسم الكتي الذي شق بالامس اوسع الخطى خائفا ان تجعه الصدفة بمادلين . فاكفي بان امر برداليان بشدة مراقبة سجين . ولقد كان سفر السجين على مركبة مقلقة محوطة برجال مسلحين تلقوا امرا بقتل السجين ان هو حاول فرارا . وفيما كانوا خارجين من اورليان قال جاليو لبرداليان ، اني ارى لك وجها باسم بشوشا وطلعة بهية ...

— هب الامر كذلك .

— ان توفيقك ينيني حبيتي الحناء وكان جاليو يطاول بمثل هذا الكلام ان يحصل سجانه على الثروة والهدر لانه رآه يطالع تذكرة . وقال في نفسه لعلها تذكرة غرامية ضرب له فيها موعد ، فاذا ذهب اليه تمتع جاليو بحريته ساعة من الزمن .

وفيما كان جاليو يأكل طعامه عند المساء احس بورقة في اللقمة فارتعد ولما اشعل الحراس مصابيحهم انتهز تلك الفرصة فقرأ في الورقة هذه الكلمات .

« كن مستعدا في هذه الليلة ، انا نسمى لك » .

فقال في نفسه ، هذه رسالة من الملكة الوالدة لان ورقها معطر وكتابتها دقيقة . واطل من المركبة فابصر البارون ما زال يقرأ تذكرته . وكانوا قد وصلوا الى موضع يقال له ارتناي . ودخل بعض الاشراف بيوتا فيه ترجى منها حسن الضيافة ، واما القسم الاكبر منهم فتهيا للرقاد في المركبات . ولم يشأ جاليو رقادا من غير ان يخاطب برداليان ويتمنى له الهناء التام في ليلته فقال له اسأل الله لك يا عزيزي برداليان احلاما تبرز فيها لك حور الجنان متبرجات متزينات ، فقد عزمت على الرقاد .

وبعد هنية تمدد جاليو على وسائل المركبة واخذ يغط غطيطة المستغرق في نومه . ولث برداليان بقربه ساعة واخذ يشدد التيه على رجاله بالمراقبة والحراسة . ثم بادر الى موعد ضربته له احدى وصائف الشرف في التذكرة الآتي نصها :

« عزيزي البارون

« متى وصلنا الى ارتناي ، وانطقت الانوار ، ونام سجينك ، تعال اليّ وقف تحت نافذتي فاني اود سماع كلماتك الغرامية » .

« اناييس »

فلما مضى برداليان فتح جاليو عينه وجعل ينظر الى الطريق وكان عنده اربعة من الحراس ، رابعهم زعيمهم . وكان يتمشى الثلاثة وهم يتحدثون اما الزعيم فكان واقفا وحده يترنم بانشودة غرامية ويقول في نفسه ، قاتل الله الوحدة !

وكانما اجاب الله دعاءه فمرت به وقتئذ ماشطة الملكة وهي فتاة ايطالية اسمها « جذابة » فقال لها الى اين ؟ اجابت ، اني اتزده ايها الزعيم

واقطف الازهار . قال ، الا تخافين من التنزه ليلا ؟ اجابت ، انا اخاف ؟
انت تدري انني لا اخاف الرجال . قال لا يلقى بك يا جذابة ان تسيري
وحدك ليلا فبحقك الا ما اذنت لي بصحبتك ؟

وبهت جاليو لا رأى تلك الايطالية قد تناولت يد الزعيم فقال في نفسه:
ان جذابة هذه سريعة الانقياد !

ولم يكذ ينطلق الزعيم والايطالية حتى اقبل خادم يحمل زجاجات
ملاى . فقال له احد الحراس ، الى اين ؟ فاجابه ، اني ابحث عن جنود
البارون برداليان . قال ، لقد وصلت ، فتحن جنوده . قال ، لقد سرتني ذلك
لان ساعدي يكاد ينكر من ثقل هذه الزجاجات . احقا انكم جنود
البارون ؟ اجاب ، نعم ، فما الذي تحتاجه منهم ؟ اجاب ، ان البارون ارسل
اليكم هذه الزجاجات .

— ايروم حفظها لدينا ؟ اجاب الخادم ، بل ارسلها لتشربوها .

— غدا ؟ اجاب ، بل الليلة . فان البارون طروب . وقد ود ان يطرب
جنوده مثله . ثم انه اعطاني هذا النرد .

قال احد الجنود ، هذا يصلح للعب وليس لدينا نقود . فقال الخادم ،
ولقد ارسل اليكم نقودا كذلك ، لكل منكم ستة دنائير .

فاجابه الجندي ، ليس ذلك انكرم من عادات سيدنا البارون ، فهل لك
في مشايرتنا اللعب والخمر ؟

— حبا وكرامة يا اصدقائي :

وكان جاليو يرى ويسمع فظن ان حورية من حور الجنان اتت هذه
المعجزات لنجاته . وللحال شرب الجنود الخمرة ، وتفرقت الدنائير بين
ايدي الرجال من رابح وخاسر ، كما تفرقت الخمرة في الرؤوس فاسكرتهم .

فقال جاليو في نفسه ، لم يبق الا ان انتظر الدفعة الاخيرة ، وما وراءها الا جواد وسيف وثقود . . . يا لله ! افي يقظة انا ام في منام . . . ذلك لانه ابصر امرأة تمشي على مهل ، فمرت على مقربة من الجنود وقد اخذهم الناس ، ففتحت باب المركبة وامسكت يد جاليو وقالت ، تعال !

فارتعد جاليو وقد عرف الملكة الوالدة فتبعها من غير ان يتلفظ بكلمة ، فخرجوا من ارتناي ، وتجاوزوا الحراس بعد ان ألقت الملكة كلمة المرور . فقال لها جاليو ، الى اين ايتها السيدة ؟

اجابت ، اخفض صوتك يا غلام فان الجواسيس حولنا وقد يسمعون .

ولم يتجراً جاليو على الكلام ، فارا حتى ابتعدا عن ارتناي ، وجاليو يعجب بتلك المرأة التي تتحمل مشقة السير اكثر من كل وصيفة من وصيفاتها ، واذا بوقع حوافر جواد قد طرق آذانهما فقالت الملكة ، قد وصلنا !

وكان للطريق عطفة وقف عندها رجل بيده زمام جواد مرج ، وعلى سرجه سيف طويل وغدارتان وخنجر ، فصاح جاليو ، انك انتقدتني يا سيدتي ، فشكرا لك من صميم قوايدي .

قالت ، وكيف جرحك ؟

اجاب ، انه شفي تماما الان .

قالت ، قد ييل دمه من حركة الجواد ، فخذ هذا المرهم انه يسم الشفاء .

اجاب ، ازيدك شكرا يا مولاتي واسألك ، اي حاجة لك ؟

قالت ، ان امير كوندرة ينتظر وصولك . . فلا تنكر عليّ امرا قد

حزرته . فخذ هذه الرسالة اليه ولا تسلمها لاحد سواه . فاذا تبعك احد فاعمل في شاكلة جوادك المهاز ، وتحت السرج نقود كافية لشراء جواد اخر . واياك ان تدع الرسالة تسقط منك او تصير الى يد سواك .

اجاب ، سوف اهلك يا سيدتي قبل ان اسلمها الى احد .
قالت ، وتسلم الامير هذه الرسالة التي كتبها الآتسة دي ليول .
وكان ضوء القصر مشرقا على وجه الملكة ، ودعش جاليو من حسنها فقال ، اني لك يا مولاتي روحا وجدا . بل انا مستعد لان اموت في الدفاع عنك . ولكن اود ان لا اموت دون ان اتزود بنظرة من وجهك فتبسمت الملكة وحلت من عنقها تصويرة مصخرة لطيفة ، دائرها مرصع بالحجارة الكريمة ودفعتها الى جاليو . فتناولها منها ولثم يدها ثم وثب الى جواده . فتأمله الملكة هنية وشارت اليه اشارة وداع وقالت ، ادعوك بالتوفيق ، فتشجع !

وللحال اختفى جاليو وعادت الملكة الى ارتناي وهي تقول ، عسى ان تكون انايس قد تمكنت من حجز البارون عندها .

وكانت انايس قد اجتذبت البارون برداليان الى الجهة الاخرى من القرية وتمكنت من استبقائه لديها حتى اقتصف الليل . فثيما الى بيتها وهو يقول لها ، ما احلى هذه الليلة يا حبيتي !

فقلت له كفى يا بارون تغزلا ، فلي حاجة اليك .

— تكلمي .

— لقد عهد اليك الدوق بالقيام على حراسة شاب جميل المنظر .

— نعم ، هو جاليو دي نرساك رسول امير كوندرة !

يقال انه صبيح الوجه .

- قد يخطئ القائلون .
- ويقال انه حلو المعاشرة ، بارع الظرف .
- ذلك ضلال .
- وانه شجاع !
- بل يحسن الدفاع عن نفسه اذا هجم عليه مهاجم ليقتله . فما مرادك من هذه الاسئلة المتوالية ؟
- اود ان ارى سجينك غدا .
- ما هذا الخاطر الذي خطر لك ؟
- عدني بذلك يا بارون .
- وهل استطيع ان ارفض .

ومضت الى موضعها بين وصائف الملكة . وعزم برداليان على الذهاب الى فراشه للرقاد لكنه رأى ان يرب سجينه قبل ذلك . ولما تبين له من بعيد ان انوار الحرس مطفأة تولاه شيء من القلق . ثم تحول قلقه الى انزعاج لما لم يجد زعيمهم قرب المركبة . ولما اقترب وابصر جنوده ثائمين ملء جفونهم في وسط الطريق وبجوارهم زجاجات الخمر الفارغة والنرد ، هاج هائج حقا . ودخل المركبة فلم يجد جاليو فيها ، فضرب برجله احد الجنود وبعد عناء ايقظه وقال له ، ماذا تفعل يا حيوان ؟

فنهض يسح عينه ويقول اني ... انام ...

قال تنام وتفعل عن الحراسة ، والسجين ؟

فكرر قوله ، الحراسة والسجين ؟ ثم تساقط على الارض من شدة السكر . فاضطر برداليان الى ايقاظ كل جندي واحدا بعد واحد وتنبيههم جيدا حتى وقف الثلاثة امامه وهم يترنحون سكرًا . فقال لهم وصوته

يرتجف غضبا : ما معنى هذه الزجاجات الفارغة ؟

فاجابوه ، انها زجاجاتك ايها المولى !

قال ، وكيف ذلك ؟

قالوا ، انها تلك التي ارسلت بها الينا مع الخادم .

قال ، انتم مخطئون ولا يزال السكر آخذا منكم . فما هذا الكلام ؟

فاجابه احدهم ، هو الحقيقة .

قال ، اين زعيمكم ؟

اجابوا ، زعيمنا ؟ . .

وقال احدهم ، لست ادري اذا كان ينبغي ان اتكلم .

قال برداليان ، ويك تكلم والا قتلتك !

اجاب ، ان زعيمنا ذهب مع امرأة !

قال ، من تلك المرأة ؟

اجاب ، اسمها « جذابة » .

قال لعنة الله على الايطالية اللعينة ، اني وقعت في الشرك !

وللحال عقد برداليان نيته على امر ، فبادر واخبر احد رجال الدوق

دي جيز ان سجنه قد تمكن من الفرار ، ولم يزدہ بيانا سوى انه سيلحق

به . ثم غادر جنوده ، ولم يكونوا في حالة صالحة للمساعدة ، فاختر ستة

اخرين واركبهم افراسا ووثب واياهم في طريق اورليان وهو يعتقد ان جاليو

قد سافر الى غسقونيا .

الفصل الخامس عشر

(صديق جاليو)

كان الفندق الذي اقام فيه برنابا ، استاذ جاليو ، من احسن الفنادق . فلم يأسف على فراق تلميذه في بادئ الامر لانه اعجب بطعام الفندق وشرابه . غير انه ما لبث ان ادركه الملل وتولاه الضجر والسأم فعول على الرجوع الى باريس ، وخامره شيء من القلق لان تلميذه كان قد وعد بان يعرج على اميواز قبل ان يلحق بامير كوندة . فجلس عند الماء قلقا ولم يشعر بشهية الطعام . وانه كذلك واذا بتلميذه جاليو قد ظهر عند باب الفندق محجبا بالعرق والغبار . فهجم عليه برنابا بلهفة واشتياق . فبدره بقوله ، الطعام قبل كل شيء !

وجلس الامتاذ والتلميذ الى مائدة في غرفة برنابا ، لان جاليو لم يشأ ان يتعشى في القاعة العامة . فلما شبع جاليو وارتوى قال لامتاذه ، سل الآن ما بدا لك . قال ، حدثني بخبرك واكفني مؤونة الاستفهام . ماذا وقع لك بعدما تركتني للوحدة والوحشة ؟ اجاب ، كيف تذكر الوحدة والوحشة وانت في فندق انيق قد اشتهر في بلاط طوران بمطبخه وحلواه وخموره . قال ، لقد تركتني يا ناكرا الجميل ولو لم تعد لانتقلت من الحياة الى الموت .

اجاب ، لو وقع ذلك لكان الخطب جللا . فقد سافرت مع الامير حتى

أوصلته الى البلاط وانتظرت ، ولما رحل الأمير ولم يرجع قبض عليّ دي
حيز وجسني ، ولولا الملكة كاترين لاسلمني الى الجلاد ، وهو فاليار شر
الجلادين . قال ، ألم اشر عليك بأن تبقى في مدرسة السوربون بدلا من
السقوط في مفاسد البلاط ومهالكه ؟

اجاب ، ليس ذلك بالامر الذي يستحق الذكر بعدما انقذتني كاترين
مرتين . الاولى في سنونو والثانية في ارتناي .
قال ، ان كاترين هذه ملكة عظيمة .

اجاب ، منذ ليتين نصبت شركا على يد خادمة ايطالية لسجاني ، وسكر
الجانود الاخرون ، ثم اقبلت الملكة بنفسها عليّ .
قال ، الملكة بنفسها ؟

اجاب ، نعم ، فتاولت يدي واعطتني جواذا وذها وسيفا وغدارتين
وختجرا نفيا ورسالة الى امير كوندّة ، فانا سفير يا استاذي . وقد بحث
لك بري فاقسم لي على ان تموت قبل ان تبوح به .

فانشرح صدر برنابا لرور تلميذه ، ورفع زجاجة خمر بيده وقال ،
اني اقسم لك . ثم قال ، ان هذه الملكة بديعة ، ولا ادري لماذا يفضل عليها
الملك فرنوا الثاني دوقّة من فالتين ، وآل مدسيس اقدم نسا . . ؟ قال
جاليو ، بل يقال ان اسرتها قد تعاطت التجارة قديما . اجاب ، كلا يا بني .

وهنا اخذ الاستاذ يرد على تلميذه نسب اسرة مدسيس باسهاب ،
حتى قال جاليو ، تالله لئن لقيت الملكة كاترين لاطلمتها على تاريخ قومها .
فطفق برنابا يفيض في شرحه حتى غلب النعاس جاليو ، فحمله كأنه
يحمل طفلا صغيرا ووضعته على فرائشه وقعد الى جانبه لكي يرقب يقفته ،
الا انه ما لبث حتى نام مثله . وفيما كان جاليو يرى في حلمه مارسلين

والملكة كاترين ، ضرب باب الغرفة ضربات متوالية عيفة ، فصاح الاتاذ ،
مهلا بحق السماء ! فعندي غلام نائم • فليل له ، افتح ! قال ، من اتم ؟
ليل ، افتح باسم الملك !!

فنهض جالو وبادر الى النافذة ليثب منها الى الارض ويفر ، فابصر
تحتها ثلاثة رجال يحملون الحراب فقال ، ويلاه لقد نفذ كل تدير • ولكن
لماذا تركتي انام يا استاذي ؟ فاجابه ، لقد كنت نائما نوما عميقا •

وتكرر النداء من الخارج فمرف جالو صوت البارون دي برداليان •
فتناول رسالة الملكة ودمها في رده حتى يتلها بسهولة عند الحاجة • ثم
حشا غدارته وعظمتها في نطاقه ، وشهر سيفه الطويل واعد خنجره ، ثم طلب
الى برنابا ان يختبئ في احدى الخزائن •

وكان برداليان ورجاله بالباب يصرخون ، افتح الباب ! واستمر ذلك
بضع دقائق ، ثم انكسر الباب تحت صدمات المهاجمين ، فابصر جالو جماعة
من الرجال قد ملأوا الدهليز ، وكان احدهم يحمل مصباحا فاطلق عليه
جالو النار فخر صريعا وانطلقا مصباحه معه • وكان جالو قد لاحظ جهة
الباب فطرح عنده كل ما امكنه طرحه من صحون وزجاجات وكراسي حتى
قال برداليان ، ما احسب الذين في داخل هذه الغرفة اقل من عشرين رجلا •
الا ان جالو لم يقتنع بفوزه الاول • ففيما كان برداليان نازلا ليعد
هجمة ثانية جذب السرير الى امام الباب ، وكان يأمل بذلك ان يتمكن من
طلقة نارية ثانية ، الا انه لم يكن قد حسب حابا لمن في الخارج • ففيما
كان يسدد غدراته الى احد رجال برداليان سمع النافذة وراءه تفتح ، فانشى
واطلق النار على راس احد الجنود وكان قد سعد الى الشرفة وسدد اليه
الطلق • وهكذا قتل جالو رجلين الا انه لم يبق له الا سيفه وخنجره • وفيما
كان جالو يطرح قتيله من الشرفة كان برداليان قد قلب السرير والامتعة

وتقدم الى عدوه ومعه اربعة رجال . ومعلوم ان البارون تلقى امرا بان لا يقتل جاليو بل يقبض عليه حيا . وقد ظن جاليو ان ساعته الاخيرة قد دنت . وركع برنابا يصلي في مخبأه . فاستند جاليو الى الجدار بعدما اجتذب اليه خوانا وكريسين ، وجعل يمد سيفه الطويل الى الرجال فلم يجروا على الدنو منه برغم حراهم . فاضطر برداليان الى الهجوم عليه بنفسه قائلا لرفاقه ، اهجموا عليه انتم من جانبيه .

وللحال ناله جاليو بضربة سيف على كفه اليسرى . وقال له ، لقد ظننت ان هذه الكتف تحسد تلك .

فصرخ برداليان من شدة الحنق والكمد وهجم على عدوه وقلده رجاله حتى ضايقوا جاليو مضايقة ظن معها ان هلاكه محقق ، ومع ذلك فلم يصب الا بخدوش هشمت ساعديه وكفيه فتجلد . ثم دنا احد الجنود رافعا حربته ، واذا بجاليو قد طعنه في عينه بخنجره فارتنى المكين من غير حراك على الخوان فانقلب معه وزال حصن كان جاليو يختفي به . فلما رأى سائر الرجال خلوا الساحة تقدموا ، فصاح بهم برداليان لا تقتلوه وانما اضربوا ساقيه .

فارتعد جاليو لعلمه بما وراء نجاته من عذاب يلقاه من يد الجلاد ، واشفق برنابا على تلميذه فاضطرب وهو في مخبأه اشد اضطراب ، وللحال خطر له خاطر عجيب ، فقبض على زجاجة خمر وخطبها بقوله انطلقى ايتها الزجاجة المحبوبة رسولا الى هؤلاء الرجال المسلحين فابلقهم ان في الخمر منافع للناس ، واطفئي انوارهم وانقضي تلميذي العزيز .

ثم صوبها الى البنادق الثلاث فرماها بالزجاجة ، فانصب ما فيها على ذبال البنادق فتقهقر الرجال الثلاثة مذعورين ولجأوا الى الباب فاعترضهم

رجل طويل القامة وقال لهم ، الى الوراء ايها القتلة ، يا من لا يتكفون
من مهاجمة شريف واحد وهم عشرة .

ثم قال لجاليو ، مهلا ايها البطل اني نصيرك .

وكان جاليو في اشد الاحتياج الى هذه المساعدة لانه كاد يفقد حواسه .
وتأخر برداليان لينظم القتال تنظيما اخر فاتهز جاليو هذه الفرصة فتخلص
من الرجل الأخير حامل الحرية ، وكان نصيره الجديد قد طرح اثنين من
حلبة البنادق فبقي برداليان بين سيفين ، فلاح له ان اجله قد دنا ، وخطر
لجاليو ان يرديه قتيلا الا انه ابى ان يقتله ومعه رجل اخر ، فقال له ، سلم
نفسك ! اجاب ابدا ! قال ، اذن تأخذك اسيرا .

ولم يكن برداليان قادرا على مقاتلة ذيك الرجلين ، لان صديق جاليو
الجديد كان ماهرا مثله في ضرب السيف فما لبث ان اصيب بجرح وسقط
منفى عليه فانشى الطالب الى منقذه وصاح يقول ، لست اعرفك يا سيدي ،
وانما اعرف انني لولاك لكنت قتيلا . فحياتي لك واسمي جاليو دي
نرساك من رجال امير دي كوندو .

فاجابه ، ان الامير جندي شجاع ، وقد قاتلت تحت امرته . ويعجبني
انني اسديت يدا الى واحد من رجاله البواسل واسمي ترولوس دي مزغونة
فتأمل الرجلان وقتئذ ساحة القتال فابصر الجثث مبعثرة والكراسي
مقلوبة وصاحب الفندق بالباب حاملا مؤزره باحدى يديه ماسحا بالآخرى
عينيه ، ورأس برنابا بارزا من باب الخزانة وقد تنهد وقال ، يا له من منظر
فظيح !

فقال صاحب الفندق ، ومن يدفع لي ثمن ذلك كله ؟

فعطف جاليو على البارون وفحص جراحه فلم يجد فيها جرحا مميتا .

فوضعوأ الجرحى على الفرش ، ونقلوا القتلى ، واعد صاحب الفندق لائحة
بمبلغ كبير تمكن جاليو من دفعه من مال الملكة الوالدة . فخلا الصديقان
وبرنابا فقال جاليو ، اي جهة تقصد يا سيدي اشمالا ام جنوبا ؟ فاجابه ،
كنت ميمما بللاط فرنسوا الثاني في طلب التوفيق فهل لك في مساعدتي ؟
فاجابه ، نعم ولكن الامير ورجاله ليسوا على وفاق مع بللاط الملك
في هذه الآونة . واني ذاهب الى غاسقونيا لاحق بالامير .

قال ، لست ارى الطرق طرق امان ، فهل لك في استصايني ؟
اجاب ، حبا وكرامة ، ولكن ذلك السير يرجعك الى الورداء .
قال ، لا يهمني ذلك . فانت تعرف الامير بي فيذكر انني كنت من
المقاتلين تحت لوائه ثم نرجع معا الى البللاط . فما رأيك ؟ . .

وتصافح الرجلان ، فقال برنابا ، وانا فماذا افعل ؟
فاجابه جاليو ، انشء خطبة بليغة عن القتال الذي شهدته ، وفصل
فيها كل ما رأيته من بداءة المعركة حتى وصول دي مرغونة ، وقد كان سيفه
آية النصر لنا .

فقال مرغونة ، ولماذا لا تسافر معنا ايضا ؟
قال ، الى غاسقونيا ؟
اجاب جاليو ، نعم فان القراخ هناك طيبة ولحمها طري والخمرة جيدة
وشربها لذيد ، والفتيات حان فائنات .
... اذن فقد وجدت ضالتي .

قال جاليو ، وما رأيك اذا لحق بنا اعداؤنا ؟
قال ، ما اظن هذا البارون يستطيع لحاقا بنا فهو لا ينهض عن فراشه الا
بعد ايام طويلة ، وانا اعرف الطرق فلا ادع احدا يهتدي الى آثارنا .
قال جاليو ، اذن هيا بنا نسافر . وهكذا سافر الثلاثة . . .

الفصل السادس عشر

(في الصورة التي نهت فصول دي مزفونة)

وصل جاليو وترولوس الى قصر يقال (له بو) فاستقبلهما الامير
احسن استقبال ، وبعد ان اخبره جاليو بما وقع له قال الامير ، استريحوا
الآن انت وصديقك ، واصبروا .

فاعجب برنابا بهذا الجواب . وكان برنابا انعمهم بالا واحسنهم حالا
لانه عكف على طعامه وشرابه وود اتفاق العمر بين الطاس والكاس في ذلك
الموضع الذي رآه اثنه بجنة عدن .

اما ترولوس وجاليو فقد تمكنت بينهما اواصر المودة وتوثقت عرى
المصافاة والمصادقة . وكان ترولوس على مذهب البروتستانتين ، فانضم
الى رجال امير كوندو . وقد سر ذلك الامير لانه عرفه من انصاره في حصار
متر . وكان هذا الشاب في نحو الخامسة والثلاثين ، طويل القامة ، حسن
المنظر ، كثير التفكير والتأمل . فهو في ذلك على عكس ما اتصف به جاليو
الفكه الخلق الحلو المعاشرة . الا ان بين الصديقين جامعة اخرى هي البالة
الحقيقية وحب التعرض للمخاطر . وكان يلذ للامير التنزه معهما على ضفاف
نهر الغاق او في الوديان التي تحديق بها هناك الجبال الشامخة . فلما كان
ذات يوم قال الامير لجاليو ، ما اراك تصب بلادنا وجبالنا لانك لا تكلمني
عنها ... فاجابه اني لمعجب بها كل الاعجاب لانها جنة الله في ارضه .

ومتى وصلنا الى بلاط الملك سمعت مني وصفها البديع . وقال الامير لبرنابا ، وانت فما رأيك ايها الاستاذ ؟ فاجابه ، من لي بصرف العمر في هذا البلد السعيد ؟

وبعد صمت قصير المدة قال الامير لجاليو ، ما رأيك في مهمة تذهب بها الى البلاط ؟ فصاح جاليو ، اني للمهمات يا مولاي فان شئت سافرت الليلة ! قال ، وانت يا دي مزغونة ؟ اجاب ، ارجو ان تأذن لي فاصحب صديقي . قال لقد تبين لي ان جمال هذه البلاد لم يؤثر فيكما . . . اذن تافران غدا .

فاظلم وجه برنابا ، الا انه لم يجسر على اعتراض . فقال الامير الا انكما اجزتما الولاء لبرداليان وعاملتاه بكرم الخلق ولا بد من ان تجتمعا به هنالك . . . فاجاب جاليو ، ليتنا نستأنف القتال معه . فضحك الامير وقال ، لست ارتاب في ميلكما الى مبارزته ، ولكنني اود ان اعرضكما لغيره ، فاسمع يا جاليو . ان الملكة الوالدة قد اخذت تشمر بضعف العزيمة والمعجز عن مقاومة آل جيز وحدها . وفي الرسالة التي وصلت اليّ منها على يدك تعدني بالمساعدة لدى الملك اذا رضيت بالرجوع الى البلاط . وفيما كنت افكر في السفر بعثوا الي بالماريشال سنت اندريه جاسوسا يرصد حركاتي وسكناتي فرايني اسرهم . ومعلوم ان مجلس الاعيان يجتمع قريبا في فونتبلو ، ولكنني قبل ان اذهب الى هذا الاجتماع اردت الاطلاع على ما ينويه البروتستانتيون اهل البلاد الشمالية ، فارسلت اليهم رسولي لاساج فذهب فاوصل الرسالة . ولما عاد بالاجوبة تسكن فيالار الملازم عند آل جيز من القبض عليه واطلع الدوق دي جيز واخوه على الرسائل التي كتبها اليّ اشراف البلاد الشمالية . وكان بينها كتاب من قائد الجيوش هناك يعرض به عليّ مساعدته وكذلك كان بينها كتاب من الفيكونت شارتر ليس

عليه توقيع غير حروف متفرقة ولم يكن في الامكان معرفة التوقيع لولا ان المسكين عندما كانت تهواه كاترين قبلا كان قد كتب اليها اياتا لطيفة ما برحت تضعها بين صفحات كتاب صغير للصلاة تحمله كل يوم . فلما قابل آل جيز بين الخطين تحققوا ان صاحب الكتاب هو الفيكونت شارتر : وفي ذلك الكتاب يقول الفيكونت شارتر « اني مخلص لك اخدمك جهدي وانصرك على كل مخلوق ما عدا الملك والملكة والوالدة وابناء البيت المالك في فرنسا » فقَبِضَ آل جيز على الفيكونت شارتر وطرحوه في قلعة الباستيل . وقد امرت كاترين على اثر ذلك بان يسكن السجن من استنشاق الهواء النقي في فناء القلعة . فعليكما ان تافرا غدا الى باريس وتحاولا انقاذ ذلك الرجل الكريم الذي عقد اعداؤنا نياتهم على اهلاكه .

قال جاليو ، ثم ماذا يا سيدي ؟

اجاب الامير ، ثم تنتظراني في ضواحي البلاط وتبئاً كاترين بقرب وصولي .

ولقد فرح الصديقان بهذه الفرة ، اما برنابا فكان لا يفتأ بذكر النعيم الذي فارقه ويقول ، لقد كنا بخير وسلام في غاسقونيا . فلما وصلوا الى باريس نزلوا عند نيكول بوميه ، ولما رأى برنابا وجه نيكول العريض والمائدة الفاخرة التي اعدّها نسي احزانه فاكل برنابا حتى امتلا جوفه فقال له نيكول ، الى اي جهة اميل يا ترى ؟ الى جهة الامير ام الى جهة آل جيز ؟

فاجابه برنابا ، الى جهة النقود يا صديقي .



ولما امسى المساء خرج جاليو مع ترولوس قاصدين الى ناحية الباستيل

فاقتربا من القلعة ، فقال ترولوس لصديقه ، قد يكون هلاكنا في هذه المهمة التي نباشرها الان . وقبل العمل اود منك ان تطلعي على سر .

اجاب ، تكلم يا صديقي فليس لي سر اكنهه عنك .
قال ، ما هذه الصورة التي معك ، لعلها من حبيبتك مارسلين ؟
اجاب ، لا ...

— انما عنيت الصورة التي رأيتها مرارا على صدرك وقت الرقاد ،
فهل جاءت من امرأة تهواها ؟

— كلا فلت مجنونا لاهوى ملكة .

— أملكة هي ؟

— نعم ، لان عليها صورة كاترين دي مديس ، تناولتها من يدها ليلة هربي من ارتناي ... ولكن ما بالك ... وما هذا الاصفرار الذي بدا على وجهك .

— يا للداهية ، ان ما انا فيه فظيع ! .. آه ، انني مجنون يا صديقي فما حم واقع ولا مرد له ولا دافع ! .. لقد مضى زمن وانا ارى هذه الصورة ، فانا اهوى الملكة . وكنت غيورا منك . كنت اضرب من هاتين العينين . ويزعجني التفكير فيهما كلما اويت الى فراشي ! وخيل لي انني اخون صداقتنا بحبي للمرأة التي تهواها انت . اما الان فقد علمت انك لا تهواها بل علمت ان التي اهواها هي والدة الملك ! .. الا تصال لي ! .. بمثل هذا الغرام يهلك رجل مثلي ...

ولم يكذ جالو يتعجب من شيء فقال ، ولماذا يهلك به رجل مثلك ؟
وهل تيأس من تلك المرأة التي تقدم على كل شيء ؟ ..

فوصلا الى الباستيل واخذا يبحثان عن موضع فناء القلعة وهو الموضع الذي اشار اليه الامير في حديثه وقال ان الفيكونت شارتر يخرج اليه للتزهد

في كل يوم فردهما الحراس فابتعدا على ان يرجعا ليلا وكان الظلام شديدا
العطك حين رجعا . فزحفا على ضفاف خندق حتى بلغا المكان الذي تجري
منه الى السجن المياه فقال جاليو ، انما ندخل من هنا . قال في موضعك
لارقب الموضع فاني اود ان افحص المر الذي اشار اليه الامير في ايضاحاته
الخاصة .

ونزل الى الماء فبح فيه فوصل الى قبة ترتفع قدمين فوق الخندق ،
وقد غطس بدنه في ماء ووحل . فمثر بباب من حديد كالشباك فقال ، واعجبا
من باب متين كهذا يكون في مجرى المياه . ولكن من حسن الحظ اننا
قادرون على اقتلاع بعض قضبان الحديدية . قال هذا الكلام واقتلع
قضيا الى جانب القفل بخنجر معه حتى تسكن من مديده وادارة القفل
فدار الباب على رزاته وانفتح . فر جاليو سابحا حتى انتهى به العوم الى
فناء مزروع اشجارا ، وكان ذلك المكان متنزه الفيكونت شارتر فقال جاليو ،
اذا اعددنا ثلاثة افراس عند باب سن انطوان ، واتخذنا الخناجر ، تم لنا
النجاح . ثم رجع الى الموضع الذي غادر فيه صديقه فالفاه ينظر الى السهي
مترسلا في تأملاته فقال له ، حبك يا هذا فما عشق الصور بمحمود .
قال ، لا تمزح ولا تهزأ بي فاني عاشق حقا . قال ، اذن كان الاجدر بك
ان لا تبديدا الى انقاذ الفيكونت شارتر . فقد قيل انها كانت تحبه . قال
لا تكلمني عن ماضي تلك المرأة يا جاليو فاني قد تناسيته . وانا اهواها
ولا غرض لي من حياتي الا ان اخدمها واموت في سبيل هواها . . .

فقال جاليو ، لعمر الحق هذه اول مرة افلمت فيها كاترين بان كانت
السبب في هوى مجرد عن الاغراض .

قال ترولوس ، وعن الامل ايضا ؟

وقال جاليو ، ولم ذلك ، او لت شريفا مثل الفيكونت شارتر الذي

عزما على انقاذه ؟ .. الا فاذكر ذلك يا ترولوس كل شيء ممكن حدوثه في
بلاط فالوا !



وبعد يومين قبل الفجر كان حراس الباتيل يوزعون على اسواره ،
وحاكمه يلقي بعض الاوامر . فهم جالوا مباشرة العمل فواقفه صديقه
وقال ، بل اود ان القي الرجل واره قبلك . فنزل ترولوس الى ضفاف
الخنديق ووصل الى الفناء الذي كان الفيكونت يتنزه فيه . والمجرى الذي
وقف ترولوس عنده كان محجوبا بالاشجار الغضة فانتظر عنده ولم يره
احد ، ومن ذا الذي يخطر في باله ان في العتلاء من يتجرا على انقاذ سجين
من الباتيل عند طلوع النهار . فلبث ترولوس منتظرا حتى ازقت الساعة
التاسعة فانتفتح باب الفناء وخرج الرجال يتقدمون سجينا تلوح على محياه
امارات النبل والدكاء . فقال ترولوس في سره هذا هو صاحبنا الفيكونت
شارتر .

ثم انزوى الحراس الى زاوية وتركوا السجين يتنزه كما يشاء فمر
المسكين مرارا امام الاشجار الغضة ثم ارتدى على مقعد هناك واذا ذاك سمع
وراءه قائلا يقول ، اسمعني يا سيدي ؟

فاهتز الفيكونت ، وبعد هنيهة جعل يده على فمه وقال ، هل جئت
لتنقذني ؟ فاجابه ، نعم . قال ، قل ما اسمك ؟ اجاب ، لست تعرفه . قال ،
من مرسلك ؟ اجاب ، امير دي كوندو .

فنهض الفيكونت ودنا من حراسه فرآهم منهكين في لعب الرعد . فعاد
الى مكانه قرب الشجر وقال لترولوس ، كيف يتسنى لك انقاذي ؟ فاجابه ،
وراء هذه الاشجار ساقية ماء يفضى منها الى خندق ، فاتبعني ، وسوف

تتخلص بسهولة من كل من يحاول اللحاق بنا ، وقد جئناك بسيف . فإذا
اجتزنا الفندق قصدنا باب سن انطوان وهناك خيلنا تنتظر لنهرب .

فلمعت عينا السجين من الامل بالنجاة . ثم غنم يقول ، ماذا افعل
بهذه القيود ؟ قال ، اليك مشارا اتيت به فإذا تمكنت من كسر احدي
حلقات قيودك قبل الوقت المحد لتزيتك عدنا اليك غدا .

وتأوله ترولوس مشارا جعله الفيكونت في رده . غير ان البابانفتح
وقتئذ وطلعت منه امرأة لابسة السواد فنهض السجين لاستقبالها ثم لما
عرفها سقط على مقعده يقول بصوت خافت : رباه هذه كاترين ! كاترين
هنا !

وغنم ترولوس يقول ، هذه هي ! . . واحر قلباه ، ما اجملها ! . .
فتقدمت الملكة يصحبها حاكم الباميل ، وكانت تقول له لقد فهمت
مرادي . اذا تقدم احد رجال البلاط وانا ههنا فلا تدعه يدخل . قال
سأصدر الاوامر بهذا الشأن .

ومضى حاكم الباميل والجنود معه ، فخلا المكان للملكة كاترين
وعتيقها القديم . ولم يتلفظ الفيكونت بكلمة لانه لم يدر معنى تلك
الزيارة . فكت متظرا سماع كلام الملكة فقالت له ، اكنتم تعد مؤامرة
على الملك ايها الفيكونت ؟

اجاب ، انا يا سيدتي ؟ اني لا ازال اجهل السبب الذي من اجله امر
الدوق دي جيز بالقبض عليّ .

قالت ، لقد امر بالقبض عليك لانك اعددت مؤامرة مع الامير .

اجاب ، ذلك مستحيل ، فاين البرهان ؟ . .

قالت ، البرهان كتاب منك .

قال ، مني انا ؟

اجابت ، نعم وجدوه مع رسول اسمه لاساج .
قال ، لت اعرف ذلك الرسول ، ولا يمكن ان يوجد معه كتاب مني .
قالت ، الا تزال ماهرا في المخادعة الا تذكر مضادتك اياي مع احدي
وصائمي ؟

قال ، من منا نحن الاثنين خادع الاخر ؟
قالت ، كمي ولا تهن والدة الملك !
اجاب ، اذن اخبريني لماذا اتيت تكدرين صفو وحدة السجين ؟
قالت ، انما اتيت لاراك . وهل تأل النساء عن الاسباب التي تدعو
الى تفكيرهن ؟ لقد خطر لي المجيء الى هنا فاثبت .

اجاب ، ما دام الامر كذلك فقد خطر لي الآن انك انت الآمرة باتشالي
من قصري وطرحي في هذا السجن الهائل .
قالت ، اقسم لك على ان ذلك لم يكن بامر مني يا شارتر .
ولكن كيف تمكن دي جيز من مطالعة رسالة لم اكتب منها شيئا .
— يا لك من غلام ساذج . الا تدري ان قراءتها ممكنة اذا غطت في
الماء العالي لانك كتبتها بحبر خاص .

قال ، وهل تكلم لاساج .
اجابت ، نعم بعد التعذيب .
قال ، كيف تمكن آل جيز ان يعرفوا ان الرسالة مني ؟
اجابت ، الا تذكر اياتا كت ارسلتها اليّ ايام كنت نهواني ؟ فهذه
الايات كت احملها على السدوام في كتاب للصلوات . قد اطلع عليها
الكردينال وعرف ناطمها . اذن تكون انت الخائن نفسك .
فانظما غضب الفيكونت لانه لا يستطيع ان يحقق على امرأة حرصت

على ايات كتبها اليها فنسي ما هو فيه وجعل ينظر الى كاترين فقالت له ،
ما بالك لا تجيب ؟ اجاب ، بماذا اجيب ايتها السيدة ، فقد صرت الى
السجن ولم يبق امامي الا ان اهلك ، وانا شريف ، قالت ، اتهلك انت وانا
نصيرتك ؟ قال ، انت نصيرتي ايتها السيدة ؟ قالت ابني بما تحويه تلك
الرسالة . اجاب ، ليس فيها الا مطاعن على آل جيز ، واطهار ولاء للأسرة
الملكة .

قالت ، وماذا كتبت فيها عني ؟ اجاب ، لا شيء . وهل اتجرأ على
الكتابة عنك في رسالة الى رجل اخر ؟ قالت اذن فليس فيها كلمة من شأنها
ان تفضخني ؟ اجاب ، ابدا . قالت ، واين الرسائل التي كتبها اليك قبلا ؟
قال ، بحقك لا تحرميني منها فهي كل تعزيتي الاخيرة .

فمدت الملكة يدها الى صدره الفيكونت شارتر واخرجت منها رزمة
عليها شريط من حرير فجعلتها في صدرها وكان يكي وهو صامت ثم قال ،
لماذا اخذتها مني ؟ قالت ، ان الدوق دي جيز عازم على استنطاقك وقد
يتجرأ على اخذ هذه الرسائل منك . اجاب ، ان رسائلك خالية من التوقيع .
قالت ، ان الدوق واخاه يعرفان خطي . فسادا يجري للملكة الوالدة اذا
حصلنا على برهان يؤكد لهما هفوتها . على انني سأنصرك في البلاط عند
الملك ، وقد تطول مدة اسرك لان ابني كاره لاميير كوندو وانت من اعوانه .
انما ثق بانه ما من احد يستطيع الفتك بك .

وقد تهل وجه كاترين منذ ما حصلت على رسائلها فنهضت وقالت ،
انا التي مكتك من التنزه في هذا الفناء . فاجابها ، شكرا لك ، وانما آمل
منك ان تسكنيني من التنزه خارج هذا السجن تحت سماء طوران .

فمظفت عليه الملكة ولشت جبينه وقالت ، اودعك ايها الحبيب . وكان
الفيكونت شارتر قليل الوثوق بالملكة فلم يشأ مخاطبتها عن فراره . فتركها

تمضي الا انها رجعت بعد دقيقة مستقمة اللون حنقا وحاكم الباستيل يتبعها وهي تقول ، ألم اقل لك لا يدخل احد الى هنا ؟ فاجابها ، لم يكن في امكاني ان ادع الدوق دي جيز واقفا عند الباب ...

فقال ترولوس والفيكونت شارتر معا : الدوق دي جيز ؟ فغمضت الملكة تقول ، رباه ماذا افعل الان .

فنهض الفيكونت واقترب من الملكة وقال لها ، انما يهمك ايتها السيدة ان لا يراك الدوق وهنا . اجابت بلا شك يا حبيبي والويل لي اذا رأيته .

وبقي حاكم السجن وراء الملكة بعيدا عنها قليلا وهو يحرك قبعة بيده حائرا فقال الفيكونت ، يوجد وسيلة يسيرة ، وهي ان يرجعني حاكم السجن الى سجنى سريعا فيتبعني الدوق اليه واذا ذاك يكتك الفرار .

قالت ، هذا هو الرأي الصواب . فاسرع يا سيو دي برسان (اسم حاكم السجن) وخذ السجن الى سجنه . ودبر كيف شئت كي لا يمر الدوق بالفناء . والا فويل لك مني !

فانحنى الحاكم وامسك يد الفيكونت ، فلما صار الى عتبة الباب اشار الى الملكة كي تختبئ وراء الاشجار .

فوثبت كاترين الى الموضع الذي كان مختبئا فيه ترولوس ولما رآته امامها بهت وارتفعت وقالت له ، من انت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ فاجابها انا رجل يهواك ايتها السيدة ويسوت فداك .

ولقد وصل الدوق الى القلعة ، وفي ليله استنطاق الفيكونت شارتر ، فابصر مركبة وخرما عند الباب الا انهم بملابس ليت ملابسهم ، اما المركبة فقد انتزع عنها الشعار الملكي ولكن الدوق عرف الخدم ، واحص باحدى الدسائس الخفية . فدخل القلعة واخذ يحقق النظر ويتفقد كل

مكان وكاترين واجفة القواد ، واقفة قرب ترولوس . أما هذا فكان
مسترسلا في لذة القرب من تلك الملكة غير مفكر في خطر موقعه . وكان
كل منهما ممسك انقاسه . وقد حاول الحاكم امساك الدوق غير ان هذا
وثب الى الفناء وسرح بصره في كل ناحية ثم عاد الى القلعة فانطبق الباب
وراهه ، فقالت كاترين ، لقد نجونا !! فقال ترولوس ، لقد وجب الرحيل
من هنا اتها السيدة .

قالت ، ويلاه وكيف ذلك وحرس الدوق عند الاسوار . وهل يمكن
الخروج من هنا دون ان يروني ؟ قال ايصعب عليك ان تجتازي خندقا ؟
اجابت كلا . قال ، اذن فاتبعيني . قالت ، الى اين ؟ .

فلم يجب ترولوس ، وخاف ان لا تكون الملكة قادرة على المرور مثله
في ذلك الخندق ، الا انه رآها تبتم وتثير الى حجر في زاوية ثم قالت
له ، ارفع هذا الحجر .

وذلك لان الملكة الوالدة كانت تعرف مخارج القلعة الرية التي لا
يعرفها الا اعضاء الاسرة الملكية . وذلك واحد منها . فرفع ترولوس
الحجر فابصر بابا امامه فقالت ، لدخل . ودخلا ثم اقفلا الباب بعد ان
ارجع ترولوس الحجر الى موضعه وسارا في ممر محفور في الجدار حتى
وصلا الى باب مشرف على الخندق ففتحه ترولوس بسهولة ، ونزل حتى
وصل الى قم الخندق ونادى جاليو فاقبل يقول ، اين الفيكوت شارتر ؟
فاجابه ، يستحيل انقاذه .

قال ، وكيف اتيت من هناك ؟

اجاب ، سوف تعرف ذلك . اما الان فلا بد من انقاذ الملكة كاترين .
قال ، الملكة ؟

اجاب نعم . فانزل الى الخندق ان الماء فيه قليل وفي وسعنا حمل الملكة

الى الضفة الاخرى . قال لم افهم شيئا .

فاجابه ، سوف تفهم كل شيء .

فاطاع جاليو وهو يظن ان رفيقه قد جن . اما مزغونة فحمل الملكة على ساعديه ، وساعده جاليو فنقلها الى الضفة الخندق دون ان تبذل ملابسها بالماء . اما جنود القلعة فقد هاج فضولهم قدوم الدوق الى الباستيل فلم يلتفتوا الى الاسوار . وهكذا اجتازت الملكة مع الرجلين ولم يجدوا في طريقهم الا حارسين من حرس الدوق ارادا ان يمنعاهم من السير . الا ان جاليو ومزغونة كانا اليهما اسرع من الصاعقة فطرحاهم قتيلين بضربتين من خنجرهما قبل ان يتمكنوا من استخدام سلاحهما .

وقال ترولوس وارضته للجنديين المسكينين . قالت ، ذلك ما كتب لهما . ولا يجب ان ييوجا بما علما .

ثم خرج الثلاثة من باب من انطوان فوصلوا الى الفندق اي الى موضع الخيول فقال جاليو ، الى اية جهة نقصد ؟ فاجابته الملكة ، الى فونتنبولو . فلما صاروا على مسافة من باريس قالت الملكة لهما : اخبراني الآن اي معجزة حصلتكما الى خندق الباستيل ؟

ولم يكن ترولوس قادرا على الجواب لانه كان في اشد حالة من الاتعالم فاجابها جاليو ، ذلك سر يا مولاتي . قالت اتكنم عني سرا الا انني واثقة من انكما كنتما تحاولان انتقاذ سجين . اجاب ، لست اريد ان اكذب يا سيدي . قالت ، وذلك السجين هو الفيكونت دي شارتر . فاجابها ، ربما كان ذلك يا مولاتي .

فاطرقت كاترين تفكر وقد ادركت انها بوجودها في السجن حالت دون نجاة ذلك الفيكونت السيء الحظ وانه بذل حريته فداء عن حريتها

فأثر فيها ذلك البرهان بمقدار ما يؤثر في تلك المرأة برهان مثله وهي لم تكن تهوى شيئا مثل القدرة والسلطان .

ثم قالت ، كيف قدمت الى هنا يا ميسو جاليو دي نرساك بعدما غادرتك متوجها الى غاسقونيا ؟

اجاب ، لقد رجعت يا سيدتي مع صديقي ترولوس كونت دي مزغونة ، وهو اشجع رجل في الدنيا ، وكاد يقتلني ليحصل مني على التصويرة التي اذنت لي باخذها منك .

فاصفر وجه ترولوس وقال ، هذا صحيح . فقالت كاترين ، وماذا جرى لرسالتي ؟ فاجابها ، لقد اوصلتها الى الامير . قالت ، ورسالة الآنة دي ليمول ؟ اجاب ، اوصلتها اليه كذلك . قالت ، ولماذا بقي الامير في غاسقونيا ؟ اجاب ، لانه في حاجة الى معرفة ما ينويه اشراف هذه البلاد قبل ان يدخل البلاط . قالت ، الاجل ذلك ارسل لاساج ؟ اجاب ، نعم . قالت ، وهو الذي ارسلكما لانقاذ الفيكونت دي شارتر من الباسيل ؟ اجاب ، نعم . قالت ، ان ابن عمي امير كوندة صديق وفي يا جاليو ، فتقدم وانظر لئلا يكون امامنا عدو ينوي قطع طريقنا .

فتقدم جاليو بجواده الى مافة مائتي خطوة ثم تركه يتمشى على مهل وهو يفكر في الحوادث التي قضت عليه بانقاذ الملكة كاترين بدلا من انقاذ الفيكونت شارتر . اما كاترين فاقبلت على الكونت دي مزغونة تنفوس في وجهه وقالت له ، اذكر انك طارحتني الحب منذ هنية ؟ فاجابها ، انني خاطبتك يا مولاتي بسا يطفح به فؤادي . قالت ، الا تحسب حسابا للخطر الذي يحيق بمن يهوى ملكة اذا لم يكن اميرا من سلالة الملوك ؟ فاجابها ، لست ابالي بالخطر والهلاك اذا مست وانا قادر على القول انني عشقت . نعم ، انا امراك ، ونحن الان وحدنا فلا مانع يسعني من مخاطبتك كما

اشتهي ، ولا حائل يحول دون ان ابثك سر فتواذي • ولوفه نهزئين بي
متى علمت كيف دخل هوالك فتواذي • لقد كانت مع جاليو تصويرة رايتها
... قالت كاترين انه اختلسها مني اختلاسا ... قال ، لقد اعجبني تلك
الصورة ورايتها جميلة ، بل اجمل من كل ما رأيت • فتعشقتك من مجرد
النظر الى الصورة ودون ان اعرف من انت • ولم ادر انها صورة الملكة
كاترين الا منذ ايام فقط • فبكيت يومئذ وكدت اموت ياأا وغما، وحسبت
نفي مجنونا لانني تعشقت ملكة يعجب بها ويعبها كل الناس • واذا بي
قد ابصرتك ، وخدمتك ، وكلمتك • آه يا سيدتي ، مريني بان اموت اذا
شئت • ولكن قل لي ان ليس في مخاطبتي اياك بهذا الكلام اساءة كبرى
وانك تصفحين عن اجرائي •

قالت ، اني احب كل فتى جرىء ايها الكونت •

وحشت كاترين جوادها فلحقت بجاليو وبقي ترولوس كالمجنون يقول
اني اسيرك ايتها الملكة واسيرك دائما ابدا !

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل السابع عشر

(العاشق الجديد)

قضى فرنسوا دي جيز ساعتين في الباستيل باحثا فيه عن الملكة الوالدة . وعظم استيائه وحنقه لما لم يجد لها اثرا . وجعل حاكم السجن يقسم انه لم ير امرأة دخلت الباستيل . اما الفيكونت دي شارتز فقد اهانته وقال له انت شريف غادر . فخط فرنسوا وامر بالتضييق على ذلك السجن . وفيما كان راجعا من القلعة قاصدا الى ناحية باب سن انطوان وقف امام جثتي الحارسين ، فامر بدفنهما . واتجه الى ذلك الباب فقبل له انه قد خرج منه منذ ثلاث ساعات رجلاان يصحبان امرأة لابسة ثيابا سوداء . فقال في نفسه ، هي الملكة ولا ريب ، فمن الذي اخرجها من الباستيل يا ترى ؟

ولكنه لم يهتد الى جواب على هذا السؤال فطأ طأ راسه وسار الى فوتنبلو وهو يعزي نفسه بقوله ، قد اقترب وقت اجتماع مجلس الاعيان ، وسأكون في المجتمع اليد الامر ولا يحسر امير كوندية على الحضور .

وسار في الطريق الذي سارت فيه الملكة الوالدة وجالو وترولسوس قبله بضع ساعات حتى وصل الى فوتنبلو ليلا فالتقى القصر غاصا باعيان البلاد ووجد اخاه الكردينال في غرفته يتمشى مضطربا فقال له ، ما بالك

يا اخي ؟ اني ارى على وجهك علامات الاضطراب . فاجابه ، اني شاهدت
موكب ابن عمنا مونسوراني فرأيت كبيرا وعدد رجاله يفوق الحصر ،
وكانما اراد به نكائنا واذلالنا . قال ، ألم تأمر جيوشنا بالالوية الى
فونتبلو ؟

اجاب ، نعم ، ولكن كان قد مضى الوقت ، لان موكب مونسوراني
وصل اولاً واتخذ له مواقف ومحطات على ابواب المدينة ، واصبح متلحفاً
على طريق باريس .

قال ، وهل من شاغل آخر يشغل فكرك ؟
اجاب نعم ، فان مونسوراني قابل الملكة الوالدة مقابلة دامت وقتاً
طويلاً .

قال ، يا له من شيخ محتال .
قال ، هل من نبأ عن امير كوندو ؟
اجاب لست اعلمه يأتي ولا يأتي اخوه ، لان رسائل الدعوة لم ترسل
اليهما الا متأخرة .

قال ، لعلك مخطيء في ذلك .
قال ما معنى هذا الكلام ؟
اجاب الا تذكر وصيف امير كوندو ذلك الفتى المحتال المدعو جاليو
دي نرساك ؟

— نعم ، وهو الذي كنت قبضت عليه ...
— وفر في ارتناي .
— لقد صادفته الليلة يمشي في زقاق ضيق ويرجع عندي انه ارسله
الى هنا جاسوساً ، ولعله لاحق به .
قال الدوق ، دعنا منه . اما من مشاغل اخر يشغل ذهنك يا اخي ؟ فتنهد

الكردينال وقال ، لعلك تروم التكلم عن الملكة الوالدة .

واصفر وجهه ثم قال ، هنالك الخطر الحقيقي يا فرنسوا ، فان هذه المرأة تروم ان تمتع بنا وتطردنا من البلاط . وقد مضى يومان لم يرها فيهما احد ههنا . وقال نائوها انها مشغولة بالصلوة . فحاولت اليوم الدخول عليها من الممر السري فوجدته لاول مرة مقفلا . فلما كان الماء نكرمت بقبولي زائرا بعد مونموراني ، فابصرت في مخدعها ثوبا وحذاءين والعباءة يعلوها وكأني بها قد وصلت من ...

قال الدوق ، من باريس ولا شك .

قال الكردينال ، وماذا فعلت فيها ؟ اجاب الا تدري ؟ انها ذهبت لعقد مؤامرة مع القيكونت دي شارتر ، وهي التي اشارت بطرحه في الباستيل .

قال ، هل زارت الباستيل ؟

اجاب ، بل زارت القيكونت فيه ، وتكنت على الرغم من كل تدبير دبرته من التخلص مني دون القاها .

قال الكردينال ، وماذا قال لك شارتر ؟

— لقد ارتاب بي ، فامرت بالتضييق عليه وطرحه في سجن اشد رطوبة من سجنه الاول .

قال الكردينال ، احسنت بذلك يا اخي فانتني اشد الناس بغضا لمن احبهم ... وهل تظن الان انها لا تذكر ودادي ؟ اسمع ما قالته لسي يا اخي . قالت « ان الكنيسة تحظر عليك ايها الكردينال ان تفازل امرأة » ... اواد ، لقد تمنيت ان تنقاد اليّ بالياسة او بالطمع اكر من ذي قبل ، ولئن امتنعت عني فلا اريد ان تميل الى غيري .

قال الدوق ، من ذا يتجرأ على حبها ؟

اجاب ، لا ادري . ولكن هل تذكر يا اخي كيف كانت تلمع عيناها
فرحا يوم كانت تهوى شارتر اللعين ، واي اضطراب كان في صوتها ؟ .
فقد لاحظتها اليوم يا فرنسوا ، فهي عاشقة ، وعاشقة غيري . . .

فاجابه الدوق ، اذن سوف تقتل عشيقها الجديد ، اذ لا بد من ان
تكون لك وحدك دون سواك .

ثم ان الدوق ذهب فتفقد مواقف الجند والحراس الذين اقامهم على
حراسة الملك بعد حادثة امبواز . وفيما هو عائد الى مخدعه لقت بصره
رجلان رآهما كأنهما يتخاصمان عند القصر فدنا واختبأ وراء شجرة وانصت
اليهما . فقال احدهما ، الا تأتي معي ؟ فاجابه الاخر ، دعني ، دعني انظر
الى النافذة . قال ، الا تأتي ، الا تنتهي من هذا الجنون ؟ ام تروم نبي ان
اتخذ الساء غطاء والثرى وطاء .

تظاهر المتكلم بانه يتمدد على الثرى فاجابه رفيقه ، صبرا فانها
اقتربت الى نافذتها وفتحتها ، وتيزت وجهها . وقد اشرق عليه ضياء
الكواكب .

وكان الدوق يرقب الحركات ويسمع الحديث . فلما رأى الشاب يمد
يده الى النافذة رفع بصره فعرف نافذة الملكة . فقال في نفسه : ان اخي
على صواب وهذا الشاب حسن المنظر . الا انه ، من سوء حظه ، لم يستطع
ان يرى وجهه لانه كان محجوبا بردائه . فلما سار مع صديقه حاول اللحاق
به ، الا ان الشابين اختفا في زقاق ضيق فرأى من الحكمة ان يرجع عنهما .

الفصل الثامن عشر

(مجلس الاعيان)

في اليوم العشرين من شهر اغسطس (آب) سنة ١٥٦٠ اجتمع اعضاء مجلس الاعيان من اطراف البلاد الفرساوية وسائر انحاءها في قصر فورتنبلو ، وكان معظمهم وقوقا . واقبل مونموراني في مقدمة جمهور غفير من رجاله ، وكان الملك ينتظره مع الملكتين في حجرته . فمثل بحضرته وقال ، لقد جئت ايها الملك صادعا بامررك . فاجابه ، لقد سرتني ان اراك بيننا لانك تفارقنا كثيرا ، ولاننا في حاجة الى آرائك ، ولكن لا ادري لماذا يقل وجودك معنا ، فهل تحسب نفسك آتيا الى بلاط عدو ؟ ان حرمك الكثير يعدل حربي انا .

فاجابه ، ان رجالي ايها الملك رجالك وكلهم مخلص صادق يتبنى الدفاع عنك والموت لاجلك . قال ، لعلنا نحتاج اليهم ، فان اعداءنا وقطاء يزداد اجتراضهم علينا كل يوم . والآن هيا بنا الى المجلس !

وبعد مية دخل الملك مجلس الاعيان وتبعته الملكتان ماري وكاترين ، ووراءهما شقيقا الملك . وآل يوربون ولورين ، والدوق دي جيز واخوه

وغيرهم ممن يضيق المقام عن ايراد اسمائهم . فتكلم الملك قائلاً : لقد جمعناكم ايها الادة للمفاوضة في شؤون مملكتنا ، وتروم ان يتكلم كل منكم بنزاهة ضمير . وقد تلقينا ملتمسا من الميودي شاتيليون سوف تسمعون نصه .

ثم التفت الملك الى الاميرال دي شاتيليون وقال ، تكلم .

فنظر الدوق دي جيز واخوه الكردينال كل منهما الى الآخر لانهما كانا ينتظران ان يكونا البادئين بالتكلم في ذلك المحفل . ونظر الكردينال الى وجه كاترين ليطلع فيه ما يخامر نفسه ، فراها تبسم كأنها غير مكترثة لما امامها . واما الملكة ماري فظنت ان ذلك المجلس السياسي تطول مدة انعقاده ، وان ما يقال فيه سئل فكان السأم ظاهرا على ملامحها .

ووقف الاميرال دي شاتيليون ، وهو من انصار المذهب الكاثوليكي فقال ، ان اصل الاضطرابات ناجم عن التعصب والاضطهاد الديني ، وان المضطهدين (بفتح الهاء) سلموه ملتمسا لجلالة الملك ليس عليه توقيع ، ولكن خمسين الف نورماندي قد يوقعون عليه عند الحاجة ، ومؤداء وجوب اجتناب الوشائيات التي يرمي بها ابناء المذهب البروتستانتى . فهو يطلب الى الملك والمجلس ان يختصروهم بسواضع وهاكل يمكن فيها اللقاء النوعظ علنا وبباشرة الشؤون المتعلقة بمذهبهم وعبادتهم .

ثم نهض اخر فشه الدولة بعليل لا يمكن شفاؤه الا بتشخيص علته ، فنهض الدوق فقال ، انه مستعد لتقديم حساب عن ادارة الحرية والجيش . وقال الكردينال . انه يؤدي حسابا عن المالية لانه ناظرها ، واعلن ان النفقات تزيد مليونين وخمسمائة الف ليرة عن ايرادات البلاد . ثم تكلم كثيرون وتفرقوا وفي يد كل منهم مذكرة للمواد التي يشاور فيها الملك . وكان موعد انعقاد المجلس الثاني في اليوم الثالث والعشرين من ذلك

الشهر . وخرج الملك مع الملكتين ، واستصحب المسيو مونموراني . وكان معنى ذلك ، عند الدوق واخيه ، انحراف الملك عنهما وقرب زوال حظوتهما عنده . فقال الكردينال ، اذا عرفنا كيف تتصرف كانت النتيجة حميدة لنا . فاجابه الدوق ، لا جرم ان الضربة آتية من ناحية الملكة . قال الكردينال ، بلا شك !

وفي ذلك المساء اقيمت حفلة راقصة ، وكان الدوق يراقب فيها كاترين فرآها تجتبه . فتمتم الكلام قائلا ، حذار ايته الملكة العظيمة فان عينيك تلمعان لمعانا كثيرا ، فويل لك اذا جاء عشيقك الليلة فرقف تحت نافذتك ! ولما انتصف الليل اطفئت انوار القصر وسكنت حركة المدينة ، الا ان الانوار لم تنطفئ في المدينة كلها ولا سكنت الحركة في كل مكان ، فقد رقد فرنوا الثاني وزوجته رقاد عاشقين في اول عهد هراهما ، ولكن الملكة الوالدة لم تنم ، وكذلك الدوق واخوه الكردينال . ونام زوج مارسلين ، اما هي فلم تنم ، بل كانت ساهرة الى جانب نافذتها والسماء صافية والكواكب طالعة ، والشذا يتضوع في الهواء ، وقد هبت نسائمه من ناحية الغابات فحملت ما في ازهارها من طيب ، والبلابل تغرد ، ومارسلين معجبة بما في تلك الليلة من دواعي السرور ، غير انها آمنة على فراق حبيها .

وفيما هي كذلك كان ترولوس وجالو يترقان الخطى في طريقهما الى القصر . الاول يأمل ان تطل حبيته الملكة من نافذتها ، والثاني يرجو ان يرى مارسلين ، ويقول في نفسه ، سوف اتغنى تحت نوافذ القصر فتعرف صوتي . فلما صارا الى المكان المقصود جملا يتمشيان تحت النوافذ التي ظلت مغلقة حتى تولاهما الضجر . فقال ترولوس ، لقد ذهب سمينا ضياعا !

قال جالو ، ما رأيك فيما اذا دعوناها ؟ فقال ترولوس ، ويك ! هل جنت ؟ فاجابه ، كلا يا عزيزي ، غير ان النساء ما يرحن يعشقن الغناء ،

وصوتي رنان رخيم ، وقد تلقيت الثمن عن اتاذي الخير ، فدعني اقلد
البلابل او اسكتها . ولئن سمعتي مارسلين قوف ترى عجا . سوف تفتح
النافذة ثم تظهر الملكة وتطرح اليك سلما من جبال فتساق عليه ، واما انا
فامضي طروبا راضيا بفوزك .

واحس ترولوس يخطى قرية فقال ، يوجد هنا من يرصدنا . فاجابه
جاليو ، لا !

قال ، بل هناك مختبئون كامنون لنا . . .

قال ، ويل لمن يتعرض لنا .

قال ترولوس ، بل تعال نرجع .

اجاب جاليو ، هيهات ، فلا ارجع دون ان ارى . . .

وكان جاليو يحمل مصباحا سريا فوجه نوره الى الجهة التي اشار اليها
صديقه فلما لم ير احدا قال له ، دعني اغني . قال ترولوس ، بل سر بنا
وغدا نعود .

قال جاليو ، أأسير ولا اتعرض لثل هذه العارضة ؟

ورفع جاليو عقيرته ^(١) فاخذ يشغى بشعر مدة خمس دقائق حتى
انفتحت نافذة الملكة ، فسكت المغني وقال لترولوس ، تقدم لاخيتي . انا ،
ولك ان تقول انك انت المغني !

ثم ظهرت امرأة في النافذة واحتجبت في الحال . فارتعد الرجلان .
وكانت مدام مارسلين ساكنة في طبقة تحت الطبقة التي تسكن فيها الملكة
فلما سمعت صوت جاليو اطلت كذلك وتراجعت بعد ان صاحت صيحة
ذعر وارتياح . فقال الرجلان ، يا للفدر ، واقتربا الى خندق هناك . وكانت

(١) العقيرة صوت المغني .

الجهة الثانية المعارضة من الطريق غامة بضعة رجال شاهرين سيوفهم واقفين يمنة ويسرة في عرض الطريق يمنعون المرور .

فتفقد جاليو غدارتيه ، ثم جرد سيفه وقال لترولوس ، اقبل فعلي ودعني ادير القتال . وارتعد ترولوس خوفا من ان يكون قد فضح الملكة بجراته فلم يشته الا ان يجرح جرحا عريضا وينطرح في الخندق . اما جاليو فانه حيا لخصامه ممازحا ، داعيا لهم بالطرب والجور ثم قال ، ماذا تريدون ايها السادة ؟ فقال له واحد منهم بصوت خشن ، سلما سيفيكما !

فاجابه جاليو ، اعلم يا مولاي ان سيفي رفيق لي قديم فلا استطيع مفارقتة . قال الرجل ، يا لك من ثرثار ، اذن فسوف تأخذه منك رغما عنك .

وتقدم الرجل فالتقى جاليو نظرة سريعة الى ما ورائه فابصر شجرة عند ضفة الخندق اغصانها منحنية على جدار القصر فقال لرفيقه ، الزم ساق الشجرة فلا نجاة لنا الا من هناك .

ودنا رجل من الرجلين ، وقال قائل ، اتلما والا فاتتما هالكان . فقال جاليو ، اني اعرف هذا الصوت ، وقد سمعته في وسط معصمة ، وما هو بصوت برداليان ولكنه صوت الدوق دي جيز . . . ومن هذا الرجل اللابس ثياب الرهبان ؟ لا شك انه أخوه الكردينال . اذن فلا يغض شرفي ان اقاتلها بسيفي لانهما من اندادي .

وقد فكر في التخلص من شر اعدائه واشدهم اذية ، اي حملة البنادق ، وكانوا ينتظرون امرا لاطلاق النار . ورأى الدوق دي جيز ان يقبض على الرجلين دون ان يقتلا . فهمس جاليو في اذن رفيقه يقول ، اطلق النار على حملة البنادق ! فدوى صوت اربع طلقات فسقط اربعة رجال من حملة البنادق وبقي واحد ، فصاح به الدوق ، ويلك اطلق النار !! الا ان جاليو

كان قد تمشى اليه وطلعه بسيفه وعاد في اسرع من لحظة الى مكانه قرب
ترولوس ، ولم يبق امامه الا خطوة توصله الى الشجرة . فتناول الحراس
بنادق الرجال الذين سقطوا صرعى وقصدوا الزناد لاشعال فتيلها . ومعلوم
ان موقف الجنود بازاء الاشراف محفوف بالخطر اذ كانوا يلحونهم ولا
يأذنون لهم باستخدام سلاحهم دون امر ، ولذلك كانوا يقتلون قبل ان
يتلقوا الامر وقبل ان يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم .

وهاج حلق الدوق دي جيز لفشله الوقتي فوثب على جاليو وهو
يصيح ، هذا دي سنزاك من رجال ابن عمي كوند ، ونحن قابضون عليه
هذه المرة لا محالة : فقال له جاليو ، اتظن ذلك يا مولاي ؟ فاجابه ، بلا
شك ! فلم سلاحك والا امرنا بقتلك . قال اني افضل القتال بالسيف .

وسمعت مارسلين وهي في حجرتها اسم دي سنزاك فاكبرت الامر
واشغقت ان يقتل حبيبها تحت نافذتها ففكرت في انقاذه وادخاله القصر .
وبعد ان تحققت ان زوجها متفرق في النوم خرجت من حجرتها وهي
حائرة ، فنزلت في السلم ووقفت مضضعة الحواس ، واذا بالمرأة واقفة
امامها تقول لها ، الى اين ؟ اجابت ، لست ادري . قالت المرأة ، ان رحى
القتال دائرة امام القصر فهل لك صديق بين المقاتلين ؟ قولي ولا تكذبيني
فالوقت اضيق من ان يتسع الجدل . اجابت نعم . قالت ، من صديقك ؟
اجابت ، هو جاليو دي ستراك .

فتهدت المرأة وقالت ، ان بعض المصالح السياسية تقضي عليّ بالدفاع
عن الرجلين فاروم انقاذه . الا انني ملكة فلا يعني ان افضح نفسي فاليك
سلما من حبال ، اطرحيه من النافذة التي فوق سلم القصر ليصره الرجلان
ويجتازا الخندق اليه ثم يتسلقان عليه وتنقذهما . فهيا واسرعي !

فتاولت مارسلين رزمة الحبال وبادرت الى النافذة التي اشارت اليها

الملكة كاترين وعقدت طرفي السلم في قضبان النافذة ، وقبل ان تطرحه نظرت نظرة الى من تحتها فاذا بها ترى رجال الدوق يتراكمون اليه وقد جردوا سيوفهم ، ووقف جاليو امامهم يدفعهم عنه بسيفه . واراد ترولوس مساعدته الا ان جاليو قال له اصعد الى الشجرة واستخدم العدارتين .

وكان بين رجال الدوق جاسوسه جانليس وهو من الماهرين بضرب السيف ، فلاحق جاليو وضايقه ، فاطلق ترولوس النار عليه فرماه جريحا . فقال جاليو ، عافاك الله يا اخي !!

ولقد فرق الطلق الناري المهاجمين . واعتصم ترولوس بالشجرة بعيدا عن سيوف الرجال ، وطلب من جاليو غدراته ليحشوها وهو في موقفه العالي . وسمعه الدوق فقال ، لله در هذين البطلين !!

وكان جاليو قد انتهز فرصة من اضطراب المهاجمين فاستند الى الشجرة ، وادرك ترولوس مراده فامسكه من كتفيه فرفعه اليه فكانا كلاهما بين الاوراق .

فرقى الدوق واخوه زعقات المجانين من شدة الحق لانهما ، وهما اميران عظيمان مصحوبان بعدد من الجند ، قد هاجما رجلين على حين غرة ولم يفلحا ، ولم يفلح الذين حملوا البنادق ، لان الرجلين كانا محتجبين بورق الشجرة والرصاص يتطاير منها فيطرحهم قتلى . اما سائر الرجال فكانوا يقاتلون بسيوفهم ولم يكونوا يحملون غيرها . وسيف جاليو اطول واقتل لانه يصيب به المقاتل من مكان مرتفع . فقال الدوق ، لم يبق سبل لنجاتهما الا بالخنق والجدار فهما اسيران فليذهب احد منكم وليرجع بالرجال . فقال ترولوس لجاليو ، والان كيف نصنع ؟ قال ، هات العدارتين ، ووثب الى الضفة الاخرى .

فوثب ترولوس الى لان ضيق من الارض عند اسفل الجدار وكان

ذلك عندما عقدت مارسلين السلم بالنافذة ولم يلتفت المهاجمون الى ما جرى امامهم ، وقد بهتوا من جرأة ترولوس ، فلم يدر في خلدهم ان الوثوب من الشجرة الى الارض امر ممكن . واذا بجاليو قد نزل وصار الى جانب صديقه شاهر غدارته وقال ، اذا تقدم اليّ احد ايها الدوق فهو هالك لا محالة ، ولئن حاولتم هجوما علينا تلقيناكم باليف ، ثم خفض صوته وقال ، ما هذا ؟

وقد احس بشيء على رأسه فقال ، هذا سلم ، فاصعد يا ترولوس . قال من اين لنا هذا السلم ؟ قال ، اصعد ولا تسأل . وكان ترولوس قد صعد حتى بلغ الطبقة الاولى بأسرع من رد الطرف . وسدد اليه احد الرماة رصاصة فلم يمهله جاليو بل اطلق على الرجل غدارته فرماه صريعا . فقال الدوق يا لك من غلام زنيه فلا بد من قتلك عند صعودك اذ تعجز عن استخدام سلاحك وانت صاعد والظاهر ان ترولوس ادرك ما يجول في ذهن الدوق فنزل سريعا وطلب الغدارتين من جاليو وقال له ، سوف ادافع عنك عند صعودك . فصاح الدوق ، اين الرجال ؟ ان هذين الشقيين يوشكان ان يتخلصا منا . ولكن في اي مكان عقد هذا السلم ؟ . ما اراه من غرفة الملكة ؟ فمن يتجرأ على حياية الشقيين ؟

وكان ترولوس في اثناء ذلك قد وصل الى النافذة ونزل منها الى الرواق في داخل القصر فلم يكلم الملكة ولا مارسلين وكاتتا امامه بل اطل من النافذة ورفع صوته وقال ، تعال يا صديقي ولا تخف ، فعندي غدارتان كافيتان لقتل من يسدد المرمى اليك .

وصعد جاليو عاجلا ثم سحب السلم . وفيما كان الصديقان يشكران الملكة وهي تفكر في اتمام نجاتهما افتتحت حجرة المحامي افيل زوج مارسلين ولم ير في بدء الامر الا زوجته فقال ، ماذا اتى بك الى هنا ؟ قالت

لقد راغني دوي البنادق . قال من هذان الرجلان ، ومن هذه المرأة ؟

ثم وقف مرتاعا من جرأته وكانت الغيرة قد حملته عليها فقال ما قال ، لكنه لما عرف الملكة اعترته هزة ، فدنّت منه وقالت له ، اعلم ايها المحامي انك لم تر ولم تسمع شيئا في هذه الليلة ، وانك تجهل وجود رجلين ههنا معي . واذا سئلت فقل انك لم تفارق مخدعك . تلك ارادتي فاذهب . قال ، اقسم لك يا ذات الجلالة على انني سأنسى كل هذا ! . اجابت ، لست في حاجة الى قسمك ، فعد مع زوجتك ، وهي صديقتنا وسوف تذكرها دائما . واذا ذلك ارتفعت الاصوات وافتحت الابواب فعلت الملكة ان الدوق آت مع رجاله يبحث عن الشابين فقالت لهما اتبعاني الى غرفتي . قبالا شكرا لك .

ومرت بسلم سري فوصلت الى غرفتها وخبأت ترولوس وجاليو في مخدع لا منفذ له الا من قرب سريرها . وقالت لهما ، البثا ههنا ومعهما تسما لا تأتيا بادنى حركة .

وظل الدوق في بحثه ، واقام اعوانه في الدهاليز والمآثي . ثم صعد الى النافذة التي كان فيها سلم الحبال معلقا وكانت لا تزال مفتوحة . وبعد هنية امتلأ الرواق بالاشراف والسيدات وفتح المحامي اقبل وزوجه باب حجرتهما وتقدما يسحان اعينهما . فقال الدوق للمحامي ، ان نافذة حجرتك قريبة الى هذه النافذة لم تسمع شيئا ، قال ، متى ؟ اجاب منذ هنية . قال ، كأنني سمعت ضجة عند اسفل القصر فظننت ان بعض الجنود سكروا قال لست اتكلم عما جرى في اسفل القصر ، ولكن عما جرى هنا . . . قال هنا . . . اين ؟ . . . فقال الدوق ، في هذا الرواق ؟ اجاب اتمرح يا مولاي ؟ قال لقد دخل القصر رجلان من هذه النافذة . قال لم ار ولم اسمع . فهدر الدوق ودمدم وقال ، تالله لاقتشن القصر حتى اجد الشقين .

ونزل الدوق واقبل الاشراف رجال الملك والملكة يألونه عن معنى تلك الضوضاء . واستيقظ الملك بغتة فاخذ القلق ، واستعلم فقال الدوق ، اجيبوه بأنه لم يحدث امر ذو شأن ، سوى مشاجرة بين الحراس . ثم قصد إلى حجرة الملكة الوالدة يصحبه الكردينال فتلقتهما كاترين وهي بلباس النوم وقالت ، بحقكما ازيلا ما خأمرني من الازعاج ، ماذا جرى ؟ فقد قيل لي ان الميوس جانليس جريح ؟ اجاب الدوق ، نعم جرحه صديق لايين عمك اللعين دي كوندو . قالت ، من ذاك ؟ اجاب ، هو المدعو دي سزاك ، وهو الذي انقذته قبالا من عذاب الاستنطاق . قالت ، تبأله ، ألم يزدجر ؟ اجاب ، انه لا يزدجر ، ولا يؤخذ . وقد افلت الليلة منا كما افلت صديقه مستعينين بسلم من حبال طرحته اليهما امرأة من القصر . قالت يا لله !! لا جرم ان احدى وصائفي تهوى ذلك الوصيف دي سزاك . اذن لا يحق لك ايها الدوق ان تشكو اذا كانت صاحبة الحيلة امرأة . قال ، لا بد من القبض على الثقلين . اجابت ، ارجو ذلك ، ولكن كيف كتما خارج القصر في مثل هذه الساعة ؟

فارتبك الدوق لهذا السؤال واجاب ، لقد كنا في خدمة الملك . قالت ، كانكما من الحراس ؟ فانعم بكما من خادمين مخلصين .

فخجل الاخوان ، وقالت الملكة ، الشيء بالشيء يذكر ، لقد تلقيت نبأ جديدا عن امير كوندو وهو من تكرهانه . قال الاخوان ، احقا انك تلقيت نبأ عنه ، وماذا يقول ؟ اجابت ، ان رسالته مكتوبة من زمن ، ولم تصلني الا في هذه الليلة ، سلمني اياها شريف وصل من غاسقونيا ، وسوف اعرفكما به غدا وهو شاب لطيف المنظر . والان اودعكما وارجو لكما ليلة سعيدة .

فانطلقا ، واستمر ذلك البحث وقتا طويلا دون فائدة . ثم سادت الكينة على القصر .

الفصل التاسع عشر

(فرنسوا الثاني)

لقد علم القراء في الفصل السابق بما كان من فشل الدوق دي جيسز
واخيه الكردينال ليلة نجا منهما جاليو دي نرسالك وصديقه ترولومس بعناية
الملكة كاترين دي مديس .

واشتغل قصر فوتنبلو بالحديث عنهما في صباح اليوم التالي ، فكان
الكل معجبين بجرأة ذيك الرجلين اللذين قاوما الدوق دي جيز تلك
المقاومة وتخلصا منه بمعونة امرأة من ناء القصر . وشكا الملك الى والدته
من سوء سيرة وصائفها فدافعت عنهن وقالت انهن اجدر بالشفقة . ثم
غيرت موضوع الحديث .

فلما اتتصف النهار اظهرت رغبها في التنزه ، وكان الكردينال يرصدها
ويرقبها وقد جاء الى البلاط بحجة التسليم عليها . فرأى بين الاشراف الذين
يسعونها شابا جديدا لابا ثيابا قائمة اللون رافع رأسه تها على الاقران ،
فقال في نفسه :

هذا وجه لم اعرفه قبلا ولعله الرسول العثقوني الذي اشارت اليه

كاترين في حديثها امس . ثم قال للملكة ، هل استرحت ايتها السيدة من
متاعب الليلة البارحة ؟

فاجابته ، نعم ايها الكردينال .

قال ، لعل هذا الشريف رسول ابن عمي امير كوندة ؟ واثار الى
ترولوس . فاجابته ، نعم يا عزيزي الكردينال وهو كما تراه فتى من خيرة
الفتيان ادبا وبسالة وكمالا .

قال ، انه يكفي ان يكون من ذويك ، ايتها الملكة .

قالت ، اسمه ترولوس كونت دي مزغونة ، ولئن رأى اخوك احدى
الفرق في حاجة الى قائد ، فهذا الكونت يعجبه . فكن نعم الوسيلة لديه .
قال ، سأفعل يا سيدتي . ثم حياها وابتعد وهو متمض يقول في
نفسه ، أياكون ترولوس هذا بطل الليلة السالفة ؟ وهل اتى من غاسقونيا
حقا ، وهل تهواه الملكة الوالدة ؟

وكان الكردينال على علم باخلاق كاترين دي مديس وتماديها في
الهوى فقال ، ربما احبت هذا الكونت واتخذته نديما لها وحظى عندها .
ولكن اتراه ذا مطامع ؟ تلك اسئلة مرت في ذهنه أنها اسرار معقدة .

ولو سأل كاترين نفسها عنها لما قدرت على جواب . وربما استمالها
الى الشاب ما رأت من يسائه واقدامه . وقد عرفت له الجيل لانه حاول
التقرب اليها بوسيلة غير الوسائل التي تتخذ في البلاط ، واحست بشيء من
الاضطراب لما تأملت نظراته العميقة ورأته يختلف عن سائر الشبان الظرفاء
الذين يلامفونها كملكة لا كأمرأة حية .

ولما خرج الدوق دي جيز بالامس من غرفتها فتحت باب المخدع الذي
حبست فيه الصديقين ، وكان جاليو يصارع الناس ، اما ترولوس فكاد

يجن سرورا فوثب وجثا امام الملكة ولثم يديها فقالت له ، يا لك من فتى
جاهل ، اتخاطر بحياتك هذه المخاطرة ؟...

فاجابها ، انما خاطرت بها لاجلك يا سيدتي .

قالت ، ولقد كدت تقتل .

اجاب ، لو قتلت لعددت نفسي سعيدا اذ اكون قد قضيت وانت نافرة
الي .

قالت ، اذن انت تهواني قليلا .

قال أتسأليني عما اذا كنت اهوأك آه لست ادري يا سيدتي كيف
أبوح لك بما في قلبي ، وانما اقول انني عبدك وان حياتي لك تفعلين بها ما
تشائين . مري بسوتي امت طاعة لك .



وانعقد مجلس الاعيان مرة ثانية بعد يومين لم يحدث فيها اقل تغيير .
وقتل الملك يظهر كل الميل الى مونسوراني . فكان آل جيز يضربون اخصاسا
باسداس ويعدون المعدات . فلما انعقدت الجلسة في اليوم الثالث والعشرين
من شهر ابريل (نيسان) امر الملك اسقف فالانس بالكلام ، فقام واوسع
ابناء المذهب الجديد (البروتستانت) طعنا ، وامتدح آل جيز ، وتشاءم من
الحالة الحاضرة ، واثار على الملك بان يقتدي بدادو النبي والملك الذي
نصر دينه واذل الاديان الاخرى ، ثم طلب الى الملكين ان يرددا مزامير
داود في صلاتهما . واطال في هذا الموضوع . ثم نهض اسقف بروتستانتني
آخر فدافع عن ابناء شيعته وطلب لهم الرفق ، وتلاه مونسوراني فخطب
بقوله ، من الخطر ان يتخذ الملك هذا الجهم الغفير من الحراس . ولا فائدة
منهم الا انهم يحدثون ارتباكاً ، ويتطلب وجودهم نفقات كبيرة فان الملك

محبوب من رعاياه وهو ليس بحاجة الى جيش من الحراس وحاشية لا يحصى عددها .

وكان هذا الكلام اثبه بشكوى من الدوق دي جيز فنهض الدوق وصاح بحدة : لقد تبين يا مسيو دي مونمورانسي انك لم تشهد مؤامرة امبواز ، فان الرعايا الامناء اتوا يومئذ مدججين باللاح بحجة انهم يرومون ان يرفعوا ملتمسا الى الملك . ومنذ ذلك اليوم اضطررنا الى اقامة هذا العدد الكبير من الرجال لحراسة الملك وهو ما تلونا عليه الان . وما لا جدال فيه ان الملك يحتاج الى خدم صالحين وجنود بواصل ، وهو قادر على استخدام الجيوش . ولئن قدرت على ان تضم الى صوتك اصوات خمسين الفا فلا يصعب على الملك ان يجد مليوناً من رعاياه الامناء يوافقونه ويخالفونك في ما تروم . وكل ما يريده جلالة الملك مقبول لدينا . اما رأيي في مذهبك الجديد فلا يتحول ولا يتبدل . اني اعتبره كارثة مشؤومة على فرنسا .

وكان صوت الدوق عاليا خشنا ، وكلامه قاسيا ، فاهتز الحضور خوفا من شر العاقبة . ولم يتمالك مونمورانسي والبروتانتيون ان رفعوا الايدي وقال مونمورانسي ، ما العمل بهذا التعصب الذميم !

واذ ذاك اقترح الكردينال شقيق الدوق دي جيز جمع حكام الولايات وترك كل عمل موقوفا الى حين اجتماعهم ، وقال ان الملك يحق له وحده ان ينظر في ما يختص بالامن العام .

فصاح مونمورانسي ، هذا اقتراح خال من العدالة لانه يسلمنا الى ايدي الحكام واكثرهم اعداؤنا .

فقال الملك ، هل نسيت ان للملك وحده الحق في حفظ الارواح

اجاب ، لماذا تن القوانين ايها الملك ضد البروتستانت ، وهم قوم مسالمون مخلصون الى الهدوء والسكينة ، ولا امنية لهم الا ممارسة شؤونهم الدينية ، وليس فيها اضرار باحد .

وفيما كان مونموراني يتكلم بهذا الكلام دخل قاعة المجلس شريف يكاد يحجبه العرق والغبار وطلب مخاطبة الدوق دي جيز او مقابلة اخيه الكردينال ، فخرج الاخوان ، وبعد هنيئة رجعا وكل منهما مكفهر الوجه فقال الملك للدوق ، ما وراءك يا عمه ؟

فاجابه ، ان اعدائك ايها الملك لا يفتأون يحون سعيهم ضدك .
قال ، ما معنى هذا الكلام ؟

— لقد حاولوا اليوم ما هو شر من حادثة امبواز ... ولكنني لا
استطيع التكلم هنا ...
— بل تكلم !

— لت اعلم ايها الملك ان اعداءنا سيحبون كلامي اقراء ؟ ان لمذهب البروتستانت المخيف اعوانا ونصراء قادين . وكم من مغرور يود ان يقتادك ايها الملك الى طريق الرفق والرحمة في حين ان الضرورة تقضي باستخدام العنف والقوة .

— زدنا ايضا ايها الدوق !

وكان اكثر الحضور قد نهضوا يتسلمون ضجرا . وجعل مونموراني يده على قبضة سيفه ولبت القوم منتظرين ما يكون . وشرع الدوق يفض رسائل عديدة بين يدي الملك وفيها ان البروتستانت في جهات متعددة قد ثاروا وحاولوا مهاجمة مدينة ليون واستفزاز المدن المجاورة . وان املاك البابا في بعض هذه النواحي قد هدمت ...

فصاح الملك ، ما بال هؤلاء البروتستانت لا يرفعون ؟ فهم يرفعون
الاستيلاء على مدينة ليون بينما نحن نبحث في الملتبس الذي رفعوه إلينا
على يد مونسوراني .

ثم امر حاكم ليون ، وكان حاضرا تلك الجلسة ، ان يعود الى تلك
المدينة عاجلا . فاجابه انه يسافر في ذلك المساء .

فقال له ، اذهب واعضد السلطة الملكية . وقد اذنت لك بفتح المدن
والقصور بالمندافع ، واستخدام القوة لاهلاك كل مقاوم ومعاقبة كل من
يقصر عن القيام بما يجب عليه . وصادر اموال السكان عند احتياجك الى
القوت لرجالك ولخيلك .

فصاح مونسوراني ، اذن هذه حرب مدنية .
فاجابه الملك ، ان البروتستانت بدأوها فالدنب ذنبهم ، ولا بد لنا من
الدفاع عن تاجنا .

قال ، انشدك الله ايها الملك ان تمنع وقوع هذه الحرب .
اجاب الملك ، سنفعل ما نراه واجبا حنا .

ثم مر الملك بوالدته ومونسوراني وسائر الاعيان والكبراء دون ان
يخاطب احدا . ودنا من الدوق دي جيز واخيه فقال لهما ، اني شاكر لكما
يا عمي المحبوبين هذه المساعدة التي جاءت في وقتها ، ولي حاجة اليكما هي
ان تما تقاريركما ، فان هؤلاء الثائرين لا يأتون عملا من تلقاء انفسهم .
قال الدوق ، يوجد دلائل على انهم تلقوا اوامر بهذا الشأن .

اجاب ، نعم كالاوامر التي تلقاها لارنودي في ما مضى . فمن يكون
صاحب هاتيك الاوامر ؟ فلم يجب الدوق ولا اخوه .
فقال الملك ، انكما لا تجران على اتهام احد لان المجرم يتمي الى

الاسرة المالكة . اذن فانا ارفع صوتي واسيه . ان تلك الاوامر ولا ريب
عندي آتية من غاسقونيا او امير كوندة .

قالت كاترين ، انك تتهم يا بني من غير برهان .
فاجابها ، لست اجهل ايها السيدة ان امير كوندة من اصدقائك . وهو
قد ارسل الينا ذلك الرسول الذي الحقته بك منذ ايام ، بدلا من ان يكون
في جملة الحضور . أليس في ذلك اقرار بمشاركته في قضية امبواز ؟

فسكت الجميع ، لان اصرار الملك على الشكوى من امير كوندة ألجم
الافواه واوجب على اعز اصدقائه السكوت .
فقال الملك ، هيا بنا يا عمي الحيين لنكتب الرسائل الى عمالنا وقضاتنا
وحكامنا ، وندعو الحكام الى جمعية عامة .

وانصرف الملك ، فتبعته زوجته والملكة ، والدوق دي جيز،والكردينال .
اما كاترين فانها قالت ، اليوم خمر وغدا امر .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل العشرون

(الملك في باريس)

كانت باريس قائمة قاعدة من شدة القلق والفرع منذ ما اتصلت بها
حادثة امبواز . ولم يكن فيها احد قادرا على ان يتبين وجه الخطر الذي
يخشى وقوعه . الا ان الكاثوليك كانوا يذهبون الى ان البروتانت علة
ذلك الخوف والخطر ، والبروتانت يعتقدون كذلك ان الكاثوليك هم
منشأ الاضطرابات ومصدر القلاقل والهواجس . وفيما هم كذلك شاع ان
الملك تعطف فعقد النية على المرور بعاصمته اثناء ذهابه الى اورليان حيثما
تعقد مجالس الحكام . ومعلوم ان الباريسيين يحبون مشاهدة موكب ملك
شاب ، وملكة حناء ، وبلاط زاهر ، فكان ذلك النبا سببا في رجوع
السرور الى المدينة الكبرى . واجتمع جمهور غفير عند باب سن انطوان
ينتظر ذلك الموكب مبتهجا . وكان بين ذلك الجمهور نيكول بوصه صاحب
فندق حملة السلاح وقد جاء ليظهر تعلقه بالملك والاستاذ برنابا وجاليو
وهما نازلان في فندق نيكول .

وكان جاليو قد عاد الى باريس يوم ذهب الدوق دي جيزر للصيد
والقنص ، فغافل رجال الدوق وخرج من القصر . فلما وصل الى باريس

أخذ يترن على استعمال السيف مع رجل ايطالي ، ويدرس التاريخ على
استاذ برنابا ، ويتعد للدسائس الجديدة والمناضلات .

وكان الجند يكره الجمهور على الوقوف في جانبي الشارع ، وامتلات
النوافذ بالفضوليين . ولاحظ جاليو ، ولم يكن يقوته شيء ، نافذة امامه
ليس فيها احد ، وكانت في ذلك الشارع النافذة الوحيدة التي لا يطل منها
احد . وقال نيكول ، هنا قوم لا يحبون الملك . الا ان الاصوات سكنت
عندما اقبلت فرقة من الفرسان ، فتذكر الشعب مواكب هنري الثاني
وفرنسوا الاول ، واقبل الملك ايضا في لباس الحرب ، وتلا الحراس حملة
الطبول فكانت اصواتها تدوي وتحول دون سماع الهاتفين . وكانت تدق
دقات الحرب وهو ما لم يتوقعه الجمهور . فكان كلما هم بالهتاف للملك
والجند والحراس ورأى ذلك السلاح والاستعداد الحربي تخفت اصواته .

وكان جاليو في جملة المشاهدين ، فاكأب من ذلك المشهد . اما نيكول
فأسف لانه ترك فندقه . واما برنابا فقال له لقد انبأتك ان الموكب لا يكون
في هذه المرة سارا ، فاجابه جاليو ، ذلك من تدير الدوق دي جيز . قال ،
انتظن ذلك ؟ اجاب ، كيف لا ؟ ان الدوق لا ينكر عليه امر كهذا فهو يدري
ان شعب باريس ينتظر الملك ليهتف له فادخله المدينة كما يدخل بلدة قد
افتتحها بيده .

ومر الموكب امام الجمهور فقال نيكول ، ما اكثر الفرسان الحاصلين
على الوسامات ، فاجابه جاليو ، وأسفاه !! انهم لم يحصلوا على وساماتهم
الا بالمداجاة والمصانعة لا بالباله وقوة السيف .

ولما ظهر الملك للاقوام كادوا يهتفون له كماداتهم الا انهم رأوه مستقم
اللون متعا كانه ثبح ميت ، فكتبوا . وكانت كاترين قد اقترحت دخول

الملك المدينة في موكب بهي لعلها بأن الناس مفتونون بتلك الظواهر ،
الزواهر ، ولا تجهل أن ملوك فرنسا كانوا في كل زمن يتقربون إلى شعبهم
بمثل تلك المواكب . غير أن الدوق دي جيز اثار على الملك بغير هذه إذ
قال له أن باريس مكتلة بالاعداء ففيها البروتستانت في كل زقاق وسوق
وشارع ، فلا بد من أن نبرهن لهم على أن الملك فرنسا قوة مسلحة ، وأنه
مستعد للمقاتل عند الحاجة .

ولذلك لم يلبس الملك إلا اللباس الخالي من كل زخرف وهو ابن
عشرين سنة يحب الزهو والاعجاب ويقضي أيامه في مداعبة زوجته الصبية .
لكنه انتقاد إلى مشورة الدوق مرغما ، وكان المرق ينسكب من جيبه . أما
الدوق فكان على عكس ذلك متويا فوق سرج جواده مدرعا ، يحجب
درعه ثوب من القطيفة الحمراء موشاة وثيا نفيسا . وفيما كان الاشراف
شاهرين سيوفهم ترك سيفه مضدا واطلق العنان لجواده وكان أعلى من
جواد الملك فارتفع في الجمهور الهتاف له بدلا من الهتاف للملك .

وظل جالير ينظر إلى النافذة المفتوحة التي لم يطل منها أحد . وفيما
كان اشراف الملك وفرسانه يمرون اطلت من تلك النافذة امرأة لابسة ثيابا
سوداء وهي فتاة المحاسن وقد ظهرت للفرسان فيمتوا . ولما رآها الدوق
دي جيز اصفر وجهه ووقف جواده من غير اقتباه ثم حشه على السير ،
وللحال دوى طلق بندقية من قرب المرأة واصابت ثوب الدوق رصاصة لم
تتجاوز الدرع ، فقال الملك ما هذا ؟

فاجابه الدوق ، لا شيء ايها الملك سوى انها رصاصة اخطات مرماها .
قال ، سوف يعذب الشقي الذي اطلقها ثم يشق !
اجاب ، اعلم يا مولاي أن القتلة لا يستحقون هذا الاهتمام .

فلما تحقق الجمهور أن الدوق لم يصب بوء اترسل في حماسته

وارتفع الصباح من كل ناحية ، ليحيى الدوق دي جيز !

وتواثب كثيرون الى البيت الذي صدر منه الطلق فكسروا بابه وابواب غرفه . ولما وصلوا الى النافذة لم يجدوا احدا . ولما امسى الماء شاع نباح الحادثة وقال القائلون ان البروتستانت هم الذين اقدموا على ذلك ولم يتمكنوا من الاحتجاب الا لانهم باعوا نفوسهم من الشيطان .

ولما وصل الملك الى اللوفر استقبل اعضاء مجلس النواب وقال لهم ، قد يخامر التعجب سكان مدينتنا من دخول الملك كمحارب ، على انكم تعلمون اننا وفقنا الى معرفة المجرمين الحقيقيين الذين ارتكبوا الجناية الفظيعة في امبواز ، فهم امراء اسرة بوربون واخصهم لويس دي بوربون امير كوندé ، فان لابن عمنا دي كوندé اصدقاء عديدين في باريس ، ولنا نجهلهم ، وحسبنا برهانا تديره الثنائين الذي سمى به ضد عمنا الدوق دي جيز ، ولذلك جمعنا جنودنا لنكون في أمن على شخصنا ، فاذهبوا ايها السادة واعيدوا ما سمعتموه على كل سكان باريس مدينتنا المحبوبة .

وعند الماء اجتمع جاليو وبرنابا في فندق نيكول ، وضرب الباب فقال جاليو ، لعل القادم ترولوس ؟
فاجابه ترولوس ، نعم جئت لاحيك ايها الصديق ، وانت ايها الاتاذ الفاضل .

قال ولك منا التحية ايها الكونت بعدما تركتنا .
اجاب ، كلا ولكنني لم اكن قادرا على الرجوع الى باريس دون ان ترجع الملكة ، لاني كما يعلم جاليو قد صرت من رجالها .
قال جاليو ، نعم بهذا المنصب السعيد !
اجاب ، واحر قلباه ، اني به لسعيد سيء الحظ معا . وآه لو تدري ما انطوى عليه بلاط فرنسوا الثاني من مفاسد ومكائد .

قال ، ما اخالك تشكو ما دمت ترتع مع الراتعين ***

وبعد ان اكلوا ، اوصل جاليو برنابا الى مخدعه ثم اتجه الشابان الى اللوفر فقال جاليو ، الا تنبئني عن مارسلين ؟

اجاب ، انها صارت من نديسات الملكة لان بين المرأتين سرا يمنع كلا منهما ان تخون الاخرى . اما المحامي افيل فانه لا يتجرأ على مفارقة البلاط ، ولا اظن الا انه اتى امرا يعنف عليه نفسه لان عمله كاد يقضى عليه بالقدوم الى باريس .

قال جاليو ، ذلك من الممكنات . ولكن هل عرف الدوق اسم رفيقي الذي صعد في سلم الحبال معي ؟

اجاب ، لقد حلف الدوق بان يشنقك يوم يجدهك .

قال ، لله دره من رجل كريم الخلق .

جوادا او مركبة .

وهنا تبسم وقال ، لكنني اخشى مضايقتك بخبري . قال ، أأست اخي

في السلاح ؟ فتكلم .

... ان الملكة اذنت لي بالاقتراب منها ونحن في الغابات ، والوحائف الايطاليات اللواتي يصحبها مخلصات لها فلا تخشى خيانة منهن . ويومئذ حدثني بسيرتها الماضية ، وما اصابها من بأس وذل في عهد زوجها وعشيقة ديانا دي بواتيه . وقد اراد هنري الثاني تطليقها ، وهي الحناء الفتاة .

قال ترولوس ، اما انا فانه لن يعرفني قط وانت تدري ان الملكة عرفتني بالبلاط في اليوم الذي تلا يوم الحادثة وقالت انني رسول امير كوندو . ولم افارق الملكة منذ ذلك اليوم ، فان كاترين اختارتني لاصحبها في نزعاتها ، وكنت اضطرر هوى بقربها وانتظر منها اشارة لادنو منها عند ركوبها ولطالما جلست اليها تحت اشجار الادغال اقرأ واياها اناشيد بتراركوصائد

دانت . وكانت كلما قرأنا محادثة غرامية تأمرني بأن اتلو كلمات العاشق وهي تنشد آيات العاشقة . وكذلك كنت اطارحها الهوى ...

— انك خجول يا صديقي .

— انت غلام ، فهل فاتك ان هذه المرأة ملكة ، وانها ملكة حناء كثيرة العشاق . وقد اذنت لي بمخاطبتها عن غرامي ، وتفضلت عليّ بأن القبي اليها بتلك العبارات المحرقة التي ينظمها الشعراء في سلك قصائدهم الرنانة، فهل استطع ان اطلب اليها شيئا آخر ؟ وهي قد كانت تقول لي ، « انت يا ترولوس قس من نور ظهر في سماء حياتي المحجبة بالغيوم » . وانا دعنتني باسمي ، دون لقبني ، لانها طلبت مني ان ادعوها كاترين . فلما ابيت قالت لي ، هل تغير آيات دانت لنحشر بينها قولك ايتها الملكة ؟

ودخل الصديقان الى اللوفر فتناول ترولوس يد جاليو واوصله الى نافذة ينبعث النور منها وقال له ، هناك تمام عشيقتي . فان عشيقتك ؟ اجاب نعم ، كنت ذات يوم انشد اشعار بترارك ، فطلبت اليّ كاترين اعادتها مرتين ثم قالت لي ، ان صوتك يعذب عندما تقول « اهواك » ، فضاع صواحي وفقدت رشدي وعدلت عن التكلم بالاشعار . وكنا في صميم غابة بديعة من غابات فوتنبلو ، مبتعدين كثيرا عن الحاشية ، والهواء يحصل طيبا ، ففيت الملكة انني شريف مسكين لا اتمي الى الاسرة المالكة ... والآن اودعك !

فتركه جاليو حتى دخل القصر وعاد يقول في نفسه ، وارجسته لفؤادك ايها الصديق ، ولا قدر الله ان يغدو العوبة بين يدي تلك المرأة فتكسرهما في ساعة لهو ولعب ...

★ ★ ★

ولم يقف الملك وجيئه في باريس الا يوما واحدا ، ولكن جاليو اكتشف في ذلك اليوم امورا خطيرة ، لانه تجول في البلد ، فطاق في

شوارعها واسواقها ودخل فنادقها وحاناتها ، وتجراً حتى على دخول قصر اللوفر غير خائف ان يصادف الدوق دي جيز مع علمه انه اقسم على اهلاكه . وتسكن من التقاط عبارات رابته واوجس منها خوفاً على مولاه امير كوندé ، لانه سمع القوم يتكلمون عن انفاذ العدل في مجلس اورليان . وامير كوندé مدعو الى ذلك المجلس ، ولا بد من ذهابه اليه . فرأى جاليو ان الواجب يقضي عليه بالسير الى اورليان لينذر سيده بما ينويه الملك ، وينقل اليه الجملة التي خاطب بها اعضاء النواب .

فسبق جاليو موكب الملك . ولما علم استاذة بعزمه على السفر بكى شفقة عليه وقال له : الا تزال تخاطر بنفسك ؟ الا تدري ان المخاطر ليس بحسود وان سلم . . وما كل مرة تلم الحجرة ، كما يقول المثل . اجاب ، بل ارجو السلامة يا استاذي . واعتقد ان طالعي سعيد ، وان الله ثم يقدر لي الهلاك .

قال ، لو انك مسافر لتلحق بامرأة تهواها لفارقتك غير آسف ، ولكنك مسافر لتلقي بنفسك الى التهلكة .

— اني ذاهب لالقي امير كوندé ، وبينه وبينه عهد ، مراعاته فرض واجب عليّ ، ولست ادري اي ويل يحيق به . الا ان نفسي تحدثني بقرب وقوع خطب جسيم ، فلا بد لي من الانضمام الى الامير في وقت الخطر . وهب اني اقيمت معك ، فما ارانا نسر بالاقامة وهذه حالتنا . ألم تر ان الكتابة دخلت باريس مع حاشية الملك وبطاته ، ولعل وراء الحجاب خيانة مدبرة فاذا ثبت الامير كميته شرها . على ان بشاشتي وطلاقة محياي لم تمت بل هي راقدة ، فلو اردت الضحك اليوم لما قدرت . ولا اشتهي الا مبارزة اكون فيها فائزاً او خاسراً ، فليس ذا وقت العشق والغرام .

قال مع السلامة يا عزيزي جاليو ، واني اتبعك عن بعد ومتى عدت متبرماً متضجراً من هذه الحياة التي تكتنفها الدسائس والمهالك تجد عندي زجاجات ملأى بالراح وكبا تزينها قصائد شعرائنا الجيدين .

الفصل الحادي العشرون

(تلام الملك)

وصل جاليو الى اورليان بعد ثلاثة ايام فالقي الكتابة والعم سائدين فيها سيادتهما في باريس . ووجد فيها احد اصدقاء الدوق دي جيز اسمه فيليب دي مرسيلي ، قدم المدينة منذ اوائل شهر اكتوبر (تشرين الاول) مأمورا بنزع السلاح من سكان المدينة . ولقد انزل هذا الرجل جنوده في بيوت السكان الذين يعلم انهم من ابناء المذهب الجديد (البروتستانت) وطرح في السجن من ابي قبول هؤلاء الجنود .

ونزل جاليو في فندق صغير في زقاق مظلم قرب نهر اللوار ، ثم اخذ يطوف في المدينة . واول ما وصل اليه هو ان الله اراد الانتقام لسكان تلك المدينة من حاكمها ، فسلط عليه منذ يومين داء النقرس فبات يصرخ من شدة الالم . وخطر لجاليو ان ينظم ابياتا بهذا المعنى ، وفي اليوم التالي قرأ سكان المدينة ابياتا مكتوبة على ورقة ملصقة على باب بيت الحاكم ، ولا بأس من ترجمتها للقراء ، قال فيها :

« يا من يمر ! اتدري لمن هذا القبر ، وما حوى من المخازي ؟ فهو قبر رجل لا امنية له من دنياه الا ان يكون جلادا لعباد الله . انفق العمر ولم

يأت حنة ، ولذلك رأى الله ان يعاقبه ، لانه تعالى لم يطق فظافته، فرماه
بداء النقرس ليكون عبرة لكل من يمر بهذا المكان .

واستمر جاليو يتفقد شؤون الناس حتى وصل الى بيت يحوط به
الجند من كل ناحية وهو مسور بالحديد ، فقال لاحد الجنود ، ما هذا
البيت المشؤوم ، وهل يقيم فيه احد ؟ فاجابه الجندي كلا . قال ، لعله لاحد
ابناء المذهب الجديد اللعين ؟ اجاب ، بلا شك .

فاخذ جاليو يضحك ، ثم ضرب بيده كنف الجندي وقال ، ما اظن
الامير يواصل السير الى هنا لو درى بهذا المنزل المعد لسكناء .

قال الجندي ، صه !! اني لاخشى ان يسعنا احد من اصدقاء الامير .
قال جاليو ، اصبت ، فما كل الناس كاثوليكيين مثلنا !

ومضى وهو منكش الصدر وقد فهم المراد من قولهم في باريس ان
سينفذ العدل في اورليان . وفيما كان مارا قرب الاسوار ابصر قلعة تحديق
بها فرقة من حلة البنادق ، وقيسا ينظر اليها نظرة المشفي فقال له
جاليو ، الا ما انبأتني يا ابت عن البروتستانتى الذي يكابد عذاب هذا
السجن ؟

قال ، الا تعرف اسم هذه القلعة ، فهو يعني عن الايضاح .
قال جاليو ، وما اسمها ؟

اجاب القيس ، اسمها قلعة الاميرال ، يا بني .

قال لقد فهمت ، فانها معدة لذلك الشيخ اللعين جبار ، زعيم تلك
الطائفة الممقورة ونصيرها .

ورجع جاليو الى الفندق يفكر في ذلك الذي يسونه عدلا . ثم تقلد
سلاحه وعول على مفارقة البلدة ليلقى امير كوندرة ويحذره . وفيما كان

راحلا عن اورليان دخلها الملك في موكب الحربي الذي احزن اهل باريس .
وكان فيليب دي مرسيلي ، صديق الدوق دي جيز ، قد اقام حراسا في كل
شارع وساحة من ساحات المدينة . وشمل الرعب اهل المدينة كما شمل
نواب الاقاليم الذين وفدوا ليحضروا مجتمع الحكام .

فلم يهتف للملك احد . واستقبل جلالة مختار البلد واسمه جيروم
جروسو ، وهو رجل كان متهما بالاشتراك في مؤامرة امبراز ، فقال له « اذا
لم تصلح سيرتك عاقبك معاقبة يعتبر بها الآخرون » . وكان جيروم هذا
قد هيا خطابا ليلقيه بحضرة الملك مضمونه احتجاج السكان على هذه
المعاملة ، واظهار اخلاصهم للملك . فعلم فيليب دي مرسيلي ، رسول
الدوق ، بالخطاب ، فلما وقف جيروم ليلقيه صاح ، هذا هو قائد
البروتستانت !

فدعر جيروم المسكين . وعظم ارتياحه لما رأى ما في نظرات الملك من
الشراسة ، فاضطرب وتلعثم . وللحال اتهمه فيليب دي مرسيلي امام الملك
بانه اعترضه في نزع سلاح السكان ، فقال الملك ، لقد بلغني سوء تصرف
هذا المختار من زمن طويل ، فاطرحه يا ميسو دي مرسيلي في السجن وليتظر
القضاة في قضيته غدا .

وهكذا كانت فاتحة عمل الملك الأمر بالقبض ظلما على ذلك الرجل
الشهم . ونهيا الحراس للهجوم والدفاع كأنهم في مدينة عاصية يحاولون
اخضاعها .

هذا وامير كوندرة قضى شهورا وهو يشاور نفسه في الاوبة الى بلاط
الملك واجابة الدعوة ولا يدري هل يذهب وحده او يستصحب اصدقاءه
ورجاله . وكان الملك قد كتب من فوتيلو الى ملك النافار شقيق امير
كوندرة يطلب اليه ان يستصحب اخاه ليبرر نفسه من التهم الملقاة على

عاقته . ثم انه ارسل الى غامقونيا رسولا ، هو الكردينال دي بوربون ،
والحقه بآخر هو البارون دي كرسول ، واكد الاثنان لامير كوندة ان
حقوقه كأمر من الاسرة المالكة او الدم الملكي ستحفظ وتراعى . وكانت
لزوجة امير كوندة وحماته مراسلات مع نساء البلاط ، فاشارتا على الامير
بان لا يلي تلك الدعوة وحذرناه من الانقياد الى ملك فرنسا . الا ان اخاه
ملك النافار اقنعه بالذهاب معه . فافرا معا وهما لم يقرأ كيفية دخولهما
على بلاط الملك . ولحق بهما بضعة آلاف من الاشراف الى ليموج ،
ووعدهما زعماء المذهب البروتستاني بجيش مؤلف من ستة آلاف رجل ،
الا ان وصولهما على تلك الصورة يدل على معنى الحرب والتأهب للنضال .
وجاءهما رجل اسمه ارميناك يزعم انه قريبهما ، وهو في الحقيقة ماجور من
الدوق دي جيز ، فاكد لهما حسن نية الملك فرنسوا الثاني . فاكراه ملك
النافار الامير اخاه على عدم استصحاب رجاله واصدقائه بحجة ان لا حاجة
اليهم .

وارسل الدوق دي جيز المارشال دي ترم لاستقبالهما فتلقاهما
بالاحتراف المشكور ، فاولاهما ذلك ثقة وحسن ظن . ولما لقي امير كوندة
جاليو في ضواحي اورليان ، كان مبتلئا بالآمال الحسنة . فوقف جاليو
امامه ففرح ببقاءه وقال له ، حياك الله يا جاليو !

فاجابه ، لقد سرتني لقاءك يا سيدي .

قال الامير ، لقد ظننتك سجيناً او ميتاً لانني لم اتلق خبراً عنك وبت
أسأل نفسي عما اذا كنت قد هجرتني .

... معاذ الله ان اتركك يا مولاي .

... وماذا جرى للفيكونت دي شارتر المكين ، ألم تفلح في انقاذه
من محبه ؟

فتعجب جاليو من شهامة الامير لانه لم ينس صديقه السجين ، وهو
اجدر منه بالانقاذ من كيد الماكرين ، فاجابه ، ليس غرضنا الان يا مولاي
انقاذ الفيكونت دي شارتر ، وانما انقاذك انت ! ولا يزال في الوقت متع
لرجوعك ، فعد الى غاسقونيا ، واجمع احبائك ولا تأت الى اورليان الا
وحولك جيش قادر على حمايتك .

قال ، شكرا لك يا جاليو على ما فعلت لاجلي . ومن كان اميرا يسه
ان يجد من يخدمه خدمتك اياي دون نفع ولا جدوى . لانك تخدم اميرا
لا مال عنده ولا قوة له ، وربما بات في الغد سجيناً او اسيراً . ومد يده
الى يد جاليو يصفحه ثم قال ، اذن انت تظن ان وراء الاكمة ما وراءها ؟

اجاب ، لا مجال للظن يا مولاي فاني متيقن ، وحبك حاضر كجس
الاميرال دي شاتليون .

— وهل تدري كيف يقبضون عليّ ؟ اعند دخولي اورليان ، ام عند
الملك ، ام في مجلس الحكام ؟

— اني اجعل ذلك يا مولاي . ولكنني على علم بان القوم قد هياؤا
محاكتك والحكم عليك .

— ومع ذلك فما اخالهم يتعرضون لي باذية لانني امير ، دمي من دم
الملوك . وقد ابلغت الملك خبر قدومي الى اورليان قبل نهاية شهر اكتوبر ،
فعدا اكون فيها .

قال جاليو ، انك تلقي بنفسك في اتون التهلكة !
اجاب ، ليس الموت يروغني . وفضلا عن ذلك فقد وعدت ولا اخلف
وعدي . والاقضل عندي ان احاكم ولا ارجع في كلامي رجوع كاذب ، بل
حبي ما يحرق بي من الدسائس التي اريد ازالها . وهل اكون انما
المذنب اذا شاء الدوق دي جيز تحويل ملتمس امبواز الى مؤامرة ؟ هل

اكون المذنب اذا كان الكاثوليكيون يلجئون اتباع مذهب كلفين الى الدفاع عن انفسهم ؟ وهل اكون المذنب اذا ثار مالييني وحاول الاستيلاء على مدينة ليون برغسي ؟ وهل اكون المذنب اذا كان احد القواد البروتستانت تروم الانتقام لآخيه ؟ انهم يحسبونني علة لكل ويل ينزل بفرنسا ، ولكل خطب يقع فيها . والاجدر بان يتدي ملك فرنسا الى الصواب فيعلم ان آل جيز علة هاتيك العلل ، لا امير كوندرة ! فليحسبوني ، وليحاكموني ، وليحكموا عليّ !

وفي اليوم التالي وصل ملك نافار وامير كوندرة الى ابواب مدينة اورليان . وكان الدوق قد علم بوصولهم من اعرانه ، فجمع المقاتلين من جند وحراس وسلمهم تسليحا كاملا وصفهم وصفا محكما ، اوله عند باب البلد وآخره عند قصر الملك .

فقال الضباط ، هل من عدو مفاجيء ؟
فاجابهم الدوق ، نعم ، وانه الدعدو للملك ايها السادة .

واراد بعض الاشراف مقابلة الامير الا ان الدوق لم يأذن بمقابلته ومقابلة آخيه لاحد غير اقربائهما كالكردينال دي بوربون ، والامير دي روشسوريون . وغاظ ملك النافار واخاه ذلك الاستقبال السيء ، وزاد طيور مخطئهما نفة ان بعض الضباط الذين سمعوا كلمات الدوق دي جيز تظاهروا بانهم يهينون الاميرين . غير ان اكثر من كان معهم مجرد السيوف ، جاليو ، فوصل الاميران من غير حادثة تذكر الى قصر الملك . (وهذا القصر منزل عبدة المدينة) فدهشا لما ابصرا الابواب الكبرى مقفلة . وطلبوا من الحراس فتحها فاجابوهم بشارة ان الابواب الكبرى لا تفتح الا للملك .

فقال امير كوندرة في نفسه ، لقد كان جاليو مصيبا . وترجل واخوه

عن فرسيهما ومعها الكردينان دي بوريون والامير دي روشوريون
فدخلوا « بلاط الشرف » ولما علم الملك بقدميهما جلس في اعلى اريكته
مع عميه وسائر رجال البلاط فلم يتقدم لاستقبالهما احد من الاشراف ،
واستمر الملك يتحدث مع عميه كأن الاميرين غير حاضرين .

هذا وقد صعد الاخوان درج الاريكة الملكية والقا تحيتهما على الملك ،
فقال لهما ببرود : ها قد جئتما يا ابني العم بعدما طال الامد على دعوتنا
أيكما .

واضطرب ملك النافار من هذا الاستقبال البارد فلم يجب بكلمة ، الا
ان امير كوندو لم يرتبك بل قال ، اتنا لا نكون قادرين على خدمتك ايها
الملك ما دمنا في البلاط لان مناصبنا قد انتزعت منا . والامر بالعكس اذا
كننا في الولايات فانا نستطيع ان نقوم بالواجب علينا .

قال الملك ، عندنا ضباط يتولون خدمتنا في جميع الولايات .
وكان امير كوندو يتوقع تعرض الدوق دي جيز واخيه ، الا انهما لم
يكادا يسلمان عليه وعلى اخيه ثم نهضا كأنهما لا يودان التداخل في شؤون
عائلية لا تعنيهما .

فانثنى الملك الى امير كوندو ، وكأنه نسي ملك النافار ، وقال ، انك
كثير التشكي من ادارة الملكة . . اني اعرف ذلك يا ابن العم .

واذ ذاك وصلت الملكة الوالدة وقد اظهرت كل مودة للاميرين بعدما
ابتعد عنهما اكثر رجال الحاشية . وشعر كوندو بالفراغ حوله ، فطلبت
الملكة الوالدة الى ولدها ان يأتي معها وتبعها الاميران كذلك . فاجتمعوا
اجتماعا عائليا في غرفة الملكة .

وكان امير كوندو يتظر ان يكلمه الملك ، الا ان فرنسوا الثاني كان

منفعلا اشد انفعال ، فقال للامير ، لقد اتصل بي من مصادر عديدة انك روح
المؤامرات ، وانني ومملكتي هدف لسهامها ، وما دعوتك الا لاطلع منك
على الحقيقة .

— لست ادري ايها الملك من الذي يتهمني ، ولكنني اؤكد لجلالتك
ان الساعين بي كاذبون .

— وهل كانت الرسائل التي كتبها اليك اصدقاؤك كاذبة ؟ وهل كذب
اسرى امبواز ، وهم مشرفون على الهلاك ؟ وهل كذب دي رشان ،
وماليني ، ومونيرون ، وغيرهم من الثائرين الذين يتخذون من اسمك درعا
لمباشرة اعمالهم الشائنة ؟ وهل كذب البروتستانت عندما ادعوا انك
زعيمهم ؟

— كل هذه التهم ايها الملك اقترأ محض ، وليس مصدرها من ذكرتهم
بل مصدرها آل جيز دون سواهم .

— لا تهن افضل اصدقائي واصدق الناصحين !

— لقد اتيت ايها الملك غير مستصحب جنودي ولا بتقلدا سلاحي ،
وكان في وسعي ان اجعل بصحتي جيشا عرمرما لا بعض اصدقاء ، فهل
كنت اسلك هذا المسلك معك لو كنت انوي غدرا بك وقياما عليك ؟ ولا
شان لي في ما فعله ماليني من هجومه على ليون ، ولا علاقة لي بثورة دي
رشان ، فالرجل انما ثار لانه طالب عدل وثار وقد قتل اخوه ظلما ...

— أطلب العدل واحد من ابناء ذلك المذهب الساقط ؟

اجاب الامير ، ان ابناء ذلك المذهب الساقط ، كما تدعوهم ايها الملك ،
هم رعاياك قبل كل اعتبار اخر ، بل هم مخلصون لك كابناء المذهب
الكاثوليكي . وهم على الاقل ابناء الارض الفرنسية ، لا غرباء كالناصرين

الذين تحبهما وتكرمهما وهما غير فرنساوين .

قالت كاترين ، لا ينبغي يا ولدي ان تعامل امرأة من البيت المالك في فرنسا هذه المعاملة ، وان امير كوندé لا يروم الا ان يخدمك بصدق وشهامة ، فثق به كما انا واثقة .

فاجابها الملك انك ما برحت تنصرين اعدائي ايها السيدة . اما انا فاني احسن الدفاع عن سلطاني .

ثم نادى قائد حراجه الميسو شافيني وقال ، سلمه سيفك يا ابن العم . وانت ايها القائد سر به الى المسكن الذي امرت باعداده للامير . . .

قال امير كوندé ، اسلمه سيفي ؟

اجاب الملك ، نعم .

قال ، أتجراً على اصدار امرك بالقبض علي ؟

اجاب ، أأست الملك ؟

قال ، ومن ذا الذي تجراً فوقع على الامر الصادر بالقبض علي ؟ لاجرم

ان آل جيز هم الفاعلون !

قال الملك ، اطلع ابن عمي ، ايها القائد ، على الامر الذي بيدك .

فالقى الامير نظرة على ذلك الامر المكتوب وقال ، لا بأس ! فهذا اسم

الملك فرنوا حفيد من كان يدعو نفسه اول شريف في فرنسا موقع على

امر ينقض به كلامه . الا انك ياذا الجلالة قليل الاحترام لكلامك . وابناء

فالوي ، سلالة سن لويس ، كابناء البوربون ، لكنهم تناسوا كرامة اجدادهم

ونبذوا شرفهم . قال انت تجراً على اهانة مليكك ؟

اجاب ، بحق لي ان ارفع رأسي فيها يا فرنوا لانني لم ارجع في كلامي

قط ولم احث بوعودي واقامي . وها انت قد رجعت في كلامك كما

حشت بوعودك واقامك .

فنهض الملك وهو يرتعد غضبا ، ومد يده الى الباب ، فانحنى الامير نحو الملكة الوالدة وقال لها ، كان الدم الطاهر الشريف ساريا في عروق اسرتك من قبل ، ولست ادري اينها السيدة اذا كان دمك الذي افسده . بل اجهل اذا كنت كاذبة او اذا كنت تنطقين بالصدق عندما تتكلمين ..

فاجابته كاترين بكآبة : اعلم ايها الامير انني لست الان بملكة فرنسا . ولقد اصبت ، فان والد زوجي فرنسوا الاول لم يكن ليأتي مثل هذا العمل . واقسم لك بذلك الملك الذي كان يحبني كاتني ابنته على ان دعائي لك يصحبك في محبك .

فدنا الملك من والدته وصاح يقول ، اهذه هي واجبات الوالدة ؟ انت تهينيني امام الد أعدائي ! .. ان هذا لا يليق بك ايها السيدة .

فحيا امير كوندة كاترين باجلال واکرام ، والتفت الى قائد الحراس وقال ، اني متعمد للحاق بك ، واليك سفي ، فها بنا !

ولبت انطوان دي بوربون ملك النافار صامتا ، وخرج مع اخيه لكنهم منعه من مصاحبته . وكان الكردينال دي بوربون ، وهو شقيق امير كوندة ايضا ، ينتظر نتيجة المراقبة عند الباب فقال له الامير ، لقد كان كلامك الحامل على الطمأنينة سببا في هلاك اخيك .

واحس جاليو بالدموع تيل على خديه عندما مر به ، فرآه الامير ومد اليه يده وقال ، اودعك يا عزيزي جاليو ، فانك لم تقل الا الحقيقة .

فاجابه ، واسفاه يا مولاي !

— خذ فرسي فلست بحاجة اليه بعد اليوم . واودعك ! ورآه جاليو من بعيد يدخل مع قائد الحراس ذلك اللجن المشؤوم الذي وقف به منذ ايام

ودخل الدوق دي جيز واخوه حجرة الملكة الوالدة ، فابصر الملك في اسوأ حال لانه اصيب بنوبة عصبية شديدة بعدما عمل بمشورتها والقي القبض على ابن عمه ، واغمي عليه . فمددته كاترين على سريرها وكشفت الملابس عن صدره وجعلت تدلك صدغيه بالماء البارد ، فافاق فرسوا شيئاً فشيئاً الا ان وجهه ظل ملطخاً ببقع صفراء . فلما عاوده رشده قال لكاترين ، اين الملكة ؟

اجابت ، اني امامك يا بني .

— اني اروم ان ارى زوجتي الملكة دون سواها . فانت لا تحبيني بل انت من اعدائي . فابعث يا عساه من يدعو الملكة !

ولما وافقت ماري ستوارت دهشت من ذلك الانقلاب الذي تولى زوجها ومن اكفرار وجهه فتألمها الملك بانعطاف وقال لها ، هل تحبيني ؟

اجابت ، ما هذا السؤال ايها الملك ؟

قال ، وانت يا عمي شارل (يعني الكردينال) هل تحبيني ؟

فتناول الكردينال إحدى يديه .

فقال ، وانت يا دوق ، يا سفي القاطع ، امسك يدي الثانية .

فتناول الدوق يده الاخرى . ونظر الملك الى الثلاثة الذين كانوا امامه وهم كل من كان يحب . اما كاترين فقد تراجعت عنه ، ولم يخاطبها احد منهم فكانت تلك الضربة موجعة لان ابنها انكرها ، فخرجت من مخدعه تمشي الهوينا . وكان ترولوس عند الباب فامسكت يده واجتذبتة الى دهليز مظلم وقالت له ، لم يبق لي احد سواك ، فهل تحبيني انت ؟

فاجابها ، كيف تسأليني هذا السؤال يا سيدتي ؟ اولا تعرفين مني ما يكون جوابي عليه ؟

قالت ، ايسمك الحب على ان تطيعني في كل شيء حتى في القتل ؟ .

قال ، من الذي ترومين قتله ؟

فتوقفت عن الجواب وكانت تنوي ان تقول له « ابني » .

وادرك ترولوس منها ذلك فنظر اليها مرتاعا فقالت ، ويلاه ا قال ، انت
ترومين الانتقام يا مولاتي . . . قالت ، لقد اصبحت بعارض جنون يا
ترولوس . آه ما اسوأ حظي ا لا يوجد احد في هذا البلاط احبه غيرك . . .
انت وابني الآخر ، هنري ا

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الثاني والعشرون

(الدوك والكردينال)

وفي الليلة التالية حضر الكردينال الى حجرة الملكة الوالدة ليزور الملك،
فمنعه تروولوس من الدخول فقال له ، اني اريد مقابلة الملكة الوالدة وهي
تتظرنى .

فاجابه ، اني جندي يا مولاي ، ولا اعتبر الا الاوامر التي اتلقاها من
رئيسي وقد صدر اليّ الامر بان امنع ايا كان من الدخول الى هنا .

— حذار يا هذا فانك وقفت في طريقي مرارا حتى الان .

— من يخدم الملكة يا مولاي لا يخشى بأش أحد .

واذ ذاك خرج فرنل طيب الملك من الحجرة فوثب الكردينال اليه وقال
له انبثني عن الملك .

— انه ضعيف جدا .

— وهل يخشى عليه ؟؟؟

— علم ذلك عند ربي ايها الكردينال . وابتعد مرعا .

واذ ذاك تمكن الكردينال من الدخول فابصر الملك كأنه مغشى عليه
لا يمي شيئا . وكانت ماري ستوارت زوجته قد انصرفت عنه وبقيت كاترين

ساهرة عنده تنقل حبات سبحتها بين اصابعها ، فخطبها الكردينال بركة ،
قال : يا سيدتي * فلم تجب ...!

فقال لها ، اني اروم مخاطبتك ايها السيدة في امر خطير *
فرفعت اليه رأسها بكبر وعظمة وقالت ، لم اكن اظن انه يوجد في بلاط
فرنسا رجل واحد يحق له ان لا يدعوني بذات الجلالة !

فاجاب الكردينال بجرأة : لقد كان لي ذلك الحق في ما مضى *
قالت ، لقد مضى ذلك الزمن يا كردينال ، فما هذه الجسارة التي تبدو
منك ، وكيف تذكرني بذلك امام ابتي وانت تراه مريضا ...

فارتعد الكردينال من كبرها واوجس خوفا من ان تكون قد احست
بشيء من السلطة والقوة * فان امير كوندé قد بات سجيناً ، وملك النافار
قد بشت عليه العميون فلا ينجو ، والاميرال كبير طائفة البروتستانت يوشك
ان يصل ، وسجنه مهياً له ، واعوان امير كوندé قد طرحوا في السجون ،
ولم يبق احد يعتمد عليه الملكة ، وليس في البلاط الا انصار آل جيز ،
ومجلس الحكام ، وقد تألف منهم ومن اصدقائهم وجميع النواب ،
كاثوليكيون * فما معنى ذلك الكبر الذي تظهره الملكة ، فهل طالعت
صفحات الغيب وعرفت ما يكون ...؟

جالت هذه الخواطر في ذهن الكردينال وبعد صمت قال ، ان الملك في
حالة سيئة غير ان عناية طبية تشفيه عاجلاً ان شاء الله ...

فلم تجب كاترين ، لكنها ذكرت وقتئذ جملة تلفظ بها الطبيب «فرسل»
منذ زمن طويل اذ قال لها ، سترزقين اولاداً ايها السيدة اذا عملت
بمشورتي ، « غير ان اولهم يسوت شاباً شهيد عنايتي به ... » فقالت في
نفسها هل ازف الوقت يا ترى ؟

وقال لها الكردينال ايضا : ان امير كوندّة بين ايدينا فموته : وهو ألد
عدو لنا ، قريب جدا . ولئن أبدى الملك شيئا من التردد افلا تاعدينا ؟
فلبثت الملكة صامّة واستمرت تعد خرزات سبحتها ، فانصرف
الكردينال مذعورا .



واستيقظ امير كوندّة في اليوم التالي على جلبة الجند وضوضاء الخدم
الذين كانوا يروحون ويحيئون امامه ، فصاح ، ما معنى هذا ، ولماذا ؟

فاجيب ، ذلك بأمر الملك .

قال ، نعم به من ابن عم حبيب . وما هذا الضواح الذي تضمونه في
داخل حجرتي ؟

قالوا ، هذا امر الملك !

— وما هذا الغطاء الذي عليه ، أهذا بأمر الملك ايضا ؟

— نعم ، ايها المولى .

— نعم ، ايها المولى .

— ولماذا ؟

— للاحتفال .

— اي احتفال ؟

— هذا امر الملك والسلام .

فهمم الامير ودمدم وولى وجهه شطر الجدار ، وبعد هنيهة صار
الضواح هيكلا ، ودخل قميص يصحبه اثنان من رجال الدوق للاحتفال

بقُداس • وتقدم احدهما الى الامير وقال له تعال فاقتض واجب الصلاة ، لان الملك يرى ان للصلاة تأثيرا حسنا على نفسك •

فصاح الامير بحدّة : دعوني منكم ومن صلاتكم ، اني احب القتال والنضال في رائعة النهار ولكنني لا احب ان يستهزئ بي احد : ولم احضر الى هنا للجدال في الدين ولكن لاتبرأ من تهمة باطلة رميت بها ظلما ، فاذهبوا وانبتوا الملك انني انتظر القضاة لمحاكمتي ولا انتظر كهنة البابا •

وارسل الملك فرنسوا الثاني الى الامير رسولين هما اخواه ملك النافار والكرديتال دي بوربون ليطلقا جسر غضبه ويكلماه عن مصالحة تعقد بينه وبين آل جييز • فلم يسمعا منه غير هذه الكلمات ، قال ، لا ، وسيلة الى صلح بيني وبين ذيك الرجلين الا باليف الطويل القاطع •

وبذلك اصدر الملك امرا الى رئيس النواب ، وإلى مستشاري ذلك المجلس ، والنائب العمومي وكاتبه ، بالحضور الى حجرة الملك لتلقي الايضاحات ، والشروع في محاكمة الجين • وانقضت ايام • وقد ارتبكت اللجنة التي عهد اليها بتحقيق قضية الامير ، لان ذلك الجين استوجب رأفة جميع الاعضاء •

وفي يوم ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) اطلع الرئيس الملك على تفاصيل الاستطاق ، وكان ذلك بحضور الدوق دي جييز واخيه ، فان كوندرا ابي المجاوبة على كل سؤال يوجه اليه وقال « ان تلك المحكمة التي تآلفت لمحاكمته لا سلطة لها عليه • فهو يرفع شكواه الى المترائس على مجلس النواب في بلاط المجلس في باريس ، وإلى سائر المجالس المجتمعة فيها ، ولا ينبغي ان يحاكم امير ، دمه من دم الملوك ، بغير هذه الطريقة •

فقال الملك ان جرأة هذا الرجل لا نظير لها ، فمأثنا ولتحقيق دعواه ؟

واذ ذاك دخلت الملكة كاترين وقالت لولدها ان زوجة الامير ترجو مخاطبة جلالتك .

قال ، قد علمت انها جاءت لتسألني عن زوجها ، فلت اريد مقابلتها .
الا ان تلك المرأة كانت لاحقة بكاترين فدخلت برغم الحراس حتى دخلت من فرسوا الثاني وارتمت على قدميه باكية وقالت ، دعني بحقك ايها الملك ادخل على الامير في السجن فلا اكله الا بعذب الكلام ورقيقه . اني اريد ان القاه قبل موته .

قال ، لقد كنت منعت دخولك علي ، وانت تعلمين كما اعلم ان الامير اكبر والد عدو لي . وقد حاول الاعتداء على حياتي وعلى الملكة فاقست على الانتقام منه . وسوف اتقم .

قالت ، عفوا ايها الملك عفوا وارحم ابن عمك فهو من لحبك ودمك ، وقد سعى به الرشاة ، وهو يحبك ويحترمك ويحترم تاج فرنسا اكثر من كل واحد من رعاياك .

قال ، انك تحبين الكذب ايتها اليدة . ولست تجهلين مقاصد زوجك ونياته الفاسدة . على ان الاوراق التي وجدت عند امك تبرهن على مشاركتك في ذنبه .

فرفعت كاترين صوتها وقالت ، ليت هذه المعاملة لزوجة امير من ابناء البيت المالك في شيء من الشفقة !

فأشفق الكردينال ان ينعطف الملك او يرق فؤاده فقال لزوجة الامير ، انك تضايقين الملك ! فطردت تلك المرأة بخسوة ، الا ان هذا الامر انهك الملك فكانت علامات الموت ظاهرة على وجهه . وقلق الكردينال لانه خاف

ان تفوت الفرصة فلا يتخذ حكم على امير كوندو ، فعول على ان يحاول
امرا مع الملكة الوالدة لعلها تنضم اليه والى اخيه ، فطلب مقابلتها . ولما
اتفرد بها قال لها ، الا تخشين ايها السيدة حلول نازلة بيتنا ؟

فاجابته : اظنك تريد ان تقول ، بيت ملك قرنا ؟

وكانه لم يستأمن جوابها ، فقال لئن وقع مصاب على البيت المالك فان
السلطة تنتقل الى ايد غير صالحة .

فرفعت الملكة رأسها ونظرت اليه مليا ، فقال الكردينال ، نعم ، فان
خليفة الملك لا يزال قاصرا ، فنيابة الملك تأول ، اذ قضى الملك ، الى ملك
النافار ، اي الى اول امير من الدم الملكي . فبست الملكة لهذا الخاطر
لان ملك النافار لا يحفل بسلطة لاشتغاله بهوى النساء ، الا انها لم تجب .

فقال الكردينال ، لئن صارت نيابة الملكة الى ملك النافار بعد وفاة
الملك فان الخطر يحدق بك وبنا على السواء .

فحملت اليه كاترين بصرها فقال ، نعم ، فان ملك النافار يندو العوبة
بين يدي اخيه امير كوندو ، وهذا الاخير لا ينسى سجنه ولا القضية التي
اقصاها عليه ، ولا ينسى اننا لم نعبأ بطلبه استئنافا ، واننا اتهمناه
بالاضطراب الحادث في البلاد . . . وهنا توقف الكردينال ، ف اشارت اليه
الملكة اشارة ملؤها الاحتقار وقالت ، كل ذلك من عملك انت لا من عملي
انا . فامير كوندو كاره لك ولاخيك ولكنه محب للملك ولوالدة الملك .

— لئن تولى الوصاية ملك النافار فانت هالكة .

— كلا ، فربما كنت انت يومئذ من الهالكين . اما انا فلا . وامير
كوندو لا ينسى دفاعي عنه امام الملك . كما ان زوجته الاميرة لا تنسى انني
عضدتها في هذا اليوم .

— اراك لأول مرة ساذجة ايها الملكة . فان كوندرة لن يحفل بك ولا
يهسه الا طمعه الاثعبي ولتكلسم بحرية . ان اللطة بين يديك
وايدينا ، اي بين يدي والدة الملك وايدي عمه . وما من احد منا يروم
فقدها .

— بل ارجو منك ان تصلح كلامك ليغدو مطابقا للواقع . ان السلطة
بين يديكما ، انت واخيك ، لا بين يدي انا . ان انا الا امرأة متفردة . وهل
من قوة لي ؟

— ما هذا الكلام ايها السيدة ؟ أفلا ترين انك الحزب الاقوى ، وحسبك
برهاناً على ذلك انني اطوع لك من بناتك . ولكن لا يفوتك ان مرافقنا
واحدة ، ولا بد لنا ، قبل كل شيء ، من اهلك امير كوندرة واخيه ملك
النافار .

— لم يصدر عليهما حكم .
— سيصدر غدا . فيجب التوقيع على حكم اعدامهما قبل موت
ولذلك . هذا امر لا غنى عنه ، وسوف تكونين ماعدة لنا على انجازهم .
فابعدي امير الاختام ومن بقي من اعوان الامير ، واذا ذاك تصبحين ملكة
فرنسا حتى يبلغ الملك شارل سن الرشد ، واصبح انا وزيرك الاول .

فخففت كاترين رأسها وجعلت تحرك حبات سبحتها فقال لها الكردينال
بطلق فهاهنا ، ما رأيك يا سيدتي ؟

فظلت صامتة وقتاً طويلاً ثم قالت ، اني اصلي الى الله لاجل شفاء
ولدي .

فوثب الكردينال خارجاً من عندها وقد رأى منها القوة لثاني مرة .
فلم يكده يغيب عن نظرها حتى نادى ترولوس وقالت له ، تذهب الساعة
وتدعو الى هنا امين الاختام . وليأت خلة ، ثم تلم هذه الرسالة الى

جاليو ، مع امر مني تسليمها الى امير كوندرة . وجاليو حاذق فطن ، فلا اشك في انه يفلح .

ودفعت الى ترولوس رسالة دسها في جيب صدرته ، وبعد هنيهة كان امين الاختام عندها ، واسمه لبتال ، فقالت له ، عهدي بك ذا راي وتديير ، والوقت حرج فاسعطني بنصحك . ان الملك مشرف على التلف وقد انذرنني بصوته الطبيب فرنل . قال ، يا لله !

قالت ، اذا مات ولدي فماذا نصنع ؟
اجاب ، نهتف هتافا عاليا « ليحيى الملك » وتنادي بشارل التاسع ملكا .
— ان شارل التاسع قاصر . فالى من تأول الوصاية ؟
— الى ملك النافار بالاسم ، واليك بالفعل .

— فاعلم ان الدوق دي جيز واخاه يرومان اهلك ملك النافار وامير كوندرة . وقد تجرأ الكردينال فطلب ماعدتي على هذا العمل .
— يا له من شقي شرير . ان امراء البيت المالك دعامة البلاط وركنه ، وموت احدهما يحدث فراغا عظيما في الاسرة المالكة . واعلمي ايها الملكة ان الامة ترجو فيك رجاء حنا وتأمل من بنيك الثلاثة الباقيين املا عظيماء فتولي شؤون مملكتك ولا تكوني خادمة مستشاريك .

— وماذا تفعل بامير كوندرة ؟

— نوقف دعواه .

— شكرا لك على حرية فكرك . واعلم ان الطبيب يتوقع وفاة الملك ، فاذا وصل اليك النبأ المشؤوم ، احضر اليّ سريعا لانني ساحتاج اليك .



وفي ذلك المساء اقترب شاب يلبس رداءً واسعاً إلى باب السجن الذي
سجن فيه أمير كوندو . فصاح به الحارس ، مهلاً يا هذا ، إلى أين ؟ فاجابه ،
اني اريد مقابلة عمي .

— ومن عمك ؟

— هو طباح الغرفة .

— لم أكن ادري ان له ابن اخ .

— بل له واحد حسن الهيئة والشكل ، وانا ذاك الواحد .

— لكن الدخول ممنوع من غير اذن .

— ان الاذن معي وهو في جيبى . فمد اليه يده .

— ألا يسمعك ان تريني اياه ؟

— ألت تراني احمل الهدية التي جئت بها الى عمي ؟ مد يده الى

جيبى ولا تخف !

ففعل الجندي ، ولكنه لم يجد في الجيب الا عشرة دنانير .

فخفض الرجل صوته وقال ، خذ هذه الدنانير فهي خير من كل اذن

مكتوب . ولك مثلها عند عودتي اذا لم تتكلم .

فاجاب الحارس بوقار ، ادخل ! وفي ذلك المساء وجد أمير كوندو تحت

وسادته هذه الرسالة :

« كن مستعداً واطل مدة الاستنطاق ما استطعت ، لان الملك يحضر » .

« كاترين »

الفصل الثالث والعشرون

(فراش ملك فرنسا عند احتضاره)

كان جالو يتسلم ضجرا في الزقاق الضيق الذي اتخذ له فيه مخبأ
ومسكنا ، ولكنه لم ير من الحكمة ان يتعرض للانظار في بلد حاكمها المطلق
الدوق دي جيز .

الا انه سمع يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ضجيجا عاليا ، فاتفق
بردائه وخرج من مسكنه فابصر الجماهير تسير الى الساحة الكبرى . فلما
وصل الى الموضع المقصود ابصر عنده فرسانا وحملة بنادق وجنودا ، وسمع
قرع الطبول ، ثم تلاوة خطبة لكاتب المحكمة المخصصة التي ألفت لمحاكمة
امير كوندة وهذا نصها :

« ان الملك ، ايها السادة ، يعلمكم بما يأتي :

« غدا سيعدم في هذه الساحة من مدينتنا المحبوبة اورليان الامير
الخطير ، لويس دي بوربون امير كوندة ، ثاني امراء البيت المالكي ، قصاصا
له على ذنوبه وخيائته للملك . وكذلك يهلك في هذه البلاد كل عدو لله
وللملك ، وليكلاكهم الله جميعا بمعانيته » .

وتفرق الحكام والفرسان عقيب ذلك مغادرين جمهور الناس في اسوأ حال من الاندهال ، وكان جاليو في جملةهم . فلما سمع ما سمع هاله الامر . فقال في نفسه ، ألم يكن في وسع كاترين انتاذه ؟ وهل تمكن الملك من اصدار هذا الحكم وهو على فراش الموت ؟ وذلك لان خبر ضعف الملك قد اذاع في البلد وانتشر وعلم الخاصة والعامة انه لا يحب والدته بل يحب عميه وزوجته دون سواهم . آه ليتني القى ذلك الدوق اللعين واخاه وابارزهما . ثم اخذ يلعن الدرع التي انقذت الدوق من رصاصة القاتل المجهول يوم دخول الملك بموكبه الحربي مدينة باريس .

وبعد ان طاف جاليو في البلد عاد الى مكانه فالتقى ترولوس في انتظاره ، فترامى على صدره وقال ، قضى الامر ايها الصديق !

فاجابه ، كلا وقد ارسلت اليك الملكة هذه الرسالة لتوصلها الى الامير وهي تقول لك ان تأخير الاعداء يوما واحدا قد ينجي الامير ...

قال ، وكيف السبل الى ذلك التأخير ؟ فلمه كما ملؤا بالدقائق وقال له ، ان الملكة تعتمد على ذكائك ودهائك .

قال ، حبا وكرامة ... واخذ يستعد في ذلك النهار ، وعندما انتصف الليل قصد الى ساحة الاعداء حاملا رزما عديدة . فلما وصل الى مقربة من الحراس الذين يحرسون دكة الاعداء ، سأل بساذجة ظاهرة عن المحكوم عليه ، فهزأ به الحراس وقالوا له ، ويك يا رجل ، ألسنت من سكان اورليان ، ألم تسمع بالحكم الصادر على امير كوندا ؟

قال ، اتعنون ذلك البروتاتتي اللعين ؟ ثم صاح ، لا بد من بقائني هنا حتى اكون اول من يشاهد مصرعه .

وفتح احدي الرزم فاخرج منها ست زجاجات من الخمر ، وفتح الحراس

بعشرة دنانير ، فاذنوا له بالدخول تحت خيمة الاعدام ، فقال في نفسه ،
الآن تير لي عمل .

وعكف الحراس على زجاجاتهم يشربونها ليلا وينظرون الى الدنانير .
فلما انتصف الليل تاقطوا سكارى الا قليلين كانوا يمشون متوكئين على
بنادقهم . واذا باحدهم يقول ، الا تسمع صريرا من ناحية دكة الاعدام ؟

فاجابه رفيقه ، كلا .

قال ، اصغ قليلا . وسمعا صوتا خفيفا من تلك الناحية ، فقال الحارس
الآخر ، يا لك من غبي ، هذا غطيط الرجل المتعصب الراقد هناك .
قال ، صدقت . واستمر الرجلان يمشيان .

وكان الصرير من ناحية جاليو ، لكنه غير صادر من صدره بل من
منشار قصير في يده نشر به ثلاثة اعمدة من خشب المشقة . واذا به يسمع
وقع خطى خفيفة ، فرفع ذيل ستر الخيمة ورأى رجلا وامرأة امامه وقد
وقعا قرب المشقة . فسمع جاليو زفرات متقطعة فقال في نفسه ، انها احدى
عشيقات الامير انت مع خادم لها ، فخير لهما ولي ان يذبحا ويتركاني اتم
علي .

وجشت المرأة كأنها تصلي وتلثم الارض ، ولبثت كذلك هنيهة ورفيقها
ينظر الى الوراء ويرصد الناس . فهاج فضول جاليو وانصت لصلاتها
فسمعها تقول ، هنا قتلوك يا ابنت شنقا كأنك من اشرار الناس غير ان ساعة
الانتقام قريبة . ثم نهضت وابتعدت مع رفيقها فراهما جاليو يدخلان يتسا
امام ساحة الاعدام فقال . سوف تجلو غامض هذه المسئلة فيما بعد . . .

وعمد الى العمود الرابع فسكن من نشره واصبحت المشقة لا تحتاج
الى اكثر من صدمة خفيفة فتسقط . ولما تحقق ان الحراس غير متبهين

اليه تناول وعاء من الرزم التي جاء بها وغط فيه ريشة ، ثم اخذ يرش
الالواح بسائل من الوعاء ويبتسم سرورا . فلما شمل القطران الخشب عمد
الى ما هو اصعب واثق لانه كان ينوي اضرام النار من غير ان ينبه
الحراس . ومن حسن حظه ان الجو كان حارا ، فقدح جالو زنادا بين
قطعتين من خشب ، فلما تطاير شرر قليل القى في النار ما جاء به من يسابغ
النبات وجعل ذلك قرب الالواح ، ثم زحزح ستر الخيمة وسرح البصر فلم
يجد احدا من الحراس امامه ، فاطلق ساقه للريح .

ولم يتعد اكر من خمسين خطوة حتى لفت بصره ثلاثة رجال اقبلوا
الى ذلك البيت الذي دخلته المرأة والرجل منذ هنيهة فقال ، هل من مؤامرة
جديدة يا ترى ؟

ووقف الرجال الثلاثة على بعد خطوات من ذلك البيت ، وكان في
الطبقة الاولى مصباح ضئيل النور ، فانظما نوره في الحال .

ولو تمكن احد من دخول الغرفة التي كان النور فيها لسمع فيها
المحادثة الآتية بين فتاة وشاب . اذ كانت الفتاة تقول للشاب هل تحققت ما
انباتني به ؟ فاجابها ، رأيت الرجل امس واول امس وفي الايام السابقة من
هذا الاسبوع .

— وهل يأتي الى هنا ؟

— نعم ، يخرج من القصر مصحوبا ببعض الاشراف من باب سري
ويتقدم مستملا فيفحص البيت وبصره الى النافذة . ولقد كان في وسمي
محاولة قتله مرتين ولكنني لو لم اسدد المرمى جيدا لقبض عليّ اصدقاؤه ،
ولذهب انتقامي ضايعا . على اني قادر من هنا ان اصييه . فاذا أخطأته لا
يتعذر علينا الفرار والاختفاء الى حين سنوح فرصة اخرى . اني لا ازال
الوم نفسي لانني أخطأته في باريس .

— وددت ان اكون حاضرة ساعة قتله ، ولا بد من ذلك ، فهل فهمت
يا بلترو ؟ قال ، لقد وعدتك وعدا صادقا وكفى . قالت ، شكرا لك . قال ،
الا نرين الان هؤلاء الرجال الثلاثة الذين يجتازون الساحة ؟ فهم ، هم .
قالت ، اطفئي المصباح .

ف فعل ، وساد الظلام . واذا ذاك وقف الرجال الثلاثة وقال احدهم ،
كأنتي ابصرت نورا . فاجابه رفيقه ، ذلك من اشعة القمر المنعكسة على
زجاج النافذة يا مولاي .

— كلا ، بل ابصرت نورا . فقال الرفيق هل كانت ابنة الكبي بارعة
الشكل ؟ اجاب ، انها اجمل من كل سيدة في البلاط ، ايها العزيز . ثم انني
لا ادري اي قوة خفية تجتذبني الى هذا البيت .

— هل تصفح الفتاة عنك وتغض الطرف عن امرك الذي صدر بقتل
ايها ؟

— لقد انبأتك عشرين مرة انها تحبني ملازما من الضباط العاديين .
ولكن ، ماذا ارى ؟

ولقد سمعوا وقتئذ صوت زفير نار تضطرم ، فانشى الدوق ورجاله
الى ناحية المشتقة فابصروا السنة اللهب ممتدة على الارض ، فصاح الثلاثة
يا للداهية !!

وكان هؤلاء الثلاثة الدوق دي جيز ورجلين من أعوانه ، فقال الدوق ،
لا جرم ان كاترين صاحبة هذه الفعلة الشنعاء .

ودمدم بلترو من داخل البيت وشم وقال ، لقد تجا هذه المرة ايضا .
فاجابته مادلين صبرا يا بلترو ، فان الله ساقه الينا قبلا وسوف يسوقه ايضا .
وكان الحارسان اللذان عند المشتقة ينظران الى النار بهوتين متعجبين .

فأقبل الدوق عليهما وصاح بهما ، يا لكما من غيبيْن . من الذي اضرَم هذه النار ؟ قالَا ، من الذي اضرَم النار ؟؟ قال ، نعم ، من اضرَمها ؟ من اتى الى هنا ؟

فتردد الحارسان قبل ان يجيبا ، ثم قال احدهما بصوت خافت ، هو الشيطان ولا شك !

قال الدوق ، ويك ، هل تعرف من انا ؟ اجب سريعا !
... وهل ادري يا مولاي وهل في وسعي ان اقول غير ما قلت ؟

قال الدوق ، اذن فالشيطان اضرَم النار ؟..
وتعاطفت النار فسقطت اخشاب المشنقة ، وانبعثت رائحة القطران من انقاضها ، وتوافد الناس الى الموضع ، وشاع الخبر حتى بلغ القصر . وللحال اقبل موكب من الرجال يحملون المشاعل .

واقبلت الملكة كاترين فقالت بصوتها الرخيم ، ماذا جرى ايها الدوق ؟
ومن اين هذه النيران ؟

فاحتدم الدوق سخطا . واقبل الملك ايضا ، فقال الدوق لكاترين لملك ادري مني بمصدر هذه النيران ايها السيدة .

وكانت رائحة القطران قد امتزجت برائحة نسيج محروق ولم يبق من المشنقة الا حطام يتصاعد الدخان منها . وكان جاليو ينظر اليه من بعيد وهو يكاد يرقص فرحا . على انه لم يكن راضيا تمام الرضى باحتراق نصف المشنقة فجعل يقول في نفسه هل كان الصيدلي كاذبا ...؟ الا انه لم يتم جملة هذه حتى ارتفع ضياء اخضر ، واثثرت رائحة تزهق الانفاس وتضيق الصدور ، ثم طلع ضياء احمر بعد الاخضر ، ثم تعددت الوان اللهب فجعل الحارس يصلي ويقول ، لقد كنت على يقين من ان الشيطان هو صاحب هذه النحلة الشقاء ... وقد مر بي وابصرت قدمه وكأنها المطاة !

اما الملك فجعل ينظر الى ذلك المشهد وقد اظلم وجهه ، فدنا منه الدوق وقال ، هذا من تدبير اولئك البروتستانتين الملاحين ، ولانه تدبير شيطاني ! قال ، لقد اصبت يا عماء ، فلتقم هذه المشقة غدا وليعدم الدوق في اليوم التالي على مرأى من جميع الشعب .

فقلت كاترين ، ألت ترى يا بني ان لله يدا في ملاشاة هذه المشقة ؟ فاجابها ، لو ان صاعقة من السماء هبطت عليها لقلت ان الله ارسلها ولكن هي نار الجحيم التي احرقتها . فالشيطان قد اتى لياعد اصدقاء واعوانه .

ولقد تلفظ الملك بهذه الكلمات بلمحة هائلة ثم قال ، من حسن الحظ ان رجالي الاشراف يحوطون بي . فلوف يجرى المحرمون في حادثة ابواز بما كسبت ايديهم ! . نعم ، ويل للبروتستانتين ! . وليت كل خائن ! .

ثم جرد سيفه وتقدم الى انقاض المشقة متوعدا مهددا ولم يتجراً احد على الوقوف لامساكه . ونظر آل جيز بعضهم الى بعض فقال الدوق ، انه يهذي هذيان المحتضر !

وضرب الملك سيفه الهواء ، ثم وقف بنمة لان الدخان المبعث عن الحريق كاد يخنقه . فافلت يده سيفه ، ثم سقط على الارض وهو يقول ، ليت كل خائن . . . واغمي عليه .

فاراد الدوق دي جيز حمله على ساعديه ، الا ان كاترين كانت قد سبقته اليه واكبت عليه وهي تقول ، ولدي ولدي ! .

فقال لها الدوق ، دعينا نحمل الملك الى غرفة زوجته . فاجابته ، بحقك دعني يا دوق ، ودع ولدي ، فهو ابني لا ابنك ، على ما اعرف !

وحملت ولدها امام اشراف البلاط فجعلته على محفة ، وامرت بالرجوع الى القصر . ولما سمع الدوق دي جيز واخوه صوت الملكة تأمر الخدم بحمل الملك الى حجرتها خامرهم الرعب لان غرفة الملكة الوالدة بعيدة عن غرفة ماري ستوارت ، فهي قد ابعده عن نفوذ زوجته ومنعتهم من التسلط على ارادته . فاجتمعوا لساعتهم في غرفة ابنة اخيهم للمفاوضة والاعتماد على رأي يعملون به .

وكانت ماري ستوارت زوجة فرنسوا الثاني في اسوأ حال من القلق متظرة اياب زوجها ، فلما رأت عميها قالت لها ، اين فرنسوا ؟ فاجابها الكردينال ، انه مريض .

قالت ، هل من خطر عليه ؟

— نعم ، فلا ينبغي اضاعه الوقت .

— اني مبادرة اليه .

قالا ، بل البشي ههنا .

قالت كيف ذلك ، فقد يسوت دون ان اراه .

قال الكردينال ، ستريه ، انما البشي ههنا فاني بحاجة اليك .

فاجابته ، ماذا تريد يا عماء ؟

قال ، ألدليك مفتاح خزانة زوجك ؟

اجابت ، نعم ، ولكنني لا استطيع ان ...

قال ، اين هو ؟

اجابت ، ها هو ؟

قال ، أي الخزانة حكم الاعداء ؟

اجابت ، لا ادري يا عماء .

ففتح الكردينال الخزانة الحديدية ، وكان فرنسوا الثاني يختفي فيها

اوراقه وامواله ، فتناول ورقة كبيرة وطالع ما فيها • فقال له الدوق ، كيف رأيت ؟

— ان الحكم غير كامل ولكنه قانوني ، موقع عليه من جميع اعضاء المحكمة المختصة او من اكثرهم •

قال الدوق ، واي توقيع ينقصه ؟

اجاب ، توقيع امين الاختام ، وتوقيع دو موريتيه • على ان الملك دعاهما اليوم • ألم تريهما يا ماري ؟

— نعم ، ولكنهما رفضا التوقيع على الحكم •

— يا لهما من شقيين •

قالت ، لقد وعدا بالتوقيع غدا يا عماء !

قال ، نعم وغدا ، ومتى علما بحالة الملك رفضا ايضا ••• اوام لقد خسر هذا الشاب قرواه •

قال الدوق ، انا لفي غنى عن توقيعهما •

وقال الكردينال ، ولكن ينقص الحكم توقيع اخر هو توقيع الملك •
فهل تعرفين خط زوجك يا ماري ؟••• وتقدرين على تقليد خطه ؟

اجابت ، نعم يا عماء •

قال ، اذن فاجلي هناك • واثار الى مكتب وقال ، خذي هذا القلم •

قالت ، فماذا افعل ؟ قال ، وقمي •••

قالت ، اوقع ماذا ؟•••

اجاب ، وقمي على الحكم باسم زوجك !

قالت ، ولكنه حكم بالاعدام !

— ألم تكوني عالمة به ؟

— لماذا لا تدع فرنسوا يوقع عليه ؟
 — لانه لم تبق له قوة ... فوقي انت !
 فرقت ماري ستوارت وقالت ، لا افعل ذلك ابدا !
 قال الكردينال • ألت كاثوليكية صادقة الايمان ؟
 اجابت ، بلى ، ولكنني امرأة • ولا اوقع علي حكم بالاعدام •
 — وقعي والا اهلكك !
 — اهلكني يا عماء فلن اوقع على هذا الحكم ابدا •
 — يا لك من ناكرة للجميل !
 فذنت منه وقالت ، هل نسيت انني الملكة !

ومدت يدها الى الباب بعظمة وقالت ، اخرجنا من هنا ! فذهبا الى
 حجرة الملكة الوالدة فوجدا ترولوس ببابها يمنعهما من الدخول • فقال
 الدوق ، انا بحاجة الى مقابلة الملك !

اجاب ، لدي امر صريح ، فلا تدخل !

كان ذلك الى يوم ٤ ديسمبر (كانون الاول) وكانت ماري ستوارت
 تسهر كل ليلة قرب سرير زوجها ، وقد بقيت فيه بقية حياتها • اما عليه فقد
 فحصه لآخر مرة ورأى انه يوشك ان يموت • هذا وامير كونداسملى
 صحة وشبابا منطرح على فراشه يعجب من تأجيل اعدامه •

فلما كان اليوم الرابع من شهر ديسمبر قالت الملكة الوالدة لكتتها ،
 اذهبي واستريحي •

فاجابتها ، لا قدرة لي على مفارقة زوجي •
 قالت • بل اذهبي ، فتى شعرت بالتعب ادعوك واستريح •
 وكانت ماري ستوارت منهوكة القوى ، فذهبت وهي قلقة الخاطر ،
 فلم تبصر عند باب كاترين عيها ، الدوق واخاه الكردينال • وقد حاولا

لأول مرة أن يدخل على الملك ليحمله على توقيع الحكم بإعدام أمير كوندرا
إلا أن الملكة الراحلة لم تأذن لهما بالدخول إلا وقت انغماء الملك .

وقال لها الدوق ، بحقك دعينا أيتها السيدة ندخل لنرى الملك لأول
مرة !

فقلت ، إن ولدي لا يستطيع أن يرى أحدا . ورجعت إلى حجرتها
وقعدت في مكانها قرب سريره . وكان الطبيب يفحص العليل ويتوقع
وفاته . وبعد ساعتين فتح الملك عينيه وانتصب قاعدا على سريره ، وقال
إين ماري ؟ أين الملكة ؟

فاجابته والدته ، إنها ذهبت لتستريح يا بني .

... أود أن أراها وأودعها يا أماء ، فاطلبي حضورها .

... نعم يا ولدي ولا تنعب نفسك من غير فائدة .

قال الملك للطبيب ، اذهب يا عزيزي فرنل وجني بماري وعمي الدوق
دي جيز وأخيه ، فاني أود أن أراهم قبل موتي . فاذهب أنت لأن والدتي
لا تفعل ما أطلبه إليها . فهض فرنل واتجه إلى الباب فاستوقفه كاترين
وقالت ، ما معنى هذا ؟

فاجابها ، لم يبق فيه يا سيدتي إلا ذمء (بقية الروح) وبعد بضع دقائق
يستوفي مدته وهذا أمر قد أنذرتك به منذ عشرين عاما . وخرج . فاخذت
كاترين تروح وتجيء في الحجرة مضطربة ، وقد نسيت ابنها لأن آل جيز
مقبلون وقد يتمكنون في تلك الساعة الأخيرة من انتزاع السلطان من يدها
والوصاية على ولدها ، وحمل الملك على توقيع حكم بإعدام أمير كوندرا .
ورأت نفسها وحيدة دون عضد ولا نصير ولا قوة على أسرة جيز .

وكان ترولوس بالباب واقفا شاهرا سيفه ، فذهبت إليه وقالت : انهم
آتون ، فهل ترضى بأن تموت لأجلي عند الحاجة .

قال ، تكلمي يا مولاتي •

قالت ، لا تدع احدا يدخل الغرفة حتى ولا الملكة ! • • ولا تفتح الباب لاحد الا بأمرى •

اجاب ، انى اقسم لك على الطاعة • فاوصدت كاترين الباب ، وترامت جاثية وكان ابنها ينظر اليها مبهوتا وهي عاكفة على الصلاة او على تحريك شفثيها وتقليب حبات سبختها بين اصابعها •

فقال الملك ، لقد اتوا يا اماء ! • • فافتحي الباب ! • • هذه ماري آتية ! وسمعت وقع خطى تقترب •

فقال لها افتحي الباب • • • اريد منك ان تفتحي الباب !

فلم تأت كاترين بحركة ، وطرق سمعها صوت جدال في الخارج ، وقائل يقول لا يدخل احد الا بأمر من الملكة الوالدة •

فغمضت كاترين تقول ، الا شكرا لك يا حبيبي ترولوس •

فنهض فرنسوا الثاني لآخر مرة ونظر الى امه نظرة حائق غصوب ، ثم زفر زفرة حرى وارتمى على فراشه وقد قضى نحبه ولقي ربه • فاقبلت كاترين عليه تتأمله وتقول ، لقد مات حقا •

وذهبت الى الباب وفتحته • ودخل الدوق دي جيز والكردينال وماري ستوارت وكانهم مجانين • وكان الدوق يحمل الحكم وعليه التواقيع المعديدة وهو حكم اعدام امير كوندافاختطقت كاترين من يده وطرحته في النار وصرخت تقول لقد تأخرت يا ابن العم ، فان ملك فرنسا قد مات •

قال يا للداهية ، مات ولم يوقع على الحكم ! ووثبت ماري ستوارت الى جثة زوجها وهي تقول ، كلا لم يستفان بدنه لا يزال حارا • عد بربك اليّ يا حبيبي فرنسوا ، واسمع صوتي انا ماري • انا زوجتك التي تحبها • •

ولما تحقق آل جيز موت الملك لم يحفلوا بجثته ، فعادوا الى كاترين
وهم ينوون نيات فاسدة . وقد تظاهرت بالرقّة واللفظ وحزرت ما يجول
في ذهن كل من الاميرين . لكنها لم ترهبهما فان ترولوس كان قريبا منها .
وللحال اقبل جمهور الاشراف وبينهم امين الاختام ووراءه امراء البيت
المالك اولهم شارل البكر . فدنا امين الاختام من فراش الميت وصاح بصوت
جهوري ، مات الملك فرنسوا الثاني ! فليحي شارل التاسع !!

وكان شارل التاسع يومئذ غلاما ، فوقف ونظر الى مرييته . وردد
الحضور الهتاف فكانوا ينادون ، ليحيى الملك شارل التاسع !!



وكان امير كوندّة وقتئذ في سجنه والحراس يحدقون به وهو قائم ملء
جفونه .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفصل الرابع والعشرون

(جثة فرنسوا الثاني)

وفيما كانت ناري ستوارت ، ارملة الملك فرنسوا الثاني ، تبكي احمر بكاء قرب جثة زوجها ، قصد آل جيز حجرة الملك المتوفي وفتحوا خزانته بالمفتاح الذي تسلما من ناري ستوارت واخذوا منها ثلاثين الف دينار . ثم رجعا الى منزلهما ولحق بهما بعض القواد والاشراف من انصارهما وكل منهم يقول ، ماذا نصنع ؟ واي مصير يكون مصيرنا ؟ فاجابهم السدوق ، صبرا ولا تقلقوا فان مدة الصبر لا تطول ، وقد آلت السلطة الى الملكة الوالدة ولوف نعرف نياتها في وقت قريب .

وقد انتشر خبر وفاة الملك فرنسوا الثاني في المدينة فأطمأنت قلوب البروتستانتين وقل تعدي الكاثوليكين عليهم .

ولم يكن جاليو مكترثا لمشاجرات ابناء الطائفتين وانما انصرف ذهنه الى التفكير في امير كوندا ، وكان موت الملك سببا في تأجيل انفاذ الحكم عليه ، فجعل جاليو يقول في نفسه ، هل يطلق سراحه ؟ وتجراً جاليو على دخول القصر بعد ان ارتدى بأفخر ملابسه وقال ، لا حاجة بي الى التكر بعد اليوم !

وتقلد غدارتين وسيفه الطويل الذي جرح به جانليس ويرداليان ودخل
 القصر ، فالتقى الاشراف في اضطراب عام . فقال لجانليس ، وهو من رجال
 الدوق ، كما يذكر القراء : هل لك في ان تخبرني عن امر ؟ قال ، ما هو ؟
 قال ، الى من تؤول الوصاية على الملك ؟ فنظر اليه جانليس مدهوشا ، ولم
 يكن يعرفه ، وقال ، لست ادري !

— وماذا عسى يفعل الدوق دي جيز ؟

— لست ادري .

— ومتى يحتفل بدفن الملك المتوفي .

فاجاب جانليس ، وهل لهذا الامر من شأن !

ثم لقي جاليو رجلا آخر من رجال آل جيز ، هو حاكم اورليان . وهو
 من نظم فيه تلك الايات التي ترجناها في فصل سابق فقال له ، غفوا ايها
 الحاكم ، اني قادم من اقصى الولايات واود ان اعرف متى يدفن الملك
 فرنسوا .

فرشقه الحاكم بنظرة حائرة وقال ، سيدفن عندما يراد دفته . وليس
 هذا الامر بالشاغل الذي يشغلني الآن .

— اذن فأني شاغل لديك ؟

— من انت يا هذا ؟

— من رجال الدوق دي جيز .

— اذن فكن مستعدا .

— لاي شيء ؟

— للدفاع عن الدوق .

— وهل من يتجرأ عليه الآن ؟

— بلا شك .

— ومن يقدم •

— الملكة الوالدة أو ملك النافار ... لت ادري •

— اشكر لك هذا البيان ، وها انا ذاهب كي الازم الدوق •

ودخل جاليو رواق القصر فصادف اثنين يتكلمان • قال احدهما ، ان
الخطب جلل ، وقال الاخر وانه لرزء جسيم •

فقال جاليو في نفسه ، هذان رجلان يفكران في الملك حقاً !

الا انه رجع عن رأيه عندما سمع تمة المحادثة ، اذ قال احدهما ، يظهر
ان الحكم لم يوقع عليه من الملك قبل وفاته • فاجابه الاخر ، يا الله ما افظع
هذا الاهمال • قال احدهما ، اذن فلا يمكن انفاذ الاعدام •

— لو تم اعدام امير كوندو لكان المشهد نادرة حقة •

— ولكننا حصلنا على نفع جزيل •

— نعم ، ولكننا لسنا من اهل التوفيق •

فقال الاخر ، لقد ساءت معرفتنا •

فتأمل جاليو المتكلم فاذا هو الجلال ، فقال له ، هل لك يا سيدي فسي
حاجة لي ؟ قال ، ماذا تروم ؟ اجاب ، اين جثة الملك ؟ اجاب ، لا ادري •
قال ، متى يدفن ؟ اجاب ، هذا امر لا يعني انا !

وهكذا كان جاليو يتخطى الجماعات حتى لقي المحامي افيل ، زوج
مارسلين ، وقد عرفه المحامي لانه صرف باسانه لما رآه ، فقال له جاليو ،
لقد سرنى لقاؤك يا سيدي • فاجابه ، واني لكذلك •

— اني حديث العهد بهذا البلاط واود ان اعرف امرا •

— ما هو ؟

— متى يدفن الملك ؟

هذا سؤال لا شأن لي به • واي غرض للناس في جثة لا روح فيها •

— اذن ما غرض الناس من المجيء الى هنا ؟

— البث ههنا وسوف تدري • فان الملكة الوالدة دعت جميع خدم ابنها القديما •

— شكرا لك • وكيف حال السيدة مارسلين ؟

— انها سيدة محترمة بريئة من كل عيب • فانحنى جاليو امامه واستمر في طريقه وهو يقول في نفسه ، لا بد لي من ان ارى الذين حول جثة الملك الان قبل ان القى امير كوندا •

وكانوا قد نقلوا فرنوا الثاني الى حجرته ووضعوه على سرير • وكان عند طرف السرير اربع شمعات وامرأة تبكي ، والتشويش سائد على الحجرة ، وبعض الخزائن مفتوحة فارغة والاوراق مبعثرة ، والملابس مطروحة على الارض • وليس هناك حارس ولا خفير ، وليس في الحجرة الا زوجة الملك ، ماري ستوارت ملكة فرنسا وايكوسيا ، تبكي وحدها على جثة زوجها •

ومعلوم ان جاليو لم يكن يحب فرنوا الثاني لكنه لم يتمالك ان وقف خاشعا امام الباب • وفيما هو كذلك دخل رجلان يتبعهما شيخ اعشى ، هو الاسقف دي سليك ، اما الرجلان فكانا من الحكام ، فجسوا قرب الجثة ، ونظرت اليهم ماري ستوارت نظرة شكر وامتنان •

فنزل جاليو الى الرواق الذي اجتمع فيه رجال البلاط وهناك علم ان الملكة الوالدة عازمت على استدعاء امير كوندا لتطلق سراحه • واذا بالملكة الوالدة قد اقبلت يصحبها ملك النافار والمسيو مونموراني وامين الاختام ، وطلبت ان يقف في حضرتها جميع اصدقاء الملك القديما ، ثم وقع بصرها

على جاليو وكان واقفاً وثقة كبرياء قرب إحدى النوافذ فقالت ليرولوس ،
ليس هذا الشاب صديقك ؟ فقل له ان يأتي الى هنا .

فدنا جاليو من الملكة وجنا امامها فقالت له ، اذهب يا ميو دي
ترسالك ، وخذ فرقة من حملة البنادق ، وكن نائباً عنا في مخاطبة سيدك
الامير ، وقل له اننا اعدنا اليه حريته الشخصية .

وظن جاليو انه يرى حلماً ، الا انه ظل رابط الجأش ، فنهض واتجه
الى مجلس الامير . وفيما كان يقوم بتلك المهمة اقبل آل جيز واصدقاؤهم
وكانوا جمهوراً غفيراً فسلوا بحضرة كاترين . فلما تحقق الدوق ان جميع
رجاله حضروا الاجتماع التفت الى الملكة وقال لها ، لقد طلبت حضورنا
ايتها السيدة لاننا من اصدقاء الملك المتوفي . وها قد اتينا نحن واصدقاؤنا
ونتظر صدور الاوامر !

فاجابته كاترين بمظمة تقول ، ان اجتماع اعضاء اسرتنا لم يتم بعد ...
قال ، وكيف ذلك ؟

قالت ، لقد بعثت رسولا الى الامير فلا يلبث حتى يأتي .
واذ ذلك رجع جاليو قاصفاً وجه كاترين لما رآته مفرداً ولم تتمالك ان
صاحت تقول ، عجباً لك يا ميو دي ترسالك ، كيف عدت وحدك ؟ فاجابها ،
والأسف !!

قالت ، ألم تقل للامير ؟ ...

اجاب ، بل قلت له انك تعيدني اليه حريته الشخصية . فبعد اليّ بنقل
كلماته اليك ، قال « ان امتنانه عظيم جداً ، ولكنه يستحيل عليه ان يخرج
من سجنه مفادراً فيه شرفه ، لان حريته الشخصية تكون في هذه الحالة
سبة له وعاراً ، وانما ينبغي ان ينالها باشتهار براءته ومعاقبة الذين اتهموه
كذباً » .

وهنا تبسم جاليو ، وكان استياء الكل عظيماً . ولقد ظنت كاترين ان قبضها على السلطان يغولها اليادة ، ولم يخطر في بالها ان سجيناً واحداً قد يأمرها وهو في غيابة السجن . اما آل جيز فظنوا ان الامير يعبط نفسه اذا خرج من محبسه سالماً ، وتكفيه سلامته بعد ان كاد ينفذ فيه حكم الاعدام . اما سائر رجال الامير والاشراف فكانوا يأملون ان يقع صلح عام ، وهم قد اشاروا على كاترين بعقد ذلك الصلح .

وبقي جاليو دون سواء منشرح الصدر بحمله الى البلاط تلك الكلمات التي تدل على عظمة وخيلاء . ورأته مرسلين قاعجت بمحاسنه في ذلك اليوم . ولم توافق زوجها أفنيل حين قال عن جاليو « ما هذه الوقاحة ؟ فان هذا الوصيف يصلح لذلك المولى الشيطاني » .

ولما زال انذهال القوم وقف المسيو مونمورانسي وقال لجاليو ، ان الامير على خطأ فامض وقل له ان الافراج عنه دليل كاف على براءة ساحته التي سيتضح ظهورها بخروجه من سجنه . فقالت كاترين ، على ان الامير ليس الان بسجين ، والجند الذين يحدقون بسجنه الاول هم الان حراس له يأمرهم وينهاهم كما يشاء .

فاجابها جاليو ، مولاتي ، ان عزيمة الامير ثابتة ، وهو يدري انه ليس بسجين ، ويدري كذلك انه لا يوجد اليوم في البلاط من يتجرأ عليه ، وانه قادر على المجيء اليه لينزل منه في منزله التي لم يغادرها الا بسداس الماكرين . لكنه يعتبر نفسه سجيناً الى يوم يعلن مجلس النواب براءة ساحته . فقد اتهم علانية ، وحكم عليه علانية ، ونصبت المشنقة لاعدامه (وهنا تبسم جاليو) ولذلك لا يرى بدا من اعلان براءة ساحته للجمهور .

وانحنى امام الملكة ثم تراجع ، واتفق انه وصل الى قرب المحامي أفنيل وزوجته مرسلين اثناء رجوعه . ولم يعر المحامي التفاتة اليه لانه كان منصرفاً

الذهن الى الشؤون الهامة التي تجري امامه . فلم يحفل بوصيف الامير كوندرا . فاخفت كاترين استياءها من ابيه الامير ، واستمرت على انجاز الخطة التي رسمتها في ذهنها من زمن طويل فقالت ، بالنظر الى قصور ولدنا المحبوب شارل وعجزه عن التصرف الشرعي ، نرى من موجبات الشرف ان لا نلقي مقاليد السلطة الى احد سوانا . ولكننا نروم الاستناد الى مساعدة اقربائنا وخصوصا الخدم الائمة للآلة المالكة . فانحنى الاشراف امامها .

وقالت ايضا : ولقد رأينا ان نحدث شيئا من التبديل في المناصب برغم حسن اختيار فقيدنا العزيز فرنسوا . فنحن نرجو من اصحاب المناصب ان يقدموا الينا مناصبهم لرى فيها رأينا ونقرها في مواضعها . فقد حاول اعداء ائرتنا الملكية ان يحدثوا شقاقا بيننا ، بتحريض ابن عنا ملك النافار على طلب الوصاية ، فابى ملك النافار بحركة تدل على انه لا يريد ذلك .

ثم قالت ، الا ان ابن عنا نسيب كريم ومن الرعايا الذين يذهبون الى مساعدتنا بكل قواهم . على اننا ندعو الان كل من يروم معرفة اوامر الحكومة الى طلب هذه الاوامر منا . وبعد ذلك نهضت كاترين وغادرت القاعة ودخلت مخدمها مصحوبة بملك النافار وقالت له ، لقد اساء اخوك كثيرا في تمثيل هذه الرواية الشائنة .

قال ، اني آسف يا سيدتي .

قالت ، لسنا نجعل ذلك . ولكن كيف يا بى المجيء للانضمام الينا ؟

قال ، سوف نجىء به اليك ايها السيدة ، فلا تنسى ...

قالت ، انسى ماذا ؟ اجاب ، وعدك لي ...

قالت ، بل سوف تحصل على النيابة العامة للمملكة ... ولا اخلف وعدي . والمهم لدينا الا ان لا نصغي الى آراء آل جيز . وانقضت ايام على مفاوضات ودسائس وكانت الملكة الوالدة تدعو اليها الدوق دي جيز في

كل يوم ، بل في كل ساعة ، وفي كل مرة تطلع باتتزع منصب منه او لقب او وظيفة . ولقد هم ذلك الجندي الجريء بان يتولى قيادة رجاله ويقاوم الملكة الوالدة الا انه احس بان قواه تنفذ سريعا ، فلم يجد بدا من الانقياد الى كاترين . وكان ملك النافار فرحا بالوعود التي اجزتها له تلك المرأة الايطالية وما برحت ترددها له كلما سنحت الفرصة دون ان تنجز واحدا منها . هذا وامير كوندا يلتقي الاكرام من اولئك الجنود الذين حوله ، لكنه ما زال يظهر انه سجين .

وعالجت الملكة الوالدة صلحا بين ملك النافار والدوق دي جيز ، فاستعانت عليه بعشيقة للدوق حتى تعاهدا على الولاء امامها واقسم كل منهما على حفظ عهد ذلك الولاء دائما ابدا .

وكان اول عمل عمله انها افرجت عن صديقها الفيكونت دي شارتر . وكان هذا الشاب مشتهرا بحسن صورته الا ان سجنه في الباستيل اودى بصحته فلم يكدر يقوى على مبارحة سجنه والفر الى قصره فمات بعد زمن قصير . .

ثم شعرت كاترين باتساع نطاق سلطتها فلم تتردد في ارسال الكاردينال شارل دي لورين شقيق الدوق دي جيز الى دير .

واجابها الكاردينال يومئذ قائلا ، هل تجديني مضايقا لك في غرامك الجديد ؟ اذن فليحذر ذلك الخليل الذي جئت به من الازقة .

فقلت ، حاذر ايها الكاردينال ان اطيل مدة ثقيك وابعادك .

وهكذا غادرت يرجو ويأمل قربها وكأنها وعدته بقرب اياه الى البلاط فاسافر ومعه من يلود به . وفي اليوم التالي اقبل جاليو على امير كوندا وهو مكتئب مضوم فقال له الامير ، ماذا دهاك يا عزيزي جاليو ؟ فان لك هيئة المشنوق ؟

— وأسفاه ، ان فؤادي قد ذهب .

قال الامير ، كيف مارسلين ؟

— انها سافرت مع زوجها المعامي في جملة من سافروا مع الكردينال .

— وهل سافر الكردينال ؟

— نعم ، فقد ارتحل عن اورليان ليلا بأمر الملكة كاترين .

فاطرق الامير يفكر ثم قال لاحد رجاله ، ما رأيك في هذا السفر ؟

— ارى ان الفساد يسرع الينا ونحن قعود ، فقد آن لك ان تهتم

بقضيتك وترفعها بنفسك الى مجلس النواب .

— وهذا رأيي ايضا فلنأهب للسفر . وما دام جاليو قد قطع من كل

علاقة غرامية في اورليان فهو يصحبا ايضا .

اجاب جاليو ، بلا شك يا مولاي . وسافروا في اليوم التالي . وفيما

هم مارون بالكنيسة الكبرى ابصروا بعض القسيسين وخمسة او ستة من

المصلين ، فقال جاليو متشائما ، ما كنت اود ان ارى مشهد جنازة يوم

رحيلنا .

فاجابه الامير ، انها جنازة ميت من عامة الناس ، ولكن مالي ارى اسقف

« سليس » ؟...

فقال جاليو ، هو الرجل الوحيد الذي رأيته قرب سرير الملك فرنسوا .

واختلط بعض الجند بالقسيسين ، وكان اربعة منهم يحملون نعش الميت ،

ومروا بامير كوندا وحاشيته . وسمع الامير قسيما يقول ، صلوا لاجل

الملك التقي فرنسوا دي فالوى الملك الثاني المدعو بهذا الاسم !

فكشف كوندا واصدقاؤه رؤوسهم وجثوا في ذلك الموقف ، وقد اثر

فيهم ما رأوا من الاهمال في ذلك المشهد . ولم يسر في جنازة فرنسوا

الثاني احد من حاشيته ، ولا شيعة الى المدفن احد من انسيائه ، بل حصل

جثته القميون وبضعة من الجند ، ومار في مشهد اسقف اعلى واثنان
من معاويه .

فقال جالو ، الى اين تبيرون بالملك ؟

فاجابه قيس : الى مقبرة من دنيس ، وفيها مدافن الملوك ، الا ان
قلبه بقي ههنا في ضريح من رخام في وسط الكنيسة .

فدخل الكنيسة امير كوندرا وجالو وسجدوا قرب تلك البقية الباقية
من عدوهم القديم ولم يكن هناك لا حارس ولا قسيس .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل الخامس والعشرون

(سياسة الملكة الوالدة)

كان قصر « فوتنبلو » في أوائل شهر أغسطس (آب) سنة ١٥٦١ حافلا بالاشراف والسيدات ، وقد اختلط فيه الكاثوليكيون والبروتستانتيون . والملكة كاترين ما برحت تحب المجتمعات السارة . وقد لبس الرجال افخر ملبسهم ، وتزينت النساء بأبهى الزينات . وكان ذلك الزمن زمن المجادلات الدينية والادبية والوعاظ متشرون في كل مكان وابناء المذهب الكاثوليكي يتهمون كاترين باخلاصها للمذهب الجديد (البروتستنتي) . ولم يكن في ذلك القصر من ذاكر للملك فرنسوا الثاني الا زوجته ماري ستوارت ، وكان الكردينال قد اتى بها الى فوتنبلو غير مشفق على نفسه من سخط الملكة الوالدة .

ولعل ماري ستوارت لم تحب من زوجها الا المجد والسلطة ، فلما ساروا به الى الضريح منعوها من تشييع جثته ، فاحست منذ خروج النعش بذهاب امانها وسقوط دولتها . وكانت كاترين دي مديس تكرهها ولا ترى فيها الا انها المرأة التي سلبت منها ولدها وانتزعت كذلك نفوذها عليه ، ولقد رأت قبلا من كبريائها ما لا يسعها الصفع عنه . وذكرت ان ماري ستوارت هذه عتقتها ذات يوم بأنها ليست بذات نسب كريم ، فعقدت النية على ابعادها الى انكلترا . أما آل دي جيز فذكروا لتلك الارملة المسكينة معارضتها اياهم يرم طلبوا منها التوقيع على حكم الاعدام باسم زوجها وامتنعت ذلك الامتناع الذي يدل على شهامتها ، فكان الدوق يقول لها احيانا كثيرة ان الملكة الوالدة هي اليوم صاحبة الحول والطول

ولا نحبك فبادا يحدث لك اذا أصررت على البقاء في فرنسا . ان انت الـ
ارملة صبية لا تفوذ لها ولا شأن ... على ان لك عرشا في ايكوسيا (١) في
وسمك ان تتبرئيه ! ..

فلم تجب ماري . وهي تعرف جبال مملكة ايكوسيا (سكتلندا) ولا
تري وجها للشبه بينها وبين سهل فرنسا الجميلة وجبالها البهيجة . وكان
الاسكتلنديين شعبا خشنا يكاد يكون همجيا ، ولا يمكن ان يقاس بالشعب
الفرنساوي ، فكانت تقول ، ويلاه ! من يدل دينارا بدرهم ؟ فلا اسافر
الآن ...

ولما نقل جوابها الى الملكة الوالدة قطبت وجهها وقالت ، كهاني من
عندي من الفتيات الجميلات في حاشيتي فلا حاجة بي الى ارملة ابني ، ان
ثيابها السوداء كالوصمة في بلاطي .

وبعد اللثيا والتي ضربت موعدا لسفرها هو يوم ١٦ اغسطس (آب)
وفي ١٥ منه أمرت كاترين باقامة حفلة باهرة اكراما لماري . وكانت ماري
في ذلك المساء مكتبة مغومة لا تكاد تجيب على كلمات التردد التي
يخاطبها بها ظرفاء البلاط . ثم ما لبثت ان دخلت الرواق حينما كانت
كاترين وحولها المعجبون بها . وكان الدوق دي جيز الى جانب الملكة
الوالدة ينظر بقلق الى حركة الاعجاب التي تدور حول الملكة الصبية .

واذا بعلام لا يتجاوز العشرة من سنه قد تخطى الصفوف واقبل على
ماري فأمسك بيديها الاثنتين ونظر اليها نظرة مبهمة . وكان ذلك الغلام
« شارل دي فالوي » ملك فرنسا باسم شارل التاسع . وبعد ان تأمل كتته

(١) ايكوسيا (اسكتلندا) كانت مملكة عدد سكانها أربعة ملايين وهي الان
جزء من بريطانيا العظمى . وكانت ماري ستوارت ابنة جاك الخامس ملك
ايكوسيا ولما تزوجت فرنسا صارت ملكة فرنسا ايضا . وسرى
القراء انها عادت الى مملكتها ايكوسيا وفيها اضطرت الى مقاومة حزب
الاصلاح ، واحباط الماسمي الرية التي اتتها اليصابات ملكة انكلترا ، ولما رى
ستوارت بعد ذلك خبر طويل ليس هنا موضعه .

وقتاً طويلاً قال لها ، لقد اكدوا لي انك عازمة على الرحيل عن فرنسا ، وهذا
الخبر غير صحيح ؟ أليس كذلك ؟ انني لا اريد سفرك .

فارتعدت ماري املاً وقالت ، وأأسفاه لا بد من سفري أيها الملك .
ولو عسلت برغبة فؤادي لبقيت ههنا ، ولكن ظروفي واسرتي يوجبان عليّ
الرحيل ... وهنا ترددت وكادت تبكي ، فنظر الملك الفتى اليها متعجباً
وقال ، من ذا يكرهك على السفر ، ألت الملكة ؟

فتبادرت الدموع الى وجنتيها واجابت ، كلا ، كيف اكون الملكة وانت
الملك ؟

قال ، أريد ان تلبثي ههنا فلا تسافري .
فقالت كاترين للمربية ، خذي هذا الصبي ، لماذا تركته يجيء الى هنا ؟
فاجابها الغلام ، انا اردت المجيء الى هنا لاقبل الملكة ، فان حسنها
عجيب !

فعمقت ماري ستوارت على الغلام ، فقبلها بلهفة وقال لها ، عديني بأن
لا تسافري حتى اراك غدا !
قالت ، نعم غدا ...

ولم تسكن من التلطف بكلمة ايضاً لان انعطاف شارل عليها قد أثر فيها
تأثيراً عميقاً ، فرفضت كاترين ابنها ودفعته الى مربيته ثم عادت الى قرب
الدوق دي جيز وقالت له بلهجة خسنة ، لقد آت لماري ان تسافر !
فاجابها ، نعم ايها السيدة .

ثم دعت كاترين ترولوس وقالت له ، انت تعرف حاشية ملكة النافار ،
فاستعلم عما اذا كان قد طرأ طارئ جديد بينها وبين زوجها . وذلك لان
كاترين سمعت اشاعة عن ملك النافار مؤداها انه ارتد عن مذهب كلفين الى
المذهب الكاثوليكي . فما لبث ان رجع اليها ترولوس بالخبر اليقين ، قال
لها ، ان احد القس البروتستانتين زار ملك النافار اليوم كعادته ، فامتنع
عن مقابلته ، ودخل على زوجته من غير انباء سابق بدخوله وعنفها على
تشبها بمذهب البروتستانت ، واثار عليها بترك مذهبها . ولما جاوبته

بخشونة احتدم وصاح في وجهها قائلاً ما انت اهلا لان تكوني زوجة امير
من آل بوربون ، ولقد اتيت حماقة فظيعة يوم خطر لي الاقتران بك ! ثم
تركها وهو يقول ، من حسن الحظ ان اقترانا ذلك لا يدوم ابدا !...
وكانت كاترين قد لاحظت ملك النافار فرأته يقترب الى ماري ستوارت
ويحدثها هما ، ففهمت معنى ذلك الهمس . وكذلك تبه الدوق دي
جيز اليه الا انه لم يفهم المراد من تلك المجاملة فقالت له كاترين ، لا جرم ان
ماري تروم الاستيلاء على القلوب التي تمل اينا . قال ما معنى هذا
الكلام ؟ قالت ، انها تتودد الى ملك النافار كما كانت تتودد الى زوجها .
وعلى بالامس ان دامفيل قضى سحابة نهاره عندها ...

قال الدوق ، اتعنين دامفيل ابن مونموراني ؟
- نعم ، ولقد حدثتني بهذه الزيارة الآتية دي موفال فقد سمعت
ماري تقول لئن ماتت زوجة دامفيل فاني اتخذه بعلا .
- هذه وشاية كاذبة .

اجابت كاترين ، لعلي اليوم وشاية ، لكنها غدا تغدو فضيحة ، فلا
ينبغي ان تفسح لها مجالا . ولما انتصف الليل اقبل الدوق دي جيز على
ماري ستوارت وقال ، هيا بنا ناسفر .

فاجابه ، لا اسافر الليلة ولكن بعد بضعة ايام !
قال ، لقد اعددنا الالهة للسفر ، وهؤلاء سفراء مملكتك ينتظرونك
في (ليث) فتى خرجت من المرقص البسي معظم السفر فرتحل عن
فوتنبلو قبل طلوع النهار . وانتشر خبر سفر ماري . ولما صعدت الى
مركبة السفر تألف حولها جمهور زاهر من اهل البلاط ليشيعها ، فظلت
تنوهم انها ملكة حتى الدقيقة الاخيرة ، وكان الدوق دي جيز الى جانبها ،
وكثيرون من الاشراف قد احلقوا بها ، ورام بعضهم ان لا يفارقها الا بعد
وصولها الى اسكتلندا . فذرفت عيناها دمع الامى والاسف ، واراد ملك
النافار لحاقا بالاصدقاء الذين شيعوا تلك الملكة الراحلة ، الا ان الملكة
الوالدة نادته بحجة ان له شغلا عندها بشؤون المملكة . فلما انتهى لخب

القوم المسافرين وابتعدوا تنهدت كاترين كمن استراح من تعب وقالت ،
الآن صرت ملكة فرنسا ! أما الدوق دي جيز فرجع وهو يقول ، لا بد من
استئاف النضال ، وها انا وانت يا كاترين ، وسرى من يفوز !



ولما انعقد مجلس الحكام لم يظهر الدوق في البلاط الا نادرا ، واقتدى
به مونسوراني والماريشال سن اندرة . وحضر المجلس الكردينال دي
لورين وملك النافار فأبصروا باعينهما كيف تقلص ظل نفوذهما . ثم انقض
المجلس دون ان تظهر نتيجة لاعماله .

وفي اليوم التالي كانت كاترين في مكتبها تطالع كتابا مجلدا تجليدا
نفيسا فامتنعت عن المطالعة هنية لتخلص مياستها . وقالت ان امير كوند
عدو للدوق دي جيز ، فهو ينصب له الاشراك ، وملك النافار عدو للكردينال
اخي الدوق ، ومونسوراني خصم لسن اندرة ، وهذا عدااء يفرق بين
الجميع ويسلطني عليهم ، والفضل في ذلك يعود الى مواطني واضع هذا
الكتاب .

ونظرت في كتابها وقالت ما اجمل هذا الفصل . وكان عنوان ذلك
الفصل « أقسم لملك » واسم مؤلف الكتاب ماشياغل (١) .
على ان كاترين فاتتها امر واحد وهو ان هؤلاء الكبار المتعادين قد
ادركوا مرامها ، لان الماريشال سن اندري والدوق دي مونسوراني تلقوا
في ذلك المساء رسالة من الدوقة دي فالنتينو (وكانت هذه المرأة ذات
نفوذ على الاميرين) ، واليك نص الرسالة :

(١) Nicolas Machiavel مؤرخ فلورنسي ، توفي ١٥٢٧ .

« اذهب عند منتصف هذه الليلة الى قصر اللوفر دون ان تدع احدا يعرف من انت . هناك صديق مخلص ينتظر وصولك . فاصعد الى الطبقة الثانية واضرب الباب الوحيد الذي ترى تحته نورا اما كلمة المرور فهي ، فرنسا ولورين » .

« ديانا دي فالانتينو »

فذهبا في الوقت المعين دون تردد ، فكانا في منتصف الليل عند باب واحد ، فعرف كل منهما الآخر . فقال المارشال ، ما جاء بك الى هنا يا ميو دي مونسوراني ؟ فاجابه ، وانت اي امر ساقك الى اللوفر ؟ ثم نظر كل منهما الى الباب وقالا معا ، هذا باب حجرة الدوق دي جيز .

وقال الاثنان معا ، انه عدوي الالد . وعندئذ انفتح الباب وظهر الدوق يحمل مصباحا فقال لهما ، ادخلا ايها السيدان ، فان مدام ديانا كتبت اليكما عن هذا الموعد بعد ان طلبت منها الكتابة اليكما . فبهت الرجلان الا انهما دخلا حجرة الدوق فقدم اليهما كرسيين وجلسوا الى مكتب عليه ورقة كبيرة بقربها دواة واقلام واختام .

فقال مونسوراني ، الا توضح لنا معنى هذه الدعوة ؟

قال الدوق ، الا يدهشك قدومك الي ؟

— اني متعجب من امرين ، احدهما اجتماعي بك لانك كنت على الدوام عدوي ، والآخر انني ألقاك في هذا القصر بدلا من ان تكون في قصر آل جيز .

— لو كنا في قصر آل جيز لراقبتنا العيون ، اما في هذا القصر فما من احد يظن ان ثلاثة رجال مثلنا يدخلونه من غير حاشية . ولو كنا في غير هذا الوقت لما صلح قصر اللوفر لاجتماعنا ، اما اليوم فهو خير ملجأ لنا لغياب كاترين .

قال مونورانسي ، وهل اتينا الى هنا للقيام بؤامرة .

اجاب الدوق ، كلا يا سيدي ولكن للدفاع عن انفسنا . وما فرق بيننا
الا مصالح زهيدة جدا ، ولذلك اردت ان اصافحكما معترفا بخطائي ، واني
اقدم ولاية (دمارتين) ضمانة على صدق كلامي وعربونا لصدقتي . ومد
يده الى مونورانسي فصافحها من غير اهتمام ، منتظرا اتسام المحادثة .
فقال الدوق ، لا بد من تناسي احقادنا ، ثم الاهتمام باتحادنا لمقاومة الخطر
المحدد بنا ومصدره امرأة .

فقال الرجلان معا ، كاترين ؟

ـ نعم كاترين التي تناولت مقاليد السلطة من غير حق ، وعيثت بحقوقنا
وبالقوانين الفرنسية ، وشرعة الافرنج تمنع الناء من التملك ، بل
تسمنهم من الوصاية . ولئن لم تتخذ كاترين لقب « الوصية » لاعتراض
مجلس الحكام ، فقد قبضت على السلطة ، وارادتها اصبحت مطلقة .
واشرت فيها ملك النافار ، وهو غبي مغفل ، وامين الاختام ، وهو شيخ
تولاه الخرف ، والاميرال كوليني ، وهو بروتستانت المذهب ، فذلك لا
يمكن دوامه .

قال الاميرال سن اندرة : نعم ذلك لا يمكن دوامه .

وقال الدوق ، ولم تكف كاترين بذلك كله بل اعلنت انها عازمة على
مقاومة خدم الملك المتوفي وهنري الثاني . واسماء هؤلاء الخدم
مونورانسي ، وسن اندرة ، ولورين .

قال المارشال ، ان هذه الايطالية تستوجب ان يعلق حجر في عنقها
وتطرح في السين .

فقال الدوق دي جيز ، لا ينبغي ان ننسى ان عدوتنا امرأة ، وحبنا

ان نجعلها في دير بعيد . اما قتلها فلا يليق بنا ... ولا سيل الى الظفر
بهذه المرأة الا اذا اتحدنا اتحادا ثابتا وتعاهدنا على التعاون بجميع
الوسائل .

قال المارشال ، اني اسير معك في هذا الطريق ايها الدوق . وتردد
مونوراني شيئا لان وفاءه القديم للبيت المالك كان حائلا دون موافقته
على ذلك الاقتراح ، لكنه ذكر ان هذه المرأة تروم ان تعامل كبار الدولة
كما تعامل وصائقها .

فقال الدوق ، الا تقبل يا ميرومونوراني بما قلنا به ؟
فاجاب ، بل قبلت ورضيت .
فأتى الدوق الى الاميرال وقال له ، أتروم ان نكتب اتفاقنا على ورق
ونوقع عليه ؟

فاجابه الاميرال مرتبكا ، قال ، بل الكلام يكفي .
وقال الدوق ، الكتابة افضل .
- انني لا احسن الكتابة الا قليلا فاكذب الاتفاق انت .
- ان خطي لا يقرأ .

فقال مونوراني ، اما انا فلا احيد كتابة شي .
وقال الدوق ، هنا ثلاثة اختام لمونوراني ، وسن اتدري ، ودي
جيز ، قد اصطنعها اخي الكردينال . ولكن مالنا ولها فنحن اشراف والقسم
يكفي بيننا . ثم جرد سيفه ووضع على المكتب وقال . انا نقسم بأسيافنا
على اننا نتحد ضد الملكة كاترين وتعاون عليها تعاون صدق وامانة في كل
عمل نباشره . فجرد سن اندره ومونوراني سيفهما وقالوا ، انا نقسم
على ذلك .

الفصل السادس والعشرون

(جالير)

في اوائل سنة ١٦٦٢ كانت كاترين ظافرة بخصومها . فذهب مونمورانسي الى شاتيلي وبقي المارشال سن اندره في باريس ، اما آل جيز فارتحلوا عن البلاط وقالوا انهم يفضلون الابتعاد عنه ما دامت كلمة النافار اعلى من كلمتهم ، وما دامت الملكة قد انتزعت السلطة من ايديهم وسلمتها الى ملك النافار والاميرال دي كوليني وغيرهما . ولما رأت كاترين انها لا يستتب لها الملك الا بالانضمام الى حزب او طائفة ، عمدت الى كبار ابناء طائفة البروتستانت فاتخذت قوتهم سنداً لها ليدافعوا عنها ، وقت حلول الاضطرابات . وكاترين هي التي ذبحتهم بعد ذلك ذبح الاغنام كما ترى . ولقد احسنت معاملتهم وقتئذ وبوأتهم صدور المجالى .

ومن سوء حظ الملكة الوالدة ان ياستها لم تخل من موضع وهن ونقطة ضعف ، فانها قبضت على السلطة واشركت فيها ملك النافار وهي غيرى منه . ولما آتس هذا الملك شيئاً من القوة ندم على تخليه قبلاً عن الوصاية وهي حق شرعي له . وكان يزعجه تحكم الملكة واعوانها ، ومعظمهم بروتستانتيون . فهمس الهامسون في اذنه يقولون له ان السلطة بين يدي غلام . فان الاخ البكر قد مات لضعف دمه ، وربما كان اخواه مثله لاحقين

به ، ويومئذ من يكون الوارث غيرك ؟ انت اول امير من الدم الملكي ، غير ان فرنسا لا تطيق ان يجلس على عرشها رجل بروتاتني . وهكذا تضحل خلافة آل فالوي ... وتبدل بغيرها ، والله اعلم بمن ؟

ثم كانوا يهسون في اذنه كلمات عن ماري ستوارت وهم يعلمون ان لجمالها وقعا عنده ، فحسوا له الاقتران بها قبل ان تقرن بغيره ، هذا اذا اعتنق المذهب الكاثوليكي علانية . وماري ستوارت ملكة اسكتلندا ، ولا يبعد ان تغدو ملكة انكلترا ...

الا ان ملك النافار ظل مترددا . الى ان قرأ يوماً اعلاناً كأنه صادر من البروتاتنيين (وقد ظهر تزويره نكاية بهم) وهم يهزأون به ويتغزلون فيه بجمال ماري ستوارت . فهمهم ودمدم وقال ، سرف يرى البروتاتنيون الملاءين كيف اغيظهم واسحقهم .

ولما عاد عند المساء الى فوتنبلو اعلن للجميع انه اعتنق المذهب الكاثوليكي وطلب من زوجته الاقتداء به . فرفضت وامتنعت ، فأمرها بالفر الى غاستونيا . واما كاترين فآثرت فيها النبا وفكرت في التدابير التي تتخذها لمعارضة اماني ابن عمها .

ولما انعقد مجلس الحكام طرحت امامه مسألة محاسبة البروتاتنيين وامناعهم بالحقوق العادلة التي يطلبونها ، وهذه مسألة كانت منبوذة في عهد فرنوا الثاني ، فطلبت اصدار براءة بها ...

وفيما كان المجلس منعقدا والبحث دائر فيه بين الوزراء البروتاتنيين وامين الاختتام ، وبعضهم يهنيء بعضا ، اقبل ملك النافار مدججا بسلاحه والغضب باد على وجهه ، فوجه خطابه الى كاترين وقال بصوت جهوري ، لنا نريد ان تتم هذه المسئلة دون مصادقتنا وموافقتنا . ان فرنسا بلاد

كاثوليكية ، وانا رجل كاثوليكي فلا ارضى بأن يعتقد مجلس الملك الخاص على هذه الصورة المعيبة .

قالت الملكة ، لقد نسيت نفسك يا ابن العم .

قال ، كلا لم أنس نفسي . فانت تدرين ايها السيدة ، كما ادري انا ، ان هؤلاء المتشذبين بالمذهب الجديد محتالون مناققون ، فلا بد من اخراج هذا الوباء من البلاط . وقد آن للمخلصين في خدمة الملك ان يظهروا اخلاصهم !..

واسهب في الكلام ، فانحى بالتعنيف على امين الاختام وسائر الحضور . الى ان قال ، نعم ايها الملكة ، اطردني هؤلاء القوم او فانضمي اليهم . اما انا فاني انبذهم واقاومهم ، ويحق لي ان اكون الوصي على الملكة ، وساكونه اذا شئت . ولا تنقضي ايام قلائل حتى تري ابناء عمك آل جيز ههنا ، والكردينال اخاء ، والمارشال بن اندري ، والميودي مونورانسي ، وسائر القوم الكرام الذين رأيت ابعادهم عنك ، فأولئك اقرب الناس مودة الى الملك ...

ولم تطع الملكة ثباتا امام ملك النافار ، فلطالما خادعته من قبل . فأتهم خطبته قائلاً ، اذا لم يرتحل عن البلاط ، كولينسي ودندلوت البروتاتيان ، فهو يأمر الجيوش بانتشال الملك ، ويحق له ان يفعل لانه نائب الملك وصاحب السلطة على الجند .

فاضطر كولينسي ودندلوت الى الاستقالة وسافرا الى باريس لاحقين بأمير دي كوندé .

اما امير دي كوندé نفسه فكان متميلاً متضجراً من الإقامة في باريس لبعده عن بلاط الملك ، وكذلك كان جاليو فانه مل الإقامة بعيداً عن مارسلين لانها ما برحت مع زوجها وقد انضم الى الكردينال ولاذ بحمايته .

وكانت المجادلات الدينية في ذلك الوقت تنزق وحدة الامة المنقسمة الى طائفتين وتعتقد كل طائفة انها افحمت غريستها بالبراهين الدامغة والحجج القاطعة . وفي اثناء ذلك تلقى امير كوندان آل جيز قد استعادوا سطوتهم ورفعوا رؤوسهم وتهيأوا للرجوع الى البلاط ، فعهد الى جاليو بالمراقبة والاستطلاع ، فقال وافرحناه بهذه المهمة التي عهدت بها اليّ يا مولاي . فقال له ، الا تزال مقيما على هوى زوجة افيل ؟ اجاب نعم يا سيدي ، فقد تعرضت لهذه الحادثة الغرامية ضاحكا ماجنا ، اما الان فلا اخص بحياتي في سبيلها .

قال اذن سافر يا جاليو وامرح بين الهوى والياسة كما تشاء ، وانما كن حكيما .

فسافر جاليو في اواخر شهر يناير (كانون الثاني) بعد ان ودع امثاده برنابا ، فوصل الى مدينة جواتفيل حيث يقيم آل جيز والكردينال . فدار في البلد دورة حتى اهتدى الى منزل المحامي افيل . غير ان بيوت البلدة كلها كانت مقفلة وعلى ابوابها الحراس كأن الحرب قائمة حولها . فاضاع جاليو اسبوعا كاملا من غير ان يلتقي بمارسلين او يتمكن من ارسال كتاب اليها . وكاد يأس منها عندما علم ان الدوق عازم على الاياب الى البلاط ، فبحث تقريرا الى امير دي كوندان ، ثم لبث محتجبا في المدينة يقول في نفسه ، لا يطيب للعشاق شيء مثل السفر المفاجيء . ولاح له ان الدوق لا يصل الى باريس الا بعد ان يحدث حدثا في طريقه . الا انه لما رأى موكب الدوق احس بكتابة عظيمة لانه رأى جيشا حقيقيا قد تألف واجتمع في ضواحي جواتفيل وفيه جنود المانيون . فلما كان اخر شهر فبراير (شباط) تحرك ذلك الجيش . فعاد المحامي افيل البلد لاحقا بيديه الكردينال والدوق ، سائرا بجانب المركبة التي فيها زوجته وبعض النسوة فلم يتمكن جاليو من

اللقاء كلمة اليها . ووصل الدوق الى مدينة فاسي في اول مارس (آذار) ، فنزل فيها عند والدته العجوز الاميرة دي بوربون ، وقال لها ، الا يزال اعداء ديننا كثيرين ههنا ؟ قالت : نعم والاسفاه ، واني لفي يأس شديد من اصلاح هذه الحالة السيئة لاني اسمع ترنيهم وصلواتهم كل يوم من قصري هذا . وسوف ترى بعد هنيهة اننا لا نستطيع الجلوس الى مائدة العشاء . قال ، سوف نكرهم على السكوت !

ولقد رافق جاليو مركب الدوق ولم يتمكن في اثناء ذلك الوقوف من مراقبة مرسلين لانها دخلت قصر والدة الدوق . فتجول في المدينة وكان عارفا ان اكثر سكانها من البروتستانتين : واخذ يفكر في تقرير يكتبه الى امير كوندا عما رأى وسمع . وفيما هو كذلك أبصر جمهورا غفيرا ذاهبا لسماع الوعظ . وكان البروتستانتون يجتمعون في مكده من مكدهس القمح ، ويسمعون الوعظ هناك ، اذ لم تكن لهم معابد يعظون فيها . فقال جاليو في نفسه ، لا شك انهم يتدحجون امير كوندا ، وهذا امر يعزيني شيئا عن لقاء مارسلين .

وبدا البروتستانتون وكان عددهم ينيف على الف ومائتي رجل في الترنم بأناشيدهم . واذا بباب المكدهس يقرع وقائل يقول ، افتحوا فاننا نروم سماع الوعظ .

ففتح الباب من كانوا على مقربة منه . ثم تقهقروا مذعورين اذ رأوا جماعات من الاشراف لم يشكوا في انهم من حاشية الدوق دي جيز . فقال البروتستانتون لهم ، ما حاجتكم ؟ قالوا ، لا حاجة لنا الا لسماع الوعظ كما انباناكم .

وحاول بعضهم الدخول ومزاحمة الحضور فادرك البروتستانتون ان اولئك الاشراف انما جاؤوا ليهزأوا بهم ، فاطبقوا الباب وصاح احدهم

متألماً يقول ، ويل لكم فقد سحقتم قدمي . وكان المتكلم ملازماً من ضباط
الدوق دي جيز وقد حشر مصراع الباب قدمه ، ففتحه البروتستانتيون
مرة ثانية ليتمكن من تخليص قدمه فبادرهم الكاثوليكيون بالباب
والشتم .

واذ ذاك وصل ضابط من ضباط الدوق يقول ، حسبكم يا قوم ! ان
الدوق يطلب منكم ان تسكنوا لان اناشيدكم تمنعه من تناول عشاءه ،
فأجلوا صلاتكم الى وقت اخر ان شئتم !

فهاجت هذه الكلمات حق البروتستانتين وصاحوا قائلين ، الا لعنة
الله على الدوق واسرته انهم للمحدون !

وقلق جالير واحس بانه ارتكب خطأ في دخوله بين القوم ، فترمل
(تلفف) بردائه واخذ يتخطى الرقاب الى ناحية الباب وهو يقول في نفسه ،
سوف اعلن للقوم انني كاثوليكي المذهب فاتسكن من الانصراف ، وويل
لن يمنعني من المرور !...

ومد يده الى قبضة سيفه وقد وصل الى الباب فما لبث ان رأى رجلاً
طويل القامة قد وقف امامه فتفرس في وجهه فعرف انه الدوق دي جيز
جاء بنفسه . وقبل ان يحتجب عنه جالير كان الدوق قد رآه فصاح ، هذا
وصيف امير كوندّة اذن هي ثورة مدبرة !

على انه لم يصدر امراً . وفي اثناء وقوفه اصابه حجر من داخل المكدس
في خده فجرحه جرحاً خفيفاً ، فسال دمه غزيراً فقال ، هذا لا يطاق الا
هجوماً على اولئك الملحدين ، اقتلوهم يا اصدقائي ، ولا ترحمهم !

وكان البروتستانتيون وقتئذ دون سلاح ولا يكادون يقدرّون على
جمع الحجارة للدفاع عن انفسهم ، وتواثب رجال الدوق الى المكدس
لتلهّأ كل من عجز عن الفرار . وسكر جالير برائحة البارود ومنظر

اليوف ، ومع انه لم يكن بروتستانتيا لكنه كان عدو الدوق دي جيز .
لانه وصيف امير كوندة . وكان الدوق يتقدم ليلحق به وهو في مقدمة
بعض الرجال ، وقال له اظننا قابضين عليك في هذه المرة ، فلا تنجو منا .
فاجابه ، مهلا يا مولاي .

وجعل يتقهقر باحثا عن منفذ ، وهم احد الجنود بان يطعنه بحربة
فاجتنب جاليو الطعنة ، وضرب الجندي بخنجره فطرحه صريعا . وفرق
الزحام بين جاليو والدوق فاتهز تلك الفرصة واختطف غدارتين من احد
الجنود .

وكان البروتستانتيون قد اهتموا الى عدة منافذ فجا بعضهم من باب
كبير ، وصعد آخرون في سلم كان في داخل المكس الى السقف . ففكر
جاليو في الفرار من احد هذين المنفذين ، الا ان الزحام كان شديدا جدا
فخاف ان يلحق به الدوق ويقبض عليه فيأسره او يقتله وهو لا يستطيع
مقاتلة عشرين او ثلاثين من المهاجمين المدججين باللاح ، وكان منهم عشرة
رجال هاجموا عليه . فمشى وظهره الى الجدار ، وهو يأل الله مخرجا
من ذلك الضك ، واذا بباب ورائه كان مغلقا ففتحه وخرج منه بامرع من
لعظة . فهدر الدوق وزمجر . اما جاليو فنظر الى الموضع الذي وصل اليه
فعلم انه موضع ضيق عند اسفل سلم ، فاعلق الباب وصعد في درج السلم
فوصل الى مكس صغير كان مبيدا فوق المكس الكبير وله نافذة
ضيقة ، فقال في نفسه ، اهرب من هذه النافذة اذا ترك لي الدوق الوقت
الكافي .

وكانت رائحة التين والهشيم الجاف ملء المكان ، فالتقى جاليو نظرة
الى ما حوله فابصر زكائب الهشيم مجموعة في زاوية ، وسع وقع خطى على
السلم ، فلم ير بدا من العمل ، فانحى على السلم واطلق رصاصة من احدى
غدارتيه .

فقال قائل ، سلم نفسك ! فإن رصاصك لم تصب احدا ، وانا
لنابضون عليك لا محالة !

فضحك ، وقال ، مهلا يا مولاي !

وللحال خطر له خاطر عجيب ، اذ دنا من احدى الزكائب فاطلق عليها
النار من العدارة الثانية .

فصاح الدوق وهو على السلم ، لقد اخطأ رصاصك المرمى مرة ثانية .
فقال جاليو ، كلا يا مولاي ، وسوف ترى بعينك .

واشتعل يابس النبات والهشيم ، وكان جاليو يطرح النار على مائر
الزكائب ، ولما اقتربت الخطى رمى باحدى الزكائب المشتعلة الى السلم ،
فتدحرج الصاعدون عليه . وقال الدوق ، قاتل الله النعين ، أترأى ينجر
دائما ؟

ولم يكن من سبل الى الوصول الى جاليو ، لان الزكائب اشتعلت
واتشر الدخان حتى امتلا به السلم . فتسلق جاليو الى السطح وشاهد من
هناك ما جرى . فابصر رجال الدوق يطاردون البروتستانتين وهم يفرون
منهم في كل مكان ، وقد تبعثرت جثثهم الدامية على الكلاء الاخضر ، وطلع
السيدات والاشراف الذين كانوا يتعشون في قصر الاميرة دي بوربون ،
والدوق دي جيز الى الشرفات فكانوا يشاهدون تلك المعجزة ويرشدون
الجنود الى مكان البروتستانتين ليفتكوا بهم !!

وكان السطح الذي صعد اليه جاليو في ناحية اخرى فتدلى منه الى
بتان خال ، في طرفه غيضة ، فاجتازها حتى وصل الى فناء متسع .
فارتفعت اذ ذاك صيحات مقرعة فوقه ، فرفع رأسه وادرك انه رمى نفسه في
فم الاسد ، لان ذلك الفناء كان فناء قصر والدة الدوق دي جيز . فقدم

وشتم . وصاح الرجال من شرفاتهم ينادون الجند ويرشدونهم اليه ويقولون ، تعالوا الى هنا ، يوجد هنا واحد من البروتستانتين !

وكان هناك سلم يقضى منه الى الشرفة التي صدرت منها الصرخات ، وصعد جاليو في السلم غير متردد فوصل الى الشرفة . وهناك سمع قائلاً يقول ، انه على السلم ، فأطلقوا النار عليه !

فتلقى الجنود السلم لاحقين بجاليو . ولما وصل الى الشرفة اصاب باضطراب شديد ، لانه رأى جماعات من الاشراف والسيدات والقسيسين هناك ، وقد هاجهم التعصب واسكرهم منظر الدم . ووقع بصره على امرأة بينهم كانت مطرقة والدمع يترقرق في عينيها . ولم يدر في خلد احد ان الرجل الذي يدلون الجند عليه ليقتلوه قد صار بينهم ، لانهم لم يرينه حينما دخل الشرفة ، فقد كانوا كلهم مطلين على القناء . فمشى الى المرأة الباكية وناداه ، مرسلين ! . قالت ، أسأل الله ان يتقدر لك النجاة مما انت فيه .

فأثني الحضور ، وكان المحامي اقليل في جملتهم وهو الذي فضح جاليو لانه رآه نازلاً عن السطح الى القناء فارشد اليه الجنود الكاثوليكين . فنظر اليه جاليو في بدء الامر نظرة صعقته وسرته في موقفه ، الا انه تماسك لساعته ، وقد شعر بمساعدة حملة البنادق فشم جاليو ، ثم اجتذب مرسلين بعنف ، الا ان هذه تراجعت مرتاعة ، فلطمها زوجها وهو يحتدم غيظاً منها . وانتصرت السيدات اذ ذاك لمارسلين، فشهروا جاليو سيفه وتقدم الى المحامي وقال له ، لماذا اهنت هذه السيدة ؟

فقال له ، ويك ! كيف تتجرأ على هذا السؤال يا ابن اللثام . هل ظننت انني نسيت ليلة قوتبلو . . . ايها الجنود اطلقوا النار على هذا الخائن الذي اجتراً على زوجتي . . .

فصرخت مارسلين ، بل انا اهواء يا ناس واتمنى ان اموت معه . . . بل

انا احمرّ خجلا من ان اكون زوجة نذل جبان مثل هذا الوحش ... ويل لك ! اما كان الاجدر بك ان تبارز الرجل بدلا من ان تأمر الجند باغتياله مع انه كاثوليكي وانت بروتستانتى .

واعترافا ارتعاف وارتعاش فاغمي عليها ، فتقهقر افيل مستقم اللون مذعورا . واذا باحد الجنود قد دنا من جالو فقال له ، اكاثوليكي انت ام بروتستانتى ؟

فاجابه ، لت ادري يا اخي ، غير ان معي اربع غدارات محشوة ، فلكل منكم اتم الاربعة واحدة منها . وفضلا عنها فهذا سيفي وذاك خنجري ، فانا الاقوى . دعوني امرّ والا فويل لك ولرفاقك !

ولعل الجنود رأوا في كلامه نصحا صادقا فابتعدوا عنه . والتفت الى المحامي وقال ، انت جبان ، وكان يحق لي قتلك ، ولكنك لا تقوى على حمل سلاح ولست اريد اغتيالك . فانا ذاهب ، وويل لمن يتجرأ على اللحاق بي .

ثم حمل مارسلين على ساعديه ومار بها قبل ان يتمكن المحامي واصدقاؤه من امساكه فقد تولاهم الدهش والحيرة ، وارتدوا عنه لعلمهم انه كاثوليكي .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل السابع والعشرون

(الدوق دي جيز والملكة كاترين)

ولما علم الدوق دي جيز بما فعل جاليو قال ، وأأسفاه ، ليت لي مثل هذا الشهم البطل . وسافر في ذلك المساء بعينه الى باريس بعد ان امر بالتخري عن اسباب المذبحة ، واستدعي اليه حاكم المدينة ، فقال له ، لماذا تأذن بمثل هذه الاجتماعات ؟

فأجابه ، أليس ذلك مطابقا لما جاء في الامر الجديد ؟

قال ، عن اي امر تتكلم ؟

اجاب . انكلم عن البراءة الصادرة في شهر يناير (كانون الثاني) بشأن اطلاق الحرية لمباشرة البروتستانت شؤون دينهم ، والاذن لهم بالاجتماعات في المدن غير المقفلة . وفاسي مدينة غير مقفلة .

فأجابه ، ان امر يناير لا يدوم ، وقد آن وقت اياها الى باريس للدفاع عن دياتنا المقدسة . وبعد ايام وصل الدوق الى غاتيل فوقف فيها ليعلن لجيشه وقت الفر . وانتشر الخبر في باريس وضواحيها عن قرب وصول الدوق دي جيز اليها ، وبلغ امير كوندرا قبل سواه لان جاليو انبأ به . فكتب الى كاترين يسألها اصدار اوامرها بذلك الشأن ، وارسال الجنود .

الا ان الملكة الوالدة كانت عزلى ، بل آثرت الالتجاء الى المكر والخديعة ، فبعثت برسالة الى الدوق دي جيز تظهر له فيها الحب ، وتبثه الشوق ، وتقول له انها تود ان تراه لتساوره في شؤون البلاد ، وتختتم رسالتها بقولها :

« لا تدخل باريس ، فان لك فيها اعداء كثيرين ، بل اقدم اليّ واجلس في موضعك في مجلس الملك ، وهيهات ان تجد اقرب اليك مودة من هذه الكاتبة اليك » كاترين .

تلقى الدوق هذه الرسالة وهو في نائيل فصاح ، واما لك يا ابنة عمي الحناء ، فقد طردتني عندما حسبت نفسك اقوى مني ، اما الآن ، وقد اربك جيئي ، فانك ترومين التفريق بيني وبينه !! كلا ، ذلك لا يكون . وانما ادخل باريس حينما اشاء ، وسوف تعلمين اي استقبال يكون لي فيها .

ولم يجب الملكة على تلك الرسالة . فارتفعت ورأت نفسها في منزل ، فامرت ترولوس بالتأهب للرحيل في يوم ٢٥ مارس (اذار) (ارتحلت عن من جرمين حيثما كانت يومئذ واتجهت الى مونصوانبري) وقد احست بالخذلان لان جيوش كوندان لم تكن متأهبة وقد تركها الاميرال عقيب ما بدا له من وقاحة ملك النافار فكادت تجن ياأس ، فاشارت على امين الاختام بالذهاب الى باريس فقال لها ، ازالتي حظوتي عندك يا سيدتي ؟؟

فاجابته ، كلا ولكن زالت اللطة من يدي . وكان موكبها محزنا ليس فيه الا قليل من حملة البنادق وقليل من الاشراف للدفاع عنها . وكان اولادها سيكون ، فتركت موكبها يسير من غير ان تتكلم . وفيما هي خارجة من سن دنيس اشرف ترولوس على مركبة الملكة وقال لها ، ارى جيشا مقبلا من طريق اخر لا يقف ...

قالت ، أوجد من يتجراً على الوقوف في طريقي ؟؟ ومن يكون ! إلا
جرد سيفك ايها القائد واهجم على هؤلاء الوقحاء . وكان ترولوس ينتظر
مثل هذا الامر لتأمله من تصاغر الملكة ، فشهريه وتقدم الى الجيش وهو
يصيح ، قفوا ايها السادة فهذا الذي ترونه امامكم موكب الملك !

فأجابه قائل ، لقد كنت اعرف ذلك .

قال ، تعرف ذلك وتتقدم ؟؟

وتوقف ترولوس مبهوراً لانه عرف ان المتكلم هو مونسوراني ، لكنه
لم يتمالك ان قال ، انت يا سيدي اول قائد في فرنسا . ومن العجب انك
تأبى التسليم على الملك وتأبى الا ان تعرض طريقه .

قال ، ابتعد يا هذا والا امرت رجالي باغلاق النار عليك .

فأجابه ، اطلق النار عليّ ان شئت ، ولكنني لا ادعك تهين الملك والملكة
الوالدة . هذا وموكب الملكة الوالدة يقترب . فضمضها الغيظ واذهلها
الدهش لان مونسوراني رآها ولكنه تظاهر بأنه لم يرها . وجمع ترولوس
جنوده حوله وكاد ينشب القتال لولا ان الملكة امرت حاشيتها بالاقتراب
بها الى الميو مونسوراني ، فلم يرفع لها قبعة ولم يترجل عن جواده بل
قال لها ، ماذا تروين ايها السيدة ؟؟

فصاح ترولوس ، يا لك من شقي !! الا ان الملكة تلافت ما يحتمل
وقوعه من قتال بين رجالها وجيش كيف لا قدرة لهم عليه ، ورأت من
واجباتها انقاذ حياة ورثة عرش فرنسا ، فالتفت الى ترولوس وقالت له ،
دع سيفك في غمدك يا كونت ، وما دام الميو دي مونسوراني يأبى التسليم
علينا فنحن لا نساء .

فقال لها هذا بلهجة جافية ، تعذرني ايها السيدة لانني مستعجل جدا
ولا يعني الا المبادرة لالقي الميو دي جيز في ناتيل .

قالت ، اذن انت ذاهب الى ناتيل ؟

اجاب ، نعم ، فاني اروم مقابلة الدوق قبل دخولنا البلاط لتدير ما لا بد منه .

فأدركت كاترين المراد من ذلك التدير ، فامرت رجالها بمواصلة السير ولم تعقل برجال مونسور انسي . فاختلط الموكبان ، ولولا كاترين لساءت المعبة . وكان ترولوس محتدما هائجا لانه اضطر الى ابقاء سيفه في غمده في فرصة من احسن الفرص لتجريد ذلك السيف . ولما اطل على مركبة كاترين رآها تبكي وتمزق منديلها باسنانها ، فقال ترولوس ، لماذا لم تدعيني اقتل هذا الخائن الذي اجترأ عليك بالاهانة ؟

قالت ، صبرا يا ترولوس فلو تركتك تفعل لقتلوك واسروني واتشلوا مني الوصاية التي حرصت عليها برغصهم جميعا . آه ، ويل للاشقياء ، فلنوف اعاقبهم ... فصبرا !!!

وبكت مدة الفر وكانت تسأل نفسها عما اذا كان قول القائل « اقم لملك » كافيا لبط سلطتها وتملكها . فلما وصلت الى مونصوابري دعت اليها ترولوس وقالت له ، انا هنا في امن ودعة ، الا انني بعيدة جدا عن باريس وبعد ايام اذهب الى فونتنبلو . فانطلق انت الى باريس واجتمع بأمير كوندو وقل له انني لا جنود لدي ولا حاشية للدفاع فليجمع حزبه واعوانه وليقدم سريعا . سر يا حبيبي ترولوس ولا تعد الا ومعك جيش عرمرم .

فسافر ترولوس الى باريس ، وفي اليوم التالي لقي الامير في قصره وكان الجميع في قلق وانزعاج . فقال له الامير ، هل اتيت لتعني بسيفك ؟ فاجابه ، وأأسفاه يا مولاي ! انت تدري ان سيفي للملكة . ولكن اذا كان هناك خطر يحيق بك فاني ...

فبقه الامير الى الكلام قائلاً ، اني اجهل ما يكون ، ولكن لا بد من وقوع حوادث هائلة . فاين الملكة ؟

اجاب ، في مونسوانبري ولا تلبث حتى تأتي الى فوتنبلو وهناك تنتظرك انت ورجالك .

فقال الامر ، لو ان سيقي يكفي للدفاع عن كاترين دي مدسيس لقدمته لها راضيا مرورا ، ولكن ماذا يفعل سيقي في لقاء جيش الدوق دي جيز ؟

قال ترولوس ، ليس للملكة الآن من يدافع عنها !

اجاب الامير ، اني مثلها يا ترولوس ، اجمع جنودي ولكنني لا ادري متى اجمعهم واقاوم بهم اعداء الملك ...

قال ترولوس ، لقد امرتني الملكة يا سيدي ان لا افارقك وان ارجع بك اليها الى فوتنبلو من غير امهال .

فأطرق الامير هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال ، اني عازم على الدفاع عن الملكة وذلك من واجباتي . ثم خفض صوته وقال ، بل من مصلحتي .

قال ترولوس ، ان الملكة لا ترجو المساعدة من احد سواك .

— ولكنني لا استطيع الارتحال عن باريس من غير سبب معقول بينما الدوق ينوي القدوم اليها .

— هل يتجرأ الدوق على ذلك ؟

اجاب الامير ، ان ولاية الملك قد انتزعت من يد الملكة يا ترولوس وصارت الى يد حزب الدوق دي جيز ، وسوف ترى دخوله غدا الى باريس ، فليست اريد ان يقال اني قررت منه . والآن قل لي ، هل تكذب في بيل هناء الملكة ؟

قال ، بل اقدم على كل شيء في ذلك السبيل .

قال ، ان اخي الكردينال حاكم باريس ، وهو رجل جان يتقباد الى آل جيز انقياد خائف ، فاذهب والقه وقل له ان الملكة ارسلتك اليه ليأمرني ويأمر الدوق دي جيز من قبلها بالرجوع سريعا الى البلاط . وسوف يرفض الدوق . اما انا فاطيع وفي ذلك مصلحتنا .

قال ترولوس ، الا يسكن الفوز بجيش من الاشراف ؟

قال ، اصنع الي يا ترولوس . فهل تحسب امير كوندّة جانا ؟

اجاب ، معاذ الله يا سيدي .

قال ، ثق ان اعداء الدوق دي جيز سيلجأون الى الفرار غدا من باريس لثلا تضرب اعناقهم . فاذهب واقض مهتك عند اخي وارجع فاقض ليلتك في قصري .

فقصّد ترولوس الكردينال دي بوربون ، شقيق امير كوندّا ، ولاحظ وهو سائر ان الطرق مزينة بالرجال الزينة ، وان الباريسيين فرحون بقدوم الدوق ، لا يكتفون فرحهم . وسمع كثيرين في الطريق يشرون نفوسهم بقرب وصوله .

ومما تبه اليه ايضا ان الكنائس كانت مفتوحة وكانت قد فاتت مواعيد الصلوة وان المارة يدخلونها كأنهم في يوم عيد .

فقضى مهته عند الكردينال دي بوربون ولم يخامر هذا ادنى انذهال من مثل هذا الامر ، لكنه قال لترولس ، لئن تيسر اتقاذ هذا الامر على امير كوندّا فلا يسهل اتقاذه على الدوق دي جيز . ثم قال ، على انني سأعجز ما يتعلق بي ، واقسم لك على ذلك . ومر ترولوس بفندق «نيكول بوصه» فلقى صاحب الفندق ، وقد اعد زينة بديعة فقال له ، ما هذا يا نيكول .

فتذكر نيكول ان ترولوس بروتستانتى ، وانه عدو للدوق دي جيز كسائر
ابناء مذهبه ، فاجابه ، ما هذا الا للاحتفال باحد الشعانين ، وهو عيد يقع
بعد غد .

قال ، لم اكن احبك متمسكا بالدين الكاثوليكي الى هذا الحد .
وابتعد وهو يفكر ، فدخل قصر كوردا فنام بعد ارق ، واستيقظ عند
الصباح على هتاف المتحصين ، فبادر الى لقاء الامير وقال ، ما هذا الهتاف
يا مولاي ؟ لقد كان الاجدر ان يوجه الى ملك فرنسا دون سواء .

قال الامير ، ان الدوق دي جيز اليوم اسى من ملك فرنسا منزلة
وارفع شأننا . فتجول في المدينة تتحقق ذلك وتنبىء به الملكة الوالدة ، اما
انا فاني البث هنا لاتلقى الامر من اخي الكردينال قبل سفري . فنزل
ترولوس الى الشارع واتجه الى ناحية باب سن انطوان . وقيل وصوله
سمع وراءه نيكول يقول له ، الى اين ؟ فاجابه ، الى باب سن انطوان .

قال ، ولكن الدوق آت من باب سن ديس .

اجاب ، ذلك مستحيل . قال ، ألم يكن يأتي الملك من ذلك الباب
عندما يروم ان يحتفل بقدومه ؟ وانت تعلم يا سيدي ان دخول الدوق
العاصمة لا يشبه دخول الملك منذ ثمانية عشر شهرا .

فقال ترولوس في نفسه ، صدق الرجل ، فقد كدت اشهر سيفي يومئذ
لاني سمعت الاهانات توجه الى الملكة !

وكان الناس قد تقلدوا السلاح على ملابس العيد التي لبسوها ،
واخذوا يسدون مظاهرات حرية تبسم لها ترولوس . ودقت الاجراس
لاعلان الابتهاج والسرور ، وضربت الموسيقى ، وازدانت الابواب والنوافذ
بالاغصان الخضراء ، ورفعت اعلام عليها هذه الكلمات « حياله فرنسوا
دوق دي جيز ، حامي حى الديانة الكاثوليكية » ! فاحس ترولوس رسول

الملكة بالعبرات تري على خديه حنقا ، وزاد غيظه عندما وصل الى باب
 من دنيس لانه رأى هناك جمهورا غفيرا ينتظر قدوم الرجل الذي دعاه
 منتظا لدينه ، فقال ترولوس في نفسه ، ما ضر الدوق لو تأخر يوما واحدا
 وجاء في يوم « عيد الشعانين » (او احد السعف الذي يسبق عيد القيامة
 باسبوع واحد) ، اذن لكان يدخل المدينة دخول المسيح اورشليم . واذا
 بالصياح قد علا حتى طبق الفضاء ، وسمع وقع حوافر الخيل من بعيد
 مبشرا بوصول الدوق دي جيز الى باريس ، مدينته المحبوبة ، فعظم الهتاف
 وقتئذ . وكان القوم يصيحون ، ليحي سيافة الدوق دي جيز ! او ليحي
 حيلة بنادق الدوق دي جيز ، او ليحي بطاقة الدوق دي جيز ! صياحا يصم
 الآذان . وهتف بعضهم يقولون ، ليحي القضاة العدول الذين قضوا على
 البروتانت في فاسي !!!

ثم ظهر الدوق دي جيز راكبا جوادا ابيض ، سرجه من جوخ مذهب ،
 وعليه دراعة من حرير ابيض محجبة بوشى الذهب ، وهو يفوق بطول قامته
 من حوله من الفرسان . فتراقد حكام المدينة للسلام عليه ، وقدموا له
 مفاتيح البلد . وقام رئيس التجار خطيبا فقال في خطبه ، ان اهل المدينة
 انتظروا مسيحيهم حتى اتى ، وهذا المسيح هو الدوق دي جيز . فاجاب
 الدوق بكلمات قليلة كان لها صدى في العاصمة قال ، لقد اردنا ايها السادة
 مفارقة البلاط كي لا يتسلط علينا اعداء مذهبنا القويم ، الا ان جرأة هؤلاء
 الاعداء تجاوزت الحدود حتى عز على كل كاثوليكي حر ان يعيش محترما
 ما دام الامر الملمون المشهور بأمر ينير (كانون الثاني) نافذا ، وانما عدنا
 الى باريس للدفاع عن الالهنا (ما اضعف هذا الاله اذا كان في حاجة لمثل
 هذا الدفاع) . وفي اعتقادنا انه لا يوجد في المملكة كلها مدينة اوثق ايمانا
 من مدينتنا باريس العامرة !

واستمر الموكب سائرا على مهل ، مضطرا احيانا كثيرة الى الوقوف ليدع للناس فرصة ليقربوا من الدوق ويتبركوا بلمس ثيابه . وهكذا وصل فرنسوا دي جيز الى قصره ، وكان الكردينال دي بوربون شقيق امير كوندا ينتظره فيه فأدى البلاغ ، وطلب الى الدوق ان يقابل الملكة في فوتبلو حيثما تنتظره مع امير كوندا الذي عزم على السفر اليها . فاجابه الدوق بلطف قال ، انني ارجب في الذهاب الى هناك ، على ان الشعب لما علم بما طلبته الملكة وبأن الدوق ينوي الذهاب دون جيشه الى البلاط ، ثار ثورة حقيقية ، وجاءه رسول من الشعب يقول له بالنيابة عن الباريسيين ، لسنا ندعك تذهب ايها المولى لانك انما اتيت الى باريس للدفاع عنا . فليفارق امير كوندا باريس مصحوبا برجاله البروتانتين قبلما يطردهم الشعب نفسه . اما انت فلا ترحل عن باريس من غير ان ترى ملك النافار وتتفق معه على الدفاع عن ديننا .

فانشى الدوق الى الكردينال وقال له ، رأيت الآن يا ابن العم كيف انني عاجز عن الانقياد الى الملكة والعمل بأوامرها ؟

فقطب الكردينال وجهه ، ومضى ليلقى اخاه امير كوندا ، وكان هذا ينتظره وقد تاهب للسفر ، فقال الامير ، اما انا فاني مطيع للملكة . ولقي ترولوس الامير فقال له ، اترى الآن اننا قادرون على المقاومة في باريس والهجوم على الدوق ؟ فاجابه ، كلا ايها الامير ، ولكني ارى المبادرة الى مساعدة الملكة ، وعلى ان نصل اليها قبل فوات الوقت .

فلم يجب امير كوندا ، بل خرج من باريس ليلا ومعه بعض الاشراف . فلما رأى ترولوس ذلك البعض وهو مؤلف من بروتانتين قد شيتهم الحروب وشبان متلئين حماسة قال ، ليك تأتي الى فوتبلو فنكون عصبة كبيرة تمنع الملكة ، وما اعداؤها الا اعداءك . فتردد الامير هنيهة ثم قال ، كلا يا كونت ، فاني لا اجيء الى كاترين الا ومعي جيش . ولست ادري

متى استطيع اللعاق بدي شاتيلون ... فلنذهب اولا الى « مو » ولعلنا
نجد فيها عددا كبيرا من اصدقاءنا قنضي بهم الى مساعدة الملكة . فهل
تذهب معنا ؟

اجاب ، لا افارقك يا مولاي الا اذا اعطينني بعض فرق من حملة
البنادق لادافع بهم عن الملكة .

قال ، تعال وعسى ان اتمكن غدا من اجابة طلبك . واستمر الامير
ورجاله مائرين في طريق (مو) ونرولوس في طليعتهم يقول ، الا يفوت
الوقت غدا ؟

الفصل الثامن والعشرون

(أحد الثمانيين)

وازدادت حركة الباريسيين في اليوم التالي لانهم علموا بوصول ملك النافار واجتماعه بالدوق اجتماعا كان الغرض منه الدفاع عن المذهب الكاثوليكي . ولم يكف ملك النافار بذلك بل جاء بدليل آخر على صدق ايمانه ، فحضر الصلاة في كنيسة نوتردام على مرأى من الجميع ، وهتف له الجمهور كما هتفوا للدوق ولمونمورانسي هتافا متواصلا ودعوهم « نصراء الدين واصدقاء الملك الحقيقيين » .

وفيا كانت باريس مترسلة في هذه الاحتفالات كانت كاترين دي مديس منفردة في حجرتها تبكي بالقرب من نافذتها وعيناها محمقتان الى طريق العاصمة ، مصغية الى وقع الحوافر ، تسأل نفسها عما عسى ان يكون كل قادم ، وتقول ، اكونده ام جيز ؟ وكانت خائفة من آل جيز لانهم اسرة منها كثيرون من رجال الدولة ، وفيها القواد البواسل وذوو المطامع والآمال البعيدة ، ولذلك كانت تنتظر قدوم امير كوندا بذاهب الصبر لان ذلك الامير كان شجاعا كريما محبوبا من البروتستانتين حيا يفوق الوصف ، وهو ذو مطامع ككل آل جيز ، لكنه شديد الوفاء والولاء للبيت المالكي ، ولا يكيد لاسرة فالوي . وفيما هي ممتعة حزينه النفس سمعت وقع

حواقر خيل عديدة ، فاختت تلثم ولدها شارل التاسع وتقول ، أسأل الله ان يكون القادم امير كوندا . ثاله لاشيدن معبدا للعدراء يكون اجمل المعابد ! . ودنا الصوت فاطبقت عيناها وهي تقول ، من لي بك يا ثرولوس ؟

وما كادت تنهي من هذه الكلمات حتى دخل الحاجب يقول ، بالباب ملك النافار ، والميو دي مونسوراني ، والدوق دي جيز . ففتحت عيناها فابصرت الثلاثة قد صاروا امامها ، وسمعت ضجة الجند الذين جاؤوا معهم . وكان هؤلاء الثلاثة قد دخلوا فجأة كأنهم ينوون اهانة والدة الملك ، الا انهم وقصوا تهيين خاشعين لانهم رأوا انفسهم تجاه امرأة حناء ضعيفة . وخجل دي مونسوراني كما خجل الكردينال دي بوربون لتعجبهم على والدة واولادها ، فكان سكوت طويل المدة ، ثم قالت كاترين ، ماذا تريدون !

فاجابها الدوق بخشونة ، انا اتينا ايها السيدة طالبين اليك الاياب معنا الى باريس . فارتعدت كاترين لان دخولها مدينة كاثوليكية مما يشق عليها بعدما قضت عاما كاملا وهي تدافع عن البروتستانتين جهرا ، وهي التي بذلت مجهودها لانقاذ امير كوندا من حكم الاعداء ، والباريسيون كانوا قد تهددوه بالقتل اذا لم يرتحل عن مدينتهم . وكاترين لم تكن تحفل بالمذاهب الدينية ، وانما تحب السلطة حبا كالجنون . ومعنى اياها الى باريس استلامها الى اعدائها ، واولهم ملك النافار ، وكانت قد هزأت به ، ثم مونسوراني وكانت قد ناقشته الحساب عن شئون منصبه ، ففرنوا دي جيز ، وكانت قد طردته من البلاط قبلا . فنظرت بكبر الى الرجال الثلاثة واجابتهم قائلة ، لا ادخل باريس ابدا !

فاضطربوا من هذا الجواب لانهم كانوا يتوقعون منها مراوغة ومساطة

لا عزيمة ثابتة ، فقال لها الدوق ، اذن اين يكون مقرك ايها السيدة ، ولا حاشية لك ، ولا جيش ، ولا حراس ؟

فاجابته ، سأذهب الى حيث اجد اصدقاء مخلصين للملك .

قال ، لعلك ترومين ان تجدي امير كوندرا ؟

قالت ، لا ينبغي ان اخبرك بشيء من ذلك . ولكن ، يا للمعجب منكم ، اهكذا تدخلون على ملككم ؟ انظر يا ولدي شارل الى هؤلاء الرجال الثلاثة المدججين بالسلاح ، فقد تجرأوا على مخاطبة والدتك وقباحتهم على رؤوسهم ، وقد اتوا الى هنا مستصحبين جيشا حقيقيا ، متهددين ، متوعدين ، آمرين ناهين . ولعلك تحسبهم غرباء او اعداء ؟ كلا . فاحدهم اسمه انطوان دي بوربون وهو عمك ، والآخر اسمه دي مونسوراني وهو قائد جيوش المملكة الفرنساوية ، اعني الرجل الذي يجب عليه ان يكون اشد الناس اخلاصا لك ، لانه اقم بشرفه على ذلك ، واما هذا الآخر فهو فرنسوا دي جيز خادم ابيك وهو الذي استخلص مدينة عاليه من ايدي الانكليز ، ومدينة ثيوفيل من ايدي الاسبانيين ، فتذكر يا شارل ان هذا الرجل جاء الى هنا وأهانك ، لان الرجلين الآخرين لا يحبان شيئا مذكورا بالقياس اليه ، بل هما كالأعوبة بين يديه . الا فاذكر ما اقوله لك يا شارل ، ان هذا الرجل الدعدو لك ولاسرتك !.. والآن ايها السادة اذهبوا من هنا وولدي هذا قوي الذاكرة فلن ينسى احدا منكم !

فلم يدر مونسوراني وانطوان دي بوربون بماذا يجاوبان ، غير ان الدوق دي جيز كان اقصاهم قلبا واربطهم جأشا ففكر في وسيلة يتخذها لاقناع الملكة . وجعلت كاترين تنظر من النافذة الى البرية راجية مساعدة من كوندرا وهي تمنغم وتقول ، ترولوس ، ترولوس ، لماذا لا تجيء ؟!

ولم يكن حول القصر الا جيش الدوق دي جيز متعبا للحرب

والتضال . واذا بها قد احسست بأنهم ينتزعون يد ولدها شارل من يدها
فصرخت صرخة عالية ، وانشئت فابصرته يتمتع عن الدوق دي جيز ، وقد
ابعدته عنها ، فنهضت .

فقال الدوق ، سواء لبثت في مكانك او اتيت معنا فاننا لا نتخلى عن
الملك ، ولا بد لنا منه . قالت أتتجراً ! .

قال ، لست بالسيدة الأميرة الا اذا شئت المسير معنا ، او الاعتزال في
احد القصور . ولا بد لنا من اخذ الملك واخوته . فامتقع لونها كحدا ،
وهمت بشتمهم الا انها رأت السكوت ، وقد شعرت بالغلبة . وكان ابنها
يكي فاسترسلت ايضا في البكاء . فجعل الرجل الثلاثة ينظرون اليها
صامتين الى ان قال لها الدوق ، كيف ترين ؟

فاجابته برقة ، اني متأهبة للذهاب معكم . فامر الدوق بالرحيل ،
وللحال سار القوم عائدين الى باريس ومعهم الملكة الوالدة والملك
اسيرين ، وكانا يكيان . فقال الدوق دي جيز ، ان المصلحة العامة تظل
مصلحة عامة سواء ادركت بالرفق او بالعنف .

ووصلوا عند الماء الى ملون ، فباتت الملكة وابنها في قصر هنالك لم
يكنه منذ اكثر من مائة عام الا السجناء .

الا ان ترولوس ، بالرغم عن مراقبة الحراس وطوافهم حول موضع
الملكة ، تمكن من الوصول اليها عند منتصف الليل ، فضرب باب مخدعها
فنهضت وفتحته ، فلما رأى آثار الدموع على وجهها لم يتمالك ان زفر
زفرة كادت تخنقه وقال ، يا لله من هذه الحال التي صرت اليها يا سيدتي .
قالت ، ماذا جرى لكوندا ؟

اجاب ، وأسفاه ان الفرسان البروتانتين بدأوا يتوافدون الى (مو)

وبعد يومين يشي الامير في ظليتهم ويحضر للدفاع عنك .. وقد رأيت
من جاليو همة كبيرة .

قالت ، واحرثاه لقد ضاعت سلطتي بتأخير يومين !... .

قال ، لا شيء يعزيني عما حل بك يا سيدتي ، اما الان فلا اريد
مفارقتك ، لاني اخشى ان يحاول هؤلاء الانذار اهانتك !

قالت ، كلا يا ترولوس ، فلا بد من ذهابك ! فعد الى الامير وقل له
انني سجيئة مع الملك ، وقل له ان يذل جهده لانقاذي ، ثم تسمى للملاقاة
في الموضع الذي اساق اليه . ولقد خاتني الكل ، واني محتاجة اليك ،
فاذهب ايها الحبيب !

فاجابها ، اني طوع امرك ايها الملكة ! وبعد هنية سار في طريق «مو»
آملا ان يلحق بأمير كوندا . وكان الامير قد ترك ذلك الموضع ليقترب الى
اورليان ويشرع في الاتفاق على العمل مع الاميرال دي كوليني . وهناك
علم ان الكاثوليك قبضوا على الملكة والملك . فكان ذلك فاتحة حرب ، ولم
يبق بد من الدفاع . فوثب ترولوس الى طريق اورليان ، وكانت يومئذ
المدينة الثانية في المملكة فوصل اليها يوم استولى عليها دنديلو ، تجل
الاميرال . ولقد استولى عليها من غير ان يمسك قطرة دم ، اذ اقنع
الاورليانيين بانه انسأ لجا الى اورليان ليعخدم الملك فيها . وبعد ايام اقبل
امير كوندا على المدينة فحاصرها واعلن ، بعدما تلقى رسالة ترولوس ، انه
لا يجرّد السلاح الا لمصلحة البلاد وانقاذ الملكة الوالدة والملك . وفي يوم
١١ ابريل (نيسان) اجتمع اهل اورليان واعترفوا بأمير كوندا زعيما لهم ،
لان اكثر سكان المدينة كانوا على مذهب البروتستانتين . فوقعوا على
عقد تمهدوا فيه بالانقياد الى امير كوندا لانقاذ الملكة الوالدة وابنها الملك ،
واعادة الطائفة الى المملكة تحت حكم الملكة الوالدة . وكان جاليو في

جملة الموقعين على ذلك العقد ، شافعا توقيعه بأنه يظل كاثوليكي المذهب ،
لأنه لا يريد أن يرتد عن مذهب والديه ولكنه يقاتل دفاعا عن الأمير ،
والملك ، والوطن ، وعن الضعيف . ولقد رأى نفسه في أشد حاجة إلى
سيد عظيم يقيه شر المحامي أفنيل بعد حادثة فاسي ، لأن جاليو أبقي
مارسلين عنده مخبوءة في أورليان ، وكان يتفق عندها وقته عندما يخلو من
خدمة الأمير .

فلما كان يوم ١١ أبريل أقر مجلس باريس الأمر المشهور « بأمر يناير »
(كانون الثاني) وهو الذي يخول البروتستانتين حرية العبادة والقيام
بشؤونها . ثم أن الدوق دي جيز أكره الملكة على أن تسعى لاختضاع أمير
كوندا ، فانضمت إلى الكاثوليكين ، لأنهم صاروا الحزب الأقوى ، دون
أن تقطع مفاوضاتها مع زعماء البروتستانتين . ولقد كتبت رسائل عديدة ،
جمعها الكونت هكتور دي لافريير في كتاب عنوانه « مراسلات كاترين
دي مديس » وكلها مرسلة إلى زعماء البروتستانتين .

ولم تعلن الحرب بين الطائفتين ، إلا أن المشاجرات كانت متوالية . وفي
ذات يوم خرج مونمورانسي من باريس بجيشه وتبعه جمهور من الناس
فقصد موضعين لاجتماعات البروتستانت أحدهما خارج باب سن جاك ،
والآخر في موضع يقال له بانبكور فاضرم النار فيهما وأهلك كل المجتمعين
للعبادة هناك من غير دعوى ولا مراعاة ، ثم عاد إلى المدينة بين هتاف
المتعصبين وصياح المتحمسين كأنه قادم من نصر مبين . وكذلك وقعت
مذبحة كبيرة في « سانس » سقط فيها من البروتستانت قتلى لم يحصر
عددهم . واستمرت المذبحة (أو بالأحرى المجزرة الوحشية) أسبوعا
كاملا .

وبعد أيام قلائل كان شارل التاسع يتنزه قرب قصر اللوفر عند ضفاف

السين مع والدته وآل جيز فابصروا جثة طافية على الماء ، وكان وجه الجثة متجها الى شارل التاسع فقال مرتعدا : ما هذا ؟

فاجابه ترولوس ، وكان مع الملكة : هذه جثة رجل مقتول في «سانس» ينظر اليك ايها الملك ويسألك عدلا .

فنظر الكردينال دي لورين شقيق الدوق دي جيز الى ترولوس نظرة غضب ، اما الدوق فقال ، ان هي الاجثة بهيم نجس (١) . ولكم من جثة كذلك الجثة الطاهرة كانت طافية على المياه او مطروحة في الطرق والسهول !

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

(١) هذه الجملة مقتبسة من كتاب تاريخي لكاستلنو دي مونيجير (Michel de Castelnau) وهي تدل على شدة تعصب الكاثوليك في ذلك الزمن .

الفصل التاسع والعشرون

(الاستيلاء على روان)

لم يكن الذل الذي اصاب الملكة الوالدة الا وقتيا ، فانها بعد بضعة اسابيع استعادت شيئا من السلطة ، واخذت تفاوض شرا وجهرا معلنة انها كاثوليكية المذهب الا انها متحبة معاداة زعماء البروتستانت ومؤكدة لامير دي كوندرا ولاءها . وكانت تزعم انها بهذه السياسة توفق بين جميع ابناء المذاهب . والحقيقة ان الشقاق كان يشتد بين ابناء الوطن الواحد ، بتحريض رؤساء الدين الكاثوليكي ، حتى طلب كوندرا وكولينى مساعدة الالمانيين ، واستنجد البروتستانت في نورومانيا بالانكليز على ان يسلموهم مدينة الهافر .

اما الدوق دي جيز ملك النافار فانها طردا من « مدينة جورج » البروتستانتى مونوميري ، فلقيا الى روان فحاصراها بجيش كبير وافتتحا قلعة فيها فاستبشرا بالنجاح والفرز ، الا ان مونوميري اعد في البلدة كل خطة للدفاع ، فحصن سائر مواقعها . ولكن حدثت حادثة غير متظرة ساعدت الدوق دي جيز على فتح تلك المدينة باليف .

وكان بين الاعداء الذين يرصدون حركات الدوق وسكناته ، بلترو دي ميرة ، ومادلين بنت « يعقوب لوم » الكتيبي .

فان هذين المنحوسين ما برحا يتبعانه والحق يوليها هياجا شديدا
ولا سيما مادلين ، فقد كانت تتلظى من ظمأها الى الانتقام . ولقد خطر
مرارا بلبترو ان يطارحها الحب فقالت له بصوت خشن . لا غرض لي الآن
من دنياي الا الانتقام العادل .

فجعل بلبترو يده على غدارته وقال ، انني ابذل حياتي في سبيل قتل
فرنسوا دي جيز .

الا ان الدوق كان يحدق به جماعة من الاشراف الذين لا يدعون بلبترو
وامثاله يصلون اليه ، فلم يخطر له الا ان يرقب الفرص ، ويدهم الدوق
مداهمة . فلما تمشى جيش الدوق الى روان جاء ومادلين يستعلمان .
وكان يقول لمادلين ، ان الدوق يخاطر بنفسه كثيرا ، وقد رأته يتقدم الى
اسوار المدينة . ويمكن تسديد المرمى اليه من وراء السور ، فان لم تتمكن
من قتله على هذه الطريقة راقبناه حتى يستولي على المدينة ، وذلك امر لا
تطول مدته ، ولا بد ان يترك الحذر وقت الظفر ، الا ويل لك يا فرنسوا
دي جيز ، اني سابقى الصق لك من ظلك الى ان اراك مسددا عند قدمي
مخضبا بدمك . ولئن قتلوني بعد ذلك فما ابالي لانني اكون قد انتقمست
لنفي ، ولا يي مادلين ، وانفذت ارادة الله ، وانجزت وعدي للارنودي .
ثم خفض صوته وقال ، واكون قاتل الرجل الذي اختطف مني حبيتي .

وفي ذات صباح كان بلبترو ومادلين يرصدان الدوق قرب الاسوار
ويشهدان مصارع الرجال ، فشهدا حركة وسمعا قول قائل يقول ، لقد
جرح جرحا بالغا . فقال آخر ، من الجريح ؟ قال ، هو ملك النافار !

واتشر الخبر في المدينة المحصورة فأقبل جمهور نحو الاسوار ، وحمل
الجنود الكاثوليكيون « انطوان دي بوربون » على محفة معدة للجرحى .
وبادر الدوق دي جيز ليعمد الرجال على نقل الجريح فأبصره

البروتستانتيون من اعلى الاسوار ، وللحال انهال عليه رصاصهم .

فقلت مادلين لبترو ، ما بالك لا تطلق انت النار عليه ؟

اجاب ، لا فائدة من ذلك فانه بعيد عن مرمى رصاصنا .

وكان فرنسوا دي جيز قد ابتعد فالتفت ونظر الى ناحية الاسوار
فحانت منه التفاتة جعلته يرتعد لانه ابصر وجه مادلين وقد زادها لبس
السواد حسنا . فاوصل ملك النافار الى خيمته ثم عقد مجلسا واقر وجوب
الاستيلاء على البلد بالهجوم المباشر دون اكتفاء بالحصار .

فقلت الملكة الوالدة ، مهلا يا مير دي جيز فان الاستيلاء على المدينة
بالهجوم عليها قد يكون السبب في تسليمها الى الجند يحرقونها ويذبحون
سكانها .

فاجابها ، بقي ايها السيدة انه لا جندي من جنودي يحرق ويسلب .
واني اقسم لك على ذلك .

واخذ يسطر الكلام في افضلية رأيه ، الا انه قبل اصدار الاوامر
بالهجوم دعا اليه خادمه روسو ، وهو الرجل الذي كان رسوله فسي كل
مراسلة غرامية ... وقد كافأه بان قلده زمام الحكومة في مدينة (بايسو)
فقال له ، ألم تطلب اليّ بالامس ان اسمح لك بزيادة الضرائب في مدينة
بايسو ؟

فاجابه ، لست انتظر غير صدور امرك الكريم لاعود الى حكومتي !

... لقد قيل لي انك تذبح البروتستانتين ذبحا كبيرا .

... ذلك خير من تركهم ينجسون في عبادتهم الخاطئة (٢٢) .

فضحك الدوق وقال ، اني اخو لك الزيادة التي تطلبها ولكن بشرط

واحد ...

— تكلم يا مولاي .

— ألم تر احد على الاسوار في هذا المساء ؟ ..

— نعم رأيت مادلين لوم !

— انا هاجمون غدا على مدينة روان ، وليس من العدل ان يتمتع

الجنود بمن يشتهون ويحرم قائدهم الاكبر ...

— فهمت يا مولاي .

قال الدوق ، وهل اعتمد عليك ؟

اجاب ، يعلم مولاي انني لا اضمن بحياتي في خدمته . وفي اليوم التالي ، بعد هجوم هائل ، استولى الكاثوليكيون على مدينة « روان » ولم يبق لها قلعة او وسيلة للدفاع الا حصونها المتداعية ، فتخطاها المهاجمون بعد ان اتسوا تهديسها . ويومئذ حدثت المذابح التي تقشعر منها الابدان ، وسفكت الدماء حتى سالت في كل مكان ، لان البروتستانتين كانوا قد عقدوا النية على الدفاع في داخل المدينة ، وعلى ان لا يدعوا المهاجمين زقاقا او شارعا او بيتا الا بعد ان ينازعوهم عليه كل المنازعة ويقاتلوهم كل المقاتلة . فكانت النوافذ مملوءة بفوهات البنادق تطلق نيرانها على الجند ، والسطوح عبارة عن مناجم حجارة يرشقون بها المهاجمين ، وكانوا يسمعون في بعض الاحيان دويا هائلا يدل على ان بعض البروتستانتين قد نسفوا بيتا ليدفنوا تحت انقاضه المهاجمين من الكاثوليكيين . وانقضت ثلاثة ايام في قتل ونهب . اما مونفوميري فقد لجأ الى الفرار على قارب ، وكانت الملكة تبكي غيظا وقهرا وحزنا على مدينة غنية كانت من اكبر المدن التجارية وقد اصبحت خرابا . فبادرت الى الدوق دي جيز وقالت له ، اين السيد التي حلفتها ؟ فاجابها ، لست اذكر يسينا ايها السيدة . وهل تظنين انه يمكن ضبط جيش منتصر ؟ ان هؤلاء الجنود الذين تلومينهم ، لانهم يسلبون وينهبون معذورون ، لانهم لم يتاولوا مرتباتهم منذ استيلائهم على مدينة

فأدركت كاترين ان كل وسيلة صالحة لا تجدي ، فانطلقت وزارت ملك النافار . وقد اراد دخول المدينة محمولا على محفته ، ولكنه مات وهو ينظر الى الآتة « دي رويآ » وهي فتاة كان يهاها هوى شديدا .

وفي ذلك المساء طاف الدوق دي جيز في المدينة التي استولى عليها ولم ير خادمه ، فقلق خوفا ان تكون مادلين قد فرت منه ، ورأى رجاله يسبون ويتكفون ويقتصبون ، وقد اسكرهم النصر فكاثوا يتغنون بأنشودة مؤداها « ان دماء البروتانت واعراضهم حلال للكاثوليك » . والفاهم يحتفلون في كل مكان بذلك الظفر ، الا هو فانه لم يحتفل ، الى ان صادف خادمه فقال له ، ماذا فعلت منذ ثلاثة ايام ؟ قال ، اني كنت ابصث عن مادلين . قال ، ألم تجدها ؟ اجاب ، نعم ، ولكنها كانت تهرب مني على الدوام .

قال ، هل رأيته وحدها ؟ اجاب ، لا ، ولكن معها رجل كأنه يتبعك ولا يترك مكانك الا عند خروجك ، ثم لا يسر الا في الشوارع التي تسربها قال ، ولماذا لم تقبض عليهما ؟ اجاب ، اظن ان ليس الغرض قتلها ، فلو كان ذلك غرضا لقتلناهما من عهد بعيد ، ولكنك تروم القبض على الفتاة حية لا ميتة ، ولذلك لم اتجرأ على اطلاق الرصاص على الرجل الذي معها خوفا من ان اسيها هي .

قال الدوق وهو منزعج : تقول انها تبغني ، فهل هي تعرف من انا ؟ .. سوف اتحقق الامر ...

قال ، لنختبئ يا مولاي فانهما مقلان .
اجاب ، لا فاني سألقاهما !
وكان بلترو ومادلين منزويين في شارع ضيق وهما تائقان الى الانتقام

وقد هاجمها منظر الدماء المهرقة منذ ثلاثة ايام . واتفق مرة ان الدوق كان على مرمى رصاصة منهما ، فهم يلترو بقتله ، لكنه احس بارتجاف يده فخاف ان يخطيء المرمى لشدة ارتجاف يديه بسبب احتدام نار بغضائه . اما في ذلك المساء فقد تماسك وتجلد وظن ان انتقامه قريب ، لانه لم ير مع الدوق الا رجلا واحدا . اما الدوق فتقدم اليهما وسيقه مجرد في يده ، شأن من تعود ملاقة الاهوال والاضطراب . فسدد اليه يلترو بندقيته عازما على ان يطلقها عندما يصير الدوق قريبا ، وفيما هو يهم بذلك سمع صرخة وراءه ، فانشى مرتاعا ورأى مادلين يحملها الرجال ، فحول الطلق الى اولئك الرجال فقتل واحدا منهم واختفى الباقيون في زقاق مظلم ومعهم مادلين محمولة على الايدي ، فبادر اليهم الا ان الدوق ادركه وضربه بسيفه ضربة صرخته فارتمى على الارض .

وبعد هنية كانت مادلين سجينه في بيت خال والدوق امامها . فقال لها ، ابلغك منك الجفاء هذا الحد فلم يعد الوصول اليك ممكنا الا بعد اطلاق النار واستخدام الجنود ، ولولا ان الدوق دي جيز استولى على روان لما استطعت ان اراك ...

وهو قد حاول مخادعتها بزعمه انه من ضباط الدوق دي جيز ولم يتعشق قط امرأة تمثقه لمادلين على كثرة مفاخرته باتخاذ عشيقات في كل مدينة فرناوية . وقد انته الدسائس والحروب ان والد تلك المنحوسة مات مقتولا بأمره . وكأنما نسيت مادلين ذلك ايضا ، لانها اصغست الى الدوق كل الاصغاء ، وكان يطارحها عبارات الهوى والوجد . وطفق يذكر لها علاقته السابقة ، وكيف كان يزورها صاعدا الى شرفة منزلها في ساحة اورليان ... ومضى كلامه الى ان مر سكير يفني بصوت عال ، فتبها ذلك الى ما هي فيه ، فدغمت الدوق وابعدته عنها وهددته بخنجر ، فقال لها ، ويك هل جنت ؟

فاجابته ، كلا ما جننت يا دوق ، ولكنني تذكرت تلك الاقام والقبلات
الكاذبة ، وكل ما فعله الضابط فرنسوا ، ثم تذكرت مصرع ابي ! .. فاصفر
وجه الدوق فقالت ايضا ، الا تدري « يا دوق فرنسوا » ان قد كان لسي
والد ، وكان من اهل الفضل والصلاح ، وانني كنت احبه ؟ ..

قال ، لماذا تدعيني « الدوق » ان انا الا ضابط شريف .
قالت ، تب لك من كاذب مخادع ، اما تقأ تعذعني ؟ ان جلادك يا دوق
قد فتك بأبي ظلما ، ثم دخلت اورليان في اليوم التالي ورجالك يعدقون
بك ، كنت تعجاز الساحة التي مات فيها والدي ظلما فلم ترفع رأسك لتراني ،
الا انني رأيتك وقتئذ وعلمت ان الضابط فرنسوا الذي هويته ما كان الا
الدوق دي جيز ، قاتل ابي ، فاقمت في ذلك اليوم على الانتقام منك .
فمناي اليوم لا تذرفان دما ، ولكنك ترى اثر الدمع على وجنتي ، وما
عشت حتى الساعة الا لاتقم منك . اذن فانت هالك ! وقد ابتعد عنك
رجالك فلا يوجد ههنا احد سوانا ، واني قاتلتك بعدما نزعتم سيفك وجعلته
بعيدا عنك ، فاركم يا دوق ، واسأل الله لذنوبك عفوانا !

وفيما كانت مادلين تتكلم كان بصرها يطفح بغضا ، والجفاء ظاهر في
صوتها ، فلما فرغت من كلامها همت بالهجوم على الدوق الا انها اصبحت
وقتئذ برعشة عصبية فاضطرب بصرها ونظرت الى فرنسوا نظرة تائهة ،
واقفت خنجرها من يدها . اما الدوق فلم يشعر بأقل خوف لان خادمه بقي
في ذلك البيت . وكانت امامه مائدة عليها الصحن والشموع فلو هاجمته
مادلين لاستطاع دفاعا عن نفسه . الا انه استشعر اسفا حقيقيا ، ورأى نفسه
صغيرا امام تلك الفتاة ، ولكن ذلك لم يدم الا وقتا قصيرا فرشق مادلين
بنظرة شرسة روعتها وقهرتها ثم سقطت على الارض مغشى عليها ، فحملها
فرنسوا ووضعها على كرسي ونادى خادمه وصب على صدغها ماء باردا

ثم قال للخادم ، لقد تركت لك هذه المرأة التسة ، فتي افاقت اعطها هذا الكيس واطلق سراحها . وانطلق سريعا وهو يقول ، ما عادت تطيب لسي عشرة هذه الحناء !

اما خادم الدوق ، وكان يدعى جويلو ، فانه تأمل مادلين واعجبه حننها ، ثم تأمل كيس النقود وآثر ان يجعله في جيبه بدلا من ان يضعه في جيب مادلين . وهكذا فعل . ثم حمل مادلين على كتفه وخرج من البيت ، فلقي بعض جنوده فقالوا له ، الى اين نمضي ؟ فاجابهم : انا مرتحلون عن روان . واذ ذاك عاود بلترو رشده ، لكنه لبث وقتا طويلا غير قادر على النهوض ، ونادى مادلين غير ذاكر لاول وهلة ما جرى . ثم صاح ، آه ، ويل لك يا فرنوا دي جيز ، فقد كان في وسعك قتلي الا انك لم تفعل ، اذن فقد كتب لك الهلاك على يدي انا !

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الفصل الثلاثون

(اخلّاص ترولوس)

لما بلغ امير كوندا والاميرال خبر استيلاء ملك النافار والدوق دي جيز على مدينة روان حسبا ان مدة نهب هذه المدينة تدوم اياما ، وهو حساب لا خطأ فيه ، فعزما على انتهاز تلك الفرصة ومحاولة الاستيلاء على باريس . وقد اتجدهما انديلو بسبعة آلاف جندي من المانيا . الا ان جيش الملك تلقى الخبر فعاد الى باريس ، اما كاترين فانتقلت الى فنسان مع الحاشية ، وبقي دي جيز على زعامة جيش الملك مع نوراني . فلما رأى زعماء جيش البروتستانت ان الدوق تقدمهم ، وعلموا ان المظاهرة ربما تسوق الى ملاءمة مذهبهم ، حاولوا القتال متقهقرين حتى يصلوا الى نورماندي . فلما وصل امير كوندا الى قرية يقال لها « ارموي » لحق به الدوق دي جيز واظهر انه عازم على مقاتله .

ومع ذلك فقد كان الارتباك سائدا بين جيز ومونورانسي ومن اندري ، لانهم عز عليهم ان يهاجموا اميرا من بيت الملك . وكان زعماء الجيشين من بيت الملك . وكلا الزعيمين عم لشارل التاسع ملك فرنسا ، ولو لم يست ملك النافار لكان الارتباك اشد ، لان ملك النافار وامير كوندا اخوان ، وكل منهما يقود جيشا عدوا للآخر .

فلم يجد الدوق دي جيز ومونسوراني وسن أندري بدا من ارسال رسول الى الملكة الوالدة ، اسمه ميشال دي كاستيلان ، يطلبون منها ان تصدر امرا مطلقا صريحا يقره مجلس الملك ويكون مؤداه مباشرة القتال .

وكانت كاترين منذ وصلت الى فسان قلقة الخاطر ، وقد عظم مجد الدوق دي جيز لاسيلائه على مدينة روان ، فلو فاز فوزا جديدا لاصبح سيد فرنسا ومالكها . وهو منذ ذلك الحين قد اعاد اخاه الكردينال الى مكانه في المحكمة المخصوصة . ورأت كاترين ، وهي مرتبة ، اياها هذا الرجل ، واشفقت ان يفوقها دهاء وقوة ، فلم يسترح فؤادها . ولا ارتاحت الى شيء سوى حبها لترولوس ، وقد استلست اليه شأن امرأة يست من كل حب جديد ، اما ترولوس فبني الدنيا وما فيها بهوى كاترين ، وكان يحبها حبا صادقا طالما تمتث له في شبايها ، وهو حب مجرد عن الاغراض ، لان ترولوس لم يكن يحفل بلقب او ثروة او مجد . وكان يقول لها ، لا مطمع لي في غير ما انا فيه ، ولا اشتهي الا ان ابقى قائد حراسك ، اي ان اعيش بقربك واموت لاجلك عند الحاجة .

ولقد ارسلته كاترين مرتين الى امير كوندا في طلب بعض الايضاحات فتعرض له رجال راموا قتله ونجا منهم ؟ فكنتم ذلك عن كاترين . وكان يجعل ان الكردينال ادرك وجود علاقات سرية بين كاترين وكوندا ورام الحصول على برهان يؤكد وجود تلك العلاقات الخفية ، فأرسل اليه مرارا من يفتك به ويأخذ منه ما عسى ان يوجد معه من الرسائل . وكان يكفي امير كوندا ان يحصل على انذار يسير من كاترين ليحبط مرامي الدوق دي جيز ، وذلك ما اراد الكردينال منع وقوعه بآية وسيلة .

ووصل ميشال دي كاستيلان رسول الدوق الى كاترين فسلمها رسائل زعماء الجيش الكاثوليكين طالبا صدور امرها مباشرة القتال . ولم يكن

من عادات كاترين ان تصدر امرا جليا او تكتب رسالة واضحة المعنى خالية من كل ابهام وتورية . فبدأت تقول ، انه من العار ان ينشب قتال بين فرنسا وبين ابناء امة واحدة ، وان مثل القائد مونسوراني والدوق دي جيز والمارشال سن اندره في غنى عن رأي امرأة لم تجربها حوادث الزمان ورأي صبي قاصر ، وانها تأسف كثيرا ، لانها ترى شؤون المملكة قد صارت الى ذلك الحال .

وكان الرسول قد دخل حجرة الملك شارل التاسع مع كاترين . وكانت مربية الملك تلاحظه وتداعبه . فقالت لها الملكة ، ما رأيك ايتها المربية ، فهذا ، هو الزمن الذي تسأل فيه النساء ، عن آرائهن ، في مباشرة القتال ؟ فقبلت المربية الملك وقالت ، اذا لم يقنع البروتستانت ، ولم يذعنوا لاحكام العقل ، فلا بأس من مقاتلتهم .

وتفاوضوا وقتا طويلا ، وكان ميشال دي كاستيلان رسولا حاذقا فطنا فاستخدم دهاءه في الحصول على امر تكتبه الملكة لمباشرة القتال فلم يفلح . فاضطر الى العودة فاقلا الى الدوق دي جيز ومن معه كلمات كاترين ، اذ قالت له « قل لابناء عمي آل جيز وآل مونسوراني انهم اسد رأيا واكثر خبرة مني » ! فصاح الثلاثة ، لعنة الله على الخائنة ! فلا بد من مباشرة القتال على رغم انقها !

وكان الكردينال شقيق الدوق دي جيز ، يعرف كذب كاترين ودهاءها فلم يتمجب من انها ابت اصدار امر جلي صريح ، ولم يشأ ان تلقى التبعة على عاتقه ، فتجنب لقاء الملكة عندما كان الرسول ميشال دي كاستيلان عندها . الا انه عمد الى مراقبتها طالما خرج ذلك الرسول من عندها ، فابصر ترولوس قد دخل مرارا ، واحس الكردينال بان لا بد للملكة في ذلك اليوم من مفاوضة امير كوندرا ، فعمد على المكث في مخبأه حتى الغد

مراقبا . وكان مخباء حجرة مظلة على رواق يقضي منه الى ماكن الملكة .
ومعلوم ان الموقف حرج ، وان اقل خيانة من كاترين تعبط آمال
الكاثوليكين اجمعين . فلما اظلم الليل اقبلت وصيفة ففتحت باب حجرة
الملكة ونظرت الى الرواق ثم انشئت تقول ، لا يوجد احدا يا مولاتي . فقالت
كاترين ، اذهبي وقولي له ان يتأهب للسفر على جواده .

وسمع الكردينال وقع خطى الوصيفة وهي ذاهبة الى الطبقة الثانية
من القصر ، فقال في نفسه ، هناك يقيم ترولوس ، وقد امرته كاترين بتحضير
جواده للسفر . فعندها رسالة . ولست لاغفل عنها في هذه المرة ! وعندئذ
مر ترولوس في الرواق قاصدا الى حجرة كاترين ، فلما خرج من عندها ترك
الكردينال مخبأه ورأى ترولوس ينزل الى فناء القصر ويركب جواده
وينطلق . وقد تحققت كاترين ان جيش الملك عازم على القتال ، فارادت
انذار امير كوندا فكتبت اليه تقول له . اعلم يا ابن العم ان الدوق دي
جيز يهاجمك غدا دون امهال ، والمارشال سن اندري في طليعة الجيش ،
فليكن اطلاق البنادق من هذه الناحية متواصلا شديدا . وسيكون معه
سبع عشرة فرقة من المشاة ، واربع عشرة فرقة من الاسبانين واربعة عشر
مدفعا . والميو دي مونسوراني يتولى القيادة بثماني عشرة فرقة من
السويسريين وست فرق من مشاة الفرنساويين وثمانى مدافع ، اما الدوق
فلا يريد ان يقود الا فرقته .

« فقاتل بجرأة حتى تتمكن من عقد الصلح كما نحب » « كاترين »

فسار ترولوس بهذه الرسالة في طريق وعرة وثلج ديسر يكاد يسد
الطرق . وكان الجو صافيا والقمر طالما ، وللأشجار على الطريق ظلال
كثيفة ، وجواد ترولوس ينهب الارض . وفيما كان سائرا اطلقت عليه
ثلاث طلقات نارية ، فادرك ان وراءه من يتبعه ليقبض على رسالته . ولم
يصبه الرصاص ، وانما اصاب جواده فعطف عليه ولاطفه . وكان البهيم

ادرك الغرض من تلك الملاحظة فأنت من شدة الألم واحتدم ووثب وثبات متواليات . وسمع ترولوس وراءه وقع حوافر الخيل فعلم ان اخصامه عديدون . وقربت المسافة بينه وبين اللاحقين به ، فتناول ترولوس رسالة الملكة وجعلها في صدرته وقال ، اذا ادركوني ابتلعتهما .

ومر به وقتئذ فارس متجه نحو المدينة ، فتأمله فاذا هو جاليو ، فقال له ، بحقك انقذني وانقذ الملكة ؟

— من اي خطر ؟ . .

— اليك هذه الرسالة فاوصلها الى الامير .

— معي رسالة مثلها الى الملكة من الامير .

— لا فائدة من رسالتك ، بل خذ رسالتي هذه وعجل .

— الا تير معي ؟

— ان جوادي جريح ، فانطلق .

— اركب جوادي .

— كلا ، بل سافر انت . ان الوقت ثمين جدا وورائي فرسان

يطاردوني .

ألا تسمع وقع الحوافر ؟

— بل خذ جوادي وانا ألبث ههنا .

قال ترولوس ، اناشدك الصداقة وهوى مرسلين واخلصك للملكة يا جاليو ان تفعل ما اقوله لك . سافر ، فالوقت لا يزال يتسع لرحيلك . وسلم هذه الرسالة الى الامير قبل طلوع النهار .

اجاب ، اني اودعك ، فيبلغ تحياتي الى من تحبها !

ورجع جاليو وهو مغموم . وكانت للطريق عطفة تتفرع في آخرها الى طريقين ، احدهما يؤدي الى النهر ، والآخر يوصل الى باريس . فتردد

جاليو في اختيار الطريق الاقرب وهي التي يجب ان يجتاز اليها النهر ، الا انه فكر في انه قد لا يجد قارباً ، فقال في نفسه ، اسير برا ، وقد يطول الوقت ولكنني اصل . واتجه الى طريق باريس .

وايقن ترولوس انه لا ينجو من اللاحقين به ، وانهم ولا شك قد رأوه يكلم فارسا آخر ، فلم يريد ان يمنعه عن اللحاق بجاليو . وادركه خصومه فهجموا عليه بحق فوئب عن جواده وشهر غدارته وجعل سيفه بين اسنانه وقال ، ماذا تريدون ؟ قالوا ، سلم نفسك !

قال هيهات !

فاحاطوا به ، ونشب بينه وبينهم قتال هائل لانهم كانوا عشرين فارساً ، الا انهم لم يتمكنوا من القبض عليه الا بعد ان قتل ثمانية منهم . ولما دنا منه زعيمهم تفرس في وجهه فعرف انه الكردينال ، شقيق الدوق دي جيز . وقال في نفسه ، ما ارى ان جاليد قد سبقهم البق الكافي ، واستعد للمخادعة فقال بعظمة ، لماذا هجتم علي ؟

قال الكردينال ، معك رسالة ، فهاتها .

— اي رسالة تعني ؟

— هي التي تحملها الى البروتستانتين ، وافت بروتستانتني فيما اعلم . اجاب ، ليس معي رسالة . قال ، اذن تكون قد سلمتها الى ذلك الفارس الذي التقيت به منذ هنيهة ؟ اجاب ، ربما .

فالتفت الكردينال الى بعض رجاله وقال ، الحقوا بذلك الفارس . فابتعد الرجال الا ان احدهم رجع يقول ، يوجد يا مولاي طريقان فايهما نللك ؟

فقال الكردينال ، في اي طريق سار صديقك ؟

وكان ترولوس ينتظر هذا السؤال فتظاهر بالحياء والسذاجة وقال ،

اتطلق سراحى اذا انبأتك ؟

اجاب ، انى اعدك بذلك .

قال ، انه سار فى الطريق الايسر بعدما ركب قارباً الى الشاطئ الآخر .

فقال الكردينال ، هيا فانزلوا فى السجن ، اما اذا كنت كاذباً ايها الرجل

فانك هالك .

فقال ترولوس فى نفسه ، لا عجب اذا قتلتى ، ولكنى اكون قد انقذت

الملكة !

فوصل الرجال وضربوا باب كوخ توتى هناك فافتحت نافذة، و اشار

رجل منها الى بندقية معه وقال ، ماذا تريدون ؟

قالوا ، اعد لنا زورقا .

اجاب ، لا زورق عندي فى الليل وانما اعدّه فى النهار فقط .

قالوا ، ولكنك منذ هنية انزلت فى زورقك فارسا وفرسه .

اجاب ، كلا لم انزل احدا .

فحملك الكردينال بصره الى ترولوس وقال له تبالك سن خائن !

قال ، بل انت الخائن . قال : لقد تجرأت فكذبتنى القول .

اجاب ، ربما .

قال ، لا شك انه سلك الطريق الايسر .

قال ، اذن اكون واحدا ، وربما سلك الطريق الايمن . على اننى اظن

اللاحاق به لا يفيدكم الآن فقد سبقكم مبقا كافيا .

تلفظ ترولوس بهذه الكلمات بلهجة المستهزى . فهاج هائج

الكردينال ، وامر رجاله بالاياب الى القصر وان يساق الاسير الى حجرة

واطئة معدة لتعذيب المسجونين . وكان الجلاد فيالار حاضرا فقال له ، خذ

هذا الرجل واوثقه وعذبه حتى يتكلم .

فالقوا ترولوس على لوح طويل واوثقت يده ورجلاه الى عجلات تدور على نفسها ، ثم انتظر الجلادان الامر ، فطلب الكردينال كاتباً لانه ابى ان يشهد العقوبة وحده ، فقيل له ان الكاتب قد سافر الى باريس ولا يرجع الا غدا .

قال انما احتاج الى موظف في المحاكم ليكتب اقرار السجين . فهاتوا الي المحامي افيل .

وكان افيل يود ان لا يشهد مثل هذه العقوبة لكنه لم يكن قادراً على عصيان الكردينال ، فنزل الى الحجرة الواطئة . ولم يلاحظ امرأة كانت تتبعه سرا . فلما رأى السجين صرخ مدهوشاً ، فقال له الكردينال ، ماذا دهاك . اجاب . لا شيء . قال اتعرف هذا الرجل ؟ اتعرف اسراره ؟ فتردد افيل هنيهة ثم قال ، هل قضى عليه بان يسوت ؟ اجاب الكردينال ، بلا شك . قال ، اذن اكاشفك بما يرتعلق به لكنني اخاف انتقامه . وخفض صوته وقال ، واخاف انتقام الملكة .

قال ، هات ما عندك يا افيل .

اجاب ، لا اتكلم امام هؤلاء الحضور .

واجتذبه ناحية ثم قال ، أتذكر يا مولاي ليلة مرت بنا في فوتنبلو ؟

اجاب ، اتعني الليلة التي دخل القصر فيها رجلان من احدى النوافذ ؟

— نعم يا مولاي ، وقد عرفت الرجلين .

— ولماذا لم تبني عنهما ؟

اجاب ، لخوفي من الملكة كاترين ، فانها كانت تنتظر الرجلين قرب

النافذة ، وهي التي امرت بان يلقي اليها سلم الحبال .

قال الكردينال ، لقد حزرت ذلك ... وماذا جرى بعده ؟

اجاب ، ان الملكة امرتني بتناسي ما رأيت .

قال ، ومن الرجلان ؟

اجاب ، احدهما سموت بيدي عندما القاه . وقال الكردينال ، والاخر ؟

اجاب ، هو سجينك الليلة . فان الملكة اقتادتهما في تلك الليلة معا الى

دهليز خفي ، وتذكر ان المسيو دي مزغونة كان من حراس الملكة في اليوم

التالي .

وكان الكردينال قد خاسره ارتياب في كل ذلك لكنه لم يجد اقل برهان

عليه فقال للمحامي . اصغ الي ان كان يهتك الانتقام من الرجل الاخر ،

فنحن واخي نساعدك ، وانا اعرف من تعني ، فهو شجاع باسل وانت وحدك

لا تقوى عليه ولا يمكن ان تنظر به . ولكن اذا ساعدناك فانما تفعل بشرط

واحد .

— ما هو ؟

— ان الملكة ألد اعداء مذهبنا فلا بد لنا من اضعافها . فعليك ان تدون

ما قلته لي ...

— انك تعرضني لانتقام الملكة .

— لا بد من ذلك . وهي لا تجسر على الانتقام منك ما دمت من اتباعنا

وذوينا .

— اني اعدك بما تروم .

— والآن عليك ان تكتب اقرار هذا الخائن . ولما رجع الرجلان الى

الحجرة الواطئة كانت المرأة التي تبعت المحامي تزفر زفرات حرة وهي

مختبة في ساحة السلم وقد سمعت المحادثة . وكانت هذه المرأة ، وهي

الملكة كاترين ، تبكي غرامها الضائع ، وحييها الوحيد ، ومظاميها النذابة .

ثم تجلّدت تجلدا غريبا ودخلت الحجرة وقصّدت الى الكردينال فقالت له ،
ما معنى هذا ؟

اجاب ، معناه ايها السيدة ان بيننا جاسوسا يحمل الرسائل الى
الامير ...

قالت ، ومن تلك الرسائل ؟

قال ، لعلك ادري بها ما ؟

قالت ، واي برهان لديك على ان هذا الرجل جاسوس ؟

اجاب ، ان الشريف المخلص ايها السيدة لا يفر ولا يرتحل عن القصر
ليلا قيل معركة . فالسيو دي مزغونة اذا خائن .

وقد بدأ الجلاد بتعذيب ترولوس وكان ينظر الى الملكة في اثناء ذلك
التعذيب نظرة وكأنه يقول لها « انا هالك ايها الملكة ولا طاقة لك على
انقاذي من الردى ، ولكن لا تخافي فقد بذلت نفسي فداءك » فتقدمت اليه
كاثرين وقد خطر لها وجوب تنجيته ولكنها لم تهتد الى طريقه لان تصرفه
لم يكن مما يعذر عليه . فقد ترك خدمة القصر ليلا دون ان يتلقى امرا ،
ولم يكن في وسع كاثرين ان تقول انها هي التي امرته بالذهاب لئلا تفضح
نفسها . فلم يكن بد من تركه يسوت ، وهو الضابط الكريم الذي احبته
حبا كالجنون واصبحت عاجزة عن انقاذه ... وفيما هي تنظر اليه انفتحت
شفته وهمس بهذه الكلمات ، قال ، ان الرسالة مع جاليو ولم اقر بشيء
... والنا اهواك ... فوداعا !

فدنا الكردينال وقال ، ماذا يقول الشقي ؟

فاجابته ، لست ادري .

ومضت رافعة الرأس كبيرا فلما خلت الى نفسها في مخدعها ترامت على

مقعد وبكت احمر بكاء وهي تغمغم اسم ترولوس وتقول ، لقد كنت تهواني
ايها الحبيب هوى ذهب بحياتك ، لاني عجزت عن انقاذك . ويلاء ! لقد
تسلط علي هذا الكردينال الذي يخيفني واصبح يعرف سري . يصرف
انني انقذتك في قوتنبلو ، وغدا يكتب افيل المحامي اللئيم قصته ! ...
فويل للشقي ! ..

وتهضت لاعتها فاجتازت الرواق حتى وصلت الى حجرة المحامي
فدخلتها خفية واخرجت زجاجة صغيرة فكبت منها سائلا اسود على
الفراش ، وصبت قطرات منه في قدح ، وعلى المقاعد ، ورجعت الى غرفتها .
فسمعت اثبات الالم من الحجرة الوائلة ، وكان الجلاد فيها يسحق عظام
ترولوس المسكين . الا انه ظل صامتا لا يتكلم .

والكردينال يقول له ، كانت معك رسالة ، فيجيبه ربا . فيقول له ،
ماذا فعلت بها ؟ فيجيبه ذلك لا يعنيك . فيقول ، هل اعطيتهما للفارس الذي
التقى بك ؟ فيجيبه نعم ، ولا . فيقول ، من سلمك الرسالة ، فيجيب لم
يسلمني اياها احد . فيقول ، الى اين كنت ذاهبا ؟ فيجيب ، الى حيث لا
تدري فدعني اموت ، اني خائف كسا تدعي والسلام .. فيأمر الجلاد
بتشديد عذابه . فلما فقد ترولوس رشده انتهى الكردينال الى المحامي
افيل فقال له ، اذهب واكتب القصة التي تعرفها ، ووقع عليها باسمك وغدا
اطلبها منك .

ثم قصد الكردينال حجرة الملكة فالتقاها جاثية تصلي ، فقال لها بحق :
اتصلين لاجل الخائف ؟ فاجابته ، ان المؤمن يصلي لاجل كل شيء .

وكفكت كاترين عبراتها وعادتها السكينة لان ترولوس قد مات فلا
ينبغي ان يدري احد بما اصابها من ألم يسرق حشاشتها خصوصا لانها كانت
ترتاع من الكردينال . الا ان الكردينال كان شقيق الدوق دي جيز ، وهو

القائد الذي يمكن ان ينتصر غدا فيصبح صاحب الكلمة العليا والتفوذ الاسمي كما وقع له مرة ، فرأت الاجدر بها ان لا تبدي شيئا مما يخامر نفسها . فقال الكردينال ، ان الرجل الذي كنت تظلمينه بحمايتك كان خائنا ، ولقي عذاب الخائنين . وقد انبأت الناس بانه انما هلك بحياته للملك واخلاله بما يوجهه عليه منصبه . اما انت فاني انبك بانه لم يلق العذاب والردى الا لانه كان يهواك . وقد سلمت رسالة الى امير كوندو ، فامت كاترين بحركة تدل على نفى وانكار . فقال ، لا تخادعيني ايها السيدة ، فلو لا اطلاعي على الحقيقة لما تجرأت على مخاطبتك بهذا الكلام . والآن يجب عليك ان تنضمي الى حزب الكاثوليكين باخلاص قلب ونزاهة فكر ، والا اكرهتك على ما لا تحبين .

قالت ، أهانة يا كردينال :

اجاب ، يحق لي ان اتهمك وانتشر على رؤس الملا تصرفك ، واعلن انك اتخذت عشاقا .

فقلت بحدة : مهلا يا كردينال ، واعلم ان والدة الملك لم يكن لها ، ولا يكون لها الا عاشق واحد .

قال ، ما اسمه ؟

اجابت ، اسمه عرش فرنسا ... فاخرج من هنا ! ...

وكانما سحر بمعطتها فخرج وقصد الى حجرة المعامي افيل .



وانقضى نهار ، وقد ساد على قصر فنسان سكوت وحزن شديد . وعلم الكل ان الجيشين يتقاتلان . ولكن لم يصل نبأ جديد الى القصر . اما الكردينال فلم يكن قد رأى الملكة مرة ثانية فاخذ يتنزه في مسكنه رائعا

جائيا ، ناظرا الى نافذته ، مصفيا الى كل صوت ، وقد اعلن انه يهب مائة دينار لأول ساع يبشره بهزيمة البروتستانتين . واما كاترين فانها لم تفارق مصلاما وهي تضرع الى الله ان يمكنها من آل جيز ويسلطا عليها حتى ترغم انوفهم . واتجه فكرها بعد ذلك الى ذلك الحبيب الذي يعالج سكرة الموت في تلك الحجرة المظلمة . وهو لم يشته الا شيئا واحدا قبيل انصرام اجله ، هو رؤية الملكة . لكنه لم يجهل ان عين الرقباء مبثوثة حولها ، وانها تشفق على عرضها ان يلم به كل طويل اللسان . وقدم بعض اشراف من باريس وقالوا ، ان الناس يجتمعون في الكنائس مبتهلين الى الله ، داعين للدوق دي جيز بالنصر .

وعند منتصف الليل قدم فارس ووقف بآبواب القصر ونادى ، اني جئت بالانباء فافتحوا لي الباب . وكان ذلك الفارس جميل المنظر ، على ثيابه آثار الدماء وغدارته مسودتان من البارود ، وكل ظواهره تدل على انه كان من ابطال المعركة . فتواثب الخدم في البلاط اليه وهم يقولون ، لمن النصر ؟ البروتستانتين ام للكاثوليكين ؟ فاجابهم لقد انتصر الامير !

وسمع الكردينال هذه الكلمات فوثب غضوبا . واذا ذلك دخل الفارس على الملكة وطلق يحدثها بتفاصيل المعركة ووصائفها يسمعن . وانها كانت معركة هائلة فاز فيها الامير فوزا مينا فسحق جيش اعدائه واستأسر مونتوراني ، وكان « سن اندرة » من قتلى المعركة ...

ثم قال الرسول ، ان رحى القتال لا تزال دائرة ، الا ان الامير رغب اليّ في نقل البشري اليك ، فاجته الى طلبة وتخطيت صفوف الاعداء اليك ...

فصاح الجميع ، كيف تخطيت صفوف الاعداء ؟ ومن هم الاعداء ؟
قال ، هم جنود الكاثوليك !
قالوا ، أبروتستانتى انت ؟

اجاب ، كلا ، ولكنني من رجال الامير ، واسمي جاليو دي براك .

ولقد تمنى الكاثوليكيون ان يهجموا عليه ويمزقوه اربا اربا ولكنهم لم يروا من الحكمة الاعتداء على ظافر ، فتركوه يتم كلامه ، فقال « لما رأى الامير انه الفائز في هذه الحرب قال لي ، تقدم ودس بحوافر فراك جماجم القتلى ، واذهب الى فنان قتل لابنة عبي الكريمة ان الله وهب لي النصر لخير المملكة » .

فصاح الرجال ، ويلاه كيف يكون مصيرنا ؟

فاجابهم الملكة بلطف قائلة ، اي ضرر يصيبنا اذا سمعنا الوعظ بدلا من ان نسمع القداس ، وأي بأس نخشاه اذا صلينا الى الله بلفتنا المفهومة بدلا من ان نصلي اليه باللغة اللاتينية القديمة المجهولة ؟

فانصرف الرجال واهتم بعضهم بالتأهب للسفر خيفة ان يفاجئهم الامير . فبقي جاليو مع الملكة ثم قال لها وهو يتردد ، ماذا جرى لتروس ؟ قالت وأأسفاه عليه !

وتبادرت الدموع على وجتها فقال جاليو ، هل مات ؟

اجابت ، بل يوشك ان يموت ، ان لم يكن قد مات فعلا . فتعال معي . وتناولت مصباحا وسبقت جاليو الى الحجرة الواطئة التي كان فيها ترولوس يعالج سكرات الموت ، فنظر اليهما نظرة مملوءة حبا وولاء ، فقال جاليو ، واحترناه عليك ايها الصديق ! وقالت كاترين ، واحترناه عليك ايها الحبيب !

وفيما كان نفس ترولوس يتردد في حلقة صاح جاليو اما من ميل الى الانتقام ؟ قالت ، ان القتلة اقوياء .

قال ، لعلهم آل جيز .

اجابت ، نعم .

قال ، قاتلهم الله ! ..



ولكن ما طلع النهار حتى اقبل فرسان كاثوليكيون على فسان ينقلون اليها بشرى هزيمة البروتستانتين . فقبل لهم لقد جاء رسول قبلكم فانبأنا بموت سن اندري واسر مونمورانسي ، ونقل اليها خبر انهزامكم ...

وكان كل ذلك صحيحا ، لان الامير دي كوندافاز في الاول ، ثم هجم الدوق دي جيز عليه بجيشه فتغير وجه المعركة وتقهقر البروتستانتون وفر الاميرال ، ووقع امير دي كوندافاز اسيرا . وقال الفرسان ان الدوق اسره واضجه عنده في غرفته حتى يكون في مأمن من فراره . فعلا هتاف الهائمين للدوق دي جيز .

فسار الكردينال الى مخدع كاترين ليتلقى منها الاوامر ، فلما وافاها بذلك النبا بهت ، الا انها تماكت وقالت له ، دع المصلين يصلون في كنية نوتردام ، ويشكرون الله على النصر ، ولوفا شهد الصلاة .

وسافر البلاط الى باريس مسترسلا في فرح عظيم ، وقد تناسى القوم جاليو وكان منصرفا الى الاهتمام بدفن صديقه « ترولوس كونسنت دي مزغونة » . ولما وصل الى المقبرة لقي حفار القبور يحفر قبراً لم يسر في جنازته احد ، فقال له ، من الذي تدفنه هنا ؟ فاجابه ، لت ادري .

فقال لحفار اخر ، وانت الا تدري كذلك ؟

اجاب ، كلا ، ولكنني احبه محاميا . فارتعد جاليو . فقال الرجل ، ويقال انه مات موتاً فجائياً في الليلة البارحة .

قال ، الا تذكر اسمه ؟

اجاب ، كلا ، ولكن اقرأ انت اسه على هذه الالواح ، فاني لا احسن القراءة . فاقبل جالير على الواح النعش فقرأ ما صورته :

« المحامي برنار افيل ، معام لدى مجلس نواب باريس » .

فقال جالير ، وهل عرف سبب وفاته ؟ اجاب الحفار ، ان الطبيب لم يتمكن من ذكر السبب ... وانما كانت الجثة سوداء ... فرجع جالير الى القصر وهو يقول ، وارحمتاه لك يا ترولوس فقد قضيت فداء عن الملكة ... وانما انت ايها المحامي المرذول فقد قضت عليك الملكة ! ... لقد برح الخفاء الان . وما احسب امتاذي برنابا الا على صواب ، لان ظاهر هذه الدماء سار وخافيتها محزن مظلّم . وبكى بكاء شديدا .

الفصل الواحد والثلاثون

(خادم الدوق او حاكم بايو)

كانت نتائج معركة « درو » Dreux مسؤولية على كاترين ، ولم ينتصر الدوق دي جيز فقط بل غدا اليد الوحيد بلا منازع بعدما هلك سن اندري ووقع مونسوراني اسيرا عند البروتاتيين . وبات الدوق دي جيز ملك فرنسا ، فقص الى رامبويه ليقص خبر المعركة على شارل التاسع . ولم تطل مدة اقامته فيها ، بل أسرع عائدا الى جيشه ليطارد الاميرال ، رفيق امير كوندا في تلك الحرب . اما مونسوراني فقد ذهبوا به الى اورليان واسكنوه عند ابنة اخيه زوجة امير كوندا . واما امير كوندا فقد حبس في قصر اوبزين .

اما الاميرال ، وقد قلنا انه فر من امام الدوق دي جيز ، فقد سار فاستولى على مواقع حربية في سنتونج وييري . فطارده الدوق دي جيز وعاد عنه بعدما فئت بقية جيشه . ثم اتجه الى نورماندي وكان الفائز فيها ، واستولى على مدينة قايين التي دخلها جنوده من ثغرة صغيرة . وتوالت انتصاراته في نورماندي ، فعزم على محاصرة سائر مدنها والتربص فيها الى حلول فصل الربيع . وكان بين أحسن ضباط الاميرال ،

بـلـتـرودـي مـيرـا ، عـاشـق مـادلـين ، فـقـد اتـخـذ مـهـنة الجـاسـوسـية ، فـكـان يـتـجـسـس
لـلـجـيش ، وـقـد كـان مـن أشـجـع الفـرسـان وأثـبـتـهـم فـي مـواقـف النـضـال . ولـظـالـما
قـال لـه الـامـيرـال ، انـت يا بـلـتـرو قـلـيل الفـطـنة ، كـثـير المـخـاطـرة بـنـفـسـك ، فـكـان
يـجـيـه بـقـولـه ، سـامـوت قـريـبا و لـكـن بـغـير مـقـاتـلة العـدـو .

ويعلم القراء ان الدوق دي جيز صرع بـلـتـرو بـتـلك الضـرـبة ، و غـادره
فـي مـديـنة رـوان اقـرب الـى المـوت مـن الحـياة . فآـواء البرـوتـاتـيون وشـفي
عـلى مـهل . و لـم يـح لـاحـد بـاسـم الرـجـل الـذي ضـربه ، و انـما كـان يـدـيـم التـفـكـير
فـي الـاتـقـام مـن الدـوق ، و فـي مـادلـين . و لـم يـدع مـوضـعا فـي رـوان الـا دـخـله
بـاحـثـا عـنـها دـون ان يـكـتـشـف مـقـرـعـها . و بـعـد طـول الـاسـتـعـلام قـيل لـه ، ان
رـجـالا ، و صـنـفـوهم لـه فـعـلم انـهـم يـشـبـهـون الرـجـال الـذين أبـصـرهم يـحـمـلـون
مـادلـين عـلى أيـديـهـم ، خـرجـوا صـباح يـوم مـن مـديـنة رـوان يـحـمـلـون امـرأة عـلى
عـلى جـواد أحـدهـم .

و فـي الـيـوم الـذي تـلا مـقـوط قـايـن أمر الـامـيرـال بـسـداهـمة مـديـنة بـايـو ،
فـتـقـدم بـلـتـرو لـيـصـحـب بـريـكـفـيل ، و هـو القـائـد المـأمـور بـالـهـجـوم عـلى المـديـنة .
فـقـال لـه الـامـيرـال ، خـذ بـلـتـرو وكن واثـقا بـه كـل الـوـثـوق فـقـد رأينا مـن خـدمـته
ما يـقل بـجـنـه كـل ثـقة .

و لـم يـكن الضـباط يـحـبـون بـلـتـرو نـظـيرا لـهـم ، و ذلـك لـان القـرنـاسـاويـن
كـانـوا و ما زـالـوا حـتى الـيـوم يـنـفـرون مـن الجـواسـيس ، فـرضـي بـريـكـفـيل
بـصـحـبة بـلـتـرو عـلى ان يـبـتـه الـى اسـوار المـديـنة . و مـديـنة بـايـو المـديـنة
الـوـحـيدة الـتي لـم يـزـرـها بـلـتـرو .

فـرـصـل اليـها فـي الـيـوم التـالي عـند اقـقال الـابـواب ، و دـخـلـها مـتـكـرا بـثـوب
قـرـوي . و للـحـال تـين لـه ان السـكـان فـي غـم و قـلق لـانـهـم ، و مـعـظـمـهـم

بروتستانتيون ، قد ألجئوا الى سماع القداس واعتناق المذهب الكاثوليكي في الظاهر .

ونزل بلترو في فندق ، فلما كان الماء تمدد على كرميه وأطبق عينيه كأنه نائم ، فسمع رجالا في الفندق يتحدثون .

قالت زوجة صاحب الفندق ، خافضة صوتها ، أظن الرجل الغريب نائما . فأجابها الحضور ، نعم انه نائم ، ولا مانع من الكلام ، فما وراءك ؟ أجابت : أبناء كثيرة .

وقال قائل : ما هي ؟

قالت : لقد طفت المدينة سحابة نهاري ولا حديث للناس في مجالسهم الا عن الضربة الجديدة التي يروم الحاكم ضربنا بها غدا . فقال أحدهم ، لعنة الله على الشقي !

قالت : ولكن كيف السبيل الى معاندته ومناوآته وهو الخصم والحكم . ولقد حاول موظفو الحكومة الاعتراض فاطلعهم على أمر موقع عليه من الدوق دي جيز !

قال : وما عسى ان يكون فحوى ذلك الامر ؟

أجابت : فعواء تخويل كل سلطة على مدينة « باير » للايطالي جويلو روسو حاكمها .

وسمع بلترو هذه الكلمات فخامرته الشكوك فأنصت وقتا طويلا الى ما يقولون ، الا انه لم يجد علاقة بمادتين في كل ما سمع . وكان عملاء الفندق وصاحبه ينتقدون فظاظة حاكم المدينة ، ويدعون عليه ، ويذكرونه بكل سوء . فخطر لبلترو ان يستعلم منهم ، فتشاءب وتمطى كمن يستيقظ من نوم عميق ، وأخذ يلتفت الى ما حوله ثم قال ، لقد خيل لي انني سمعت اسم رجل ايطالي . فارتعد الحضور وخافوا ان يكون سامع كلامهم ذا

صلة بالحاكم • وتفقد أحدهم خنجره ثم قال ، لعلك من اصدقاء الحاكم ؟

فاجاب ، يستحيل أن اكون من اصدقائه لانه كاثوليكي ولاتني بروتانتني • فتلقي القوم هذه الكلمات بالقبول • فقال بلترو ايضا : نعم انا بروتانتني ، وأظنكم كنتم تقولون ان حاكم مدينتكم رجل ايطالي • قالوا نعم ، واسمه جويليو روسو

قال ، هل ارسله الدوق دي جيز ؟

اجابوا ، نعم وكان خادمه ووسيطه الناقل من قبل ، وخدمه ثلاث سنين ، فكافأه على خدماته السافلة بان قلده منصب حاكم على مدينة بايو •

قال ، هل كان يصحب الدوق دي جيز وقت الحرب ؟

اجابوا ، نعم ايها الصديق ، ولكنه فارقه بعد حصار روان •

قال بلترو ، وهل وصل الى مدينة بايو منفردا ؟

اجاب صاحب الفندق ، كلا وانما كان يقود فتاة مكيئة لابسة ثيابا سوداء • والظاهر ان الحزن كان متمكنا منها •

فكاد يفتضح بلترو امام القوم الا انه تجلد • وقد تحقق الان ان مادلين كانت في مدينة بايو بين يدي ذلك الايطالي فلا بد له من اختطافها منه • ولا سبل الى نيل الارب الا بالاستيلاء مريعا على المدينة • فلما رقد النازلون في الفندق ، خرج منه واتجه الى بيت الحاكم غير محاذر ان يصادفه العسس • فلما توسط المدينة لقي الاحتفالات فيها قائمة ، وسمع القوم يشدون أنشودة كاثوليكية يذرون فيها البروتانتين بالويل والشبور •

فهاجه الغضب لسامعها لانه سمعها قبلا في مدينة روان • ففكر في الهجوم على البيت وقتل الحاكم ، الا انه أشفق ان يقتل ويذهب دمه هدرًا ولا يبقى من يتقم من الدوق دي جيز • فابتعد سائرا في الطرق

والأسواق مختبأ بظلال البيوت حتى وصل الى الأسوار ، وإذا به قد أبصر رجلين من الحراس . وحسب بلترو أن جيش الأميرال لا بد أن يكون قد وصل الى « بايو » ، فلبث محتجبا في زاوية حتى مر حارس وناداه الحارسان الآخران ، من هذا ؟ فأجاب بقوله « خريستوس ومادلين » وهما كلمتان متفق على أن تكونا إشارة للمرور .

فقال أحد الحراس : سر ! ولكن متى ترجع إلينا ؟

أجاب : بعد ثلاث ساعات فقط .

قال الآخر : بئس الحال فإن البرد شديد في هذه الليلة .

فغضى الحارس . وسمع بلترو هذه المحاورة فخرج من مخبأه وتقدم الى أحد الحراس ، فقال له ، من القادم ! فأجابه بقوله ، خريستوس ومادلين . فقال ، سر بالسلامة .

فتقدم بلترو حتى دنا منه ودفعه بشدة فانقلب في خندق السور . فبادره حارس آخر وقد سمع صوت الوقعة فقال ، ما هذا ، فأجابه لست أدري أيها الصديق ، فقد كان رفيقك هذا يترنح ، ولعله سقط في الخندق . فبُهِت لكنه ما لبث أن سأل بلترو قائلا ، وما شأنك والوصول الى السور ؟ قال ، أنا ؟

أجاب : نعم أنت ، فإن سكان بايو ينامون كلهم في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل .

أجاب : اني صديق للحاكم ، ولست من سكان هذه المدينة .

قال : أتعرف كلمة المرور ؟

أجاب : طبعاً وهي خريستوس ومادلين .

فكث الحارس ، ثم أن بلترو قال له ، ما رأيك إذا نزلنا الى الخندق وأسعفنا المكين ؟ أجاب : اني أود ذلك . قال : كيف السبيل اليه ؟

قال : اتبعني ، فهناك في السور بعض حجارة تشبه السلم ويسكن
النزول عليها . وويل لنا اذا درى البروتستانتيون بها !

فنزل الرجلان الى الخندق على الحجارة . ولقد صدق الجندي بقوله
انها تشبه السلم . فلما اقتربا الى الموضع الذي وقع فيه الحارس الاول
رفع بلترو يده فضربه الحارس الثاني فخر صريحا بجانب رفيقه . ثم سار
الى خارج المدينة .

وقد أصاب في ما خطر له . لان البروتستانتين وصلوا في تلك الليلة ،
واختبأوا منتظرين طلوع النهار حتى يوافيهم بلترو بالايضاحات التي لا بد
لهم منها لمفاجأة المدينة بالهجوم . فقال له بريكفيل قائد الحملة : ماذا
جري ؟

فأجابه بلترو : هيا بنا فانا قادرون على دخول المدينة في هذه الليلة ،
ولكنني قبل كل شيء أتمنى عليك حاجة . قال : ما هي ؟
أجاب : هي ان تدعني أتولى قيادة الفرقة .

وتحرك البروتستانتيون ، وكان بلترو في مقدمتهم . فسا لبشوا حتى
وصلوا الى أسفل الاسوار وأنزلهم بلترو الى الخندق فأدراهم الحارسين
القتيلين ثم قال ، يمكننا الصعود من هنا . والحراس لا يأتسون الى هنا
الا بعد ساعة ، وأمامنا سلم حقيقي من هذه الحجارة المهشمة . فتسلق
الجنود واحدا بعد واحد ، عاملين بايضاحات بلترو . وكانوا يختبئون في
الناحية الاخرى من السور ، وهي الناحية التي يسهل عليهم النزول منها .
وفرح قائد البروتستانتين بهذا النجاح غير المأمول فكاد يردد قوله ، حقا
ان بلترو هذا عجيب ! فهو يدخل كل مكان ، ويعرف كل شيء ولقد
صدق الاميرال .

وبعد هنيئة جاء مفتش الحراس فلم يجد هناك جنديا حارسا . فوقف

وصاح من أنت ؟ فأجابه بلترو ، صديق ! قال ، ما هي كلمة المرور ؟ فأجابه
خريستوس ومادلين .

فاطمان قلبه شيئا ، وتقدم الى ناحية البروتستانتين وللحال أحدقوا
به وقتلوه ، الا انه تمكن من اطلاق غدارة فهب الحراس جميعا ، وارتفعت
الصيحات ، وبدأت المعركة .



ودام القتال ثلاثة ايام . وقاتل الحاكم ببسالة عجيبة . وثار سكان
المدينة عليه الا ان جنوده كانوا يعلمون مقدار بغض السكان لهم فكانوا
يقاتلون قتال البائسين . وأخذ السكان يطاردونهم وهم يلجأون الى
البيوت . هذا وبلترو في الطليعة غير هباب يقول ، لا أقف الا امام بيت
الحاكم ! فقال له احد الضباط ، هل من سبب يوصلك على عداوته ؟
أجاب : ربما . وبعد ثلاثة أيام انفتحت امام جيش البروتستانت ساحة
« بايو » وفيها اجتمع الجند الكاثوليكي للقتال الاخير .

فكان النضال مما لا يوصف بلسان ، بل كان مذبحة او عراقك حيوانات
ضارية . ولم يسض الا وقت قصير حتى خلت الساحة من الكاثوليكين .
ولما رأى سكان المدينة ان البروتستانتين قد اتصروا ، اوصدوا أبواب
بيوتهم في وجوه الكاثوليكين وكانوا يصرعونهم أفواجا حيث ساروا .
وأدرك بلترو غايته ، فوصل الى بيت الحاكم ودخله وتبعه الجند يجتاز
الغرف عنوة ، وكان البيت كان مهجورا . وكانت عبرات الحنق والكبد
تسيل على وجنات بلترو ، لانه أشفق ان يكون جويلو قد لجأ الى الفرار .
فلما لم يجد بلترو احدا في بيت الحاكم هم بالانصراف وهو متردد ...
فجاءه البروتستانتيون بخدم المنزل وكانوا مختبئين في الطبقة السفلى من

البيت وهم يرتعدون جزعا ويسترحمون ، فقال لهم بلترو ، لكم الامان جميعا اذا اخبرتوني بمقر مولاكم . فاجابه احدهم ، سمعا وطاعة ، ولا أظن عليكم بالانباء عن الحاكم لانه رجل لئيم لا يستحق الاخلاص . فقال بلترو تكلم . قال ، في جوار هذا البيت بيت لكاهن من اصدقاء الحاكم ، لجا اليه وفيه تجدونه . فقال بلترو ، هل تقول حقا ؟

أجاب : وأزيدك علما بأنك لاتجد الحاكم هناك وحده ! فالتقى بلترو بهذه الكلمات ، وهجم على البيت المجاور فالتقى بالكاهن ، فجثا امامه وتوسل اليه ان يرحمه ولا يقتله ، فقال له بلترو ، بعيتنا الحاكم ، فأين هو ؟ أجب القسيس ، لا أدري .

قال : انه عندك . أجب : كلا ، وان شئت فأبحث عنه . وكان بلترو متعجلا ، فصوب غدارته الى رأس القسيس وقال له ، ارشدني الى مخبأ صديقك والا فأنت هالك !

فامتقع لون القسيس ومد يده الى الجدار وقال بصوت منخفض ، انه هناك !

فتقدم بلترو الى الجدار ، وقربه بقبضة سيفه فسمع صرخة عالية وأنىا . فصاح برفاقه ، علي بالمؤوس والمعاول وأهدموا هذا الجدار . وبعد ساعة هدموا بعض الحجارة فأبصروا وراء الجدار مشهدا هائلا .



ولقد حاول حاكم البلد حين رجوعه الى « بايو » مصحوبا بمادلين ان يتخذها خلية فلم يلق منها الا الجفاء والسخط . وقد يئست من عودة بلترو ، وظنته قد قُتل في مدينة روان ، غير أنها اعتصمت بآلتها عندما اقترب اليها جويليو ، فنشب بينها وبينه نضال عنيف ، وكانت تصده

وتهدده بقتل نفسها أمامه إذا استمر على ملاطفتها ومضايقتها . فلما تحقق هلاكه وأن كل فرار مستحيل ، غادر جنوده يدافعون عن نفوسهم ، واتجه الى منزل صديقه الكاهن ، فأمر بأن تبني له غرفة ضيقة وراء الجدار ، ومدت أنابيب من رصاص لادخال النور والهواء اليها ، وحصل اليها خزانة وفراشا وكريسي . وزادا يكفيه ابوعين ، وشرابا . ثم استحضر مادلين الى تلك الغرفة فحملوها اليها وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة . ثم ان صديقه سد الجدار عليه وعلى مادلين (١) . وخيل لمادلين انها في حلم هائل لا في يقظة ، فكانت تحقق البصر في وجه جويليو الدميم القاسي ، اما هو فكان مطمئن القلب فرحا بحيلته ، متيقنا انه في ذلك الموضع آمن كل مخوفة وشر ، فجعل يترنم بأشودة الكاثوليكين في ذلك العهد ومعناها « ان مال البروتستانتين وأعراضهم حلال للمؤمنين الكاثوليكين » ثم قال ، مهلا أيتها الحناء ، فلا بد من ان تضحكي وتشربي معي وقد صرت لي مليكا ولا قدرة لك على مقاومتي .

قالت : أف لك من شقي ، فانك تخيفني بشراتك وهمجيتك .

وقد تمكنت في ساعة نضال وعراك من الحصول على خنجر كان معه فقالت له ، أقسم لك على اني أقتل نفسي اذا اقتربت الي . فاستضحك وعاد فجلس قرب الخزانة وشرب الخمر وهو يسمع دوي الرصاص . ثم علم ان رحى القتال دائرة في ساحة المدينة تحت البيت . فتولى مادلين القلق وقالت ، لعل المقاتلين من البروتستانت ؟ واذا بها تسمع صيحات متواليات ، وحركة السلاح قرب الجدار ، ثم الضربات تنهال على الجدار نفسه .

(١) وصف هذا الخبر مأخوذ عن مستندات تاريخية لا يمكن ان ينطرق شك في صحتها .

فنهض جويليو وقال ، ما على المضطر من حرج ، ولم يبق الا ان تحكم
القوة بيني وبينك أيتها الحسناء . واذا ذاك سمع بلترو تلك الصرخة
والاثة لان جويليو حاكم البلد كان قد شرب كأسا أخيرة من الخمر ،
وتقدم الى مادلين متوعدا شاعرا سيفه بيده . فأصاب بنصل سيفه يدها
القابضة على الخنجر فأطبقت المكيّة عينيها ورفعت الخنجر فطعنت به
صدرها . واذا ذاك وثب بلترو الى الغرفة الضيقة فرأى جثة مادلين . فهدر
وزمجر ، ووثب على جويليو روسو فانتزع منه سيفه وأخذ يطمعه بخنجره
حتى كاد يسزق أشلاءه . ولما أراد بريكفيل قائد الحملة لقاء بلترو ليشكره
ويهنئه بحذقه وبسالته لم يجد له أثرا .

الفصل الثاني والثلاثون

(طلق ناربي اخير)

وبعد انقضاء ايام على هذه الحوادث ، وبينما كان الاميرال كوليني يتشى في فسطاطه وقف بلترو امامه وقال له ، أبشرك ايها الاميرال بالاستيلاء على مدينة بايو . فأجابه ، قد عرفت ذلك ، وعرفت ايضا انك كنت من ابطال الوغى . ولكن ماذا دهاك ؟ فان صوتك خشن وكأنك محموم فأجابه ، ليس بي الا عناء الير

قال ، اذن وجبت لك الراحة بعد العناء وقد قضيت الواجب المفروض حق قضائه واكثر . حركك الله !!

قال ، شكرا لك يا سيدي الاميرال على هذه الكلمات الطيبة ، ولكنني لست بحاجة الى الراحة .

قال اطلعني على ما تروم . فما حاجتك ؟

أجاب : حاجتي حملة جديدة ، وحاجتي روح رجل اختطفها .

قال ، اما الحملة الجديدة فليس هذا وقتها لان نورماندي قد سلمت الينا قيادها وانا انتظر حلول فصل الربيع لمباشرة القتال .

فلث بلترو هنيةً وهو صامت ، ثم نظر الى الاميرال نظرة مرعبة
وقال له ، أين مقر الدوق دي جيز الآن ؟

فأجابه ، لماذا تروم معرفة مقره ؟

قال ، لأرقبه . . أولست جاسوسا ؟

فأطرق الاميرال قبل ان يتكلم ، وأدرك ان بلترو يحاول أمرا يقدم
عليه بجرأته العادية فقال ، ان الدوق يحاصر الآن مدينة أورليان .

قال ، وهل تقوى تلك المدينة زمنا طويلا على احتمال الحصار ؟

أجاب ، كلا وأمفاه ، ويسوءني قرب سقوطها بين أيدي الكاثوليك .

— ألت في حاجة الى بعض ايضاحات عن الدوق ؟

— كيف لا ؟

— لا جواد عندي لاسافر الى أورليان ، فهل لك في ان تهب لي

جوادا ؟

فحدث الاميرال في وجه بلترو ، ومضى ففتح خزانة فأخرج منها بعض
دنانير وأعطاه اياها ، فقال ، شكرا لك يا سيدي . والشيء بالشيء يذكر ،
فليس عندي غدارات ادفع بها عن نفسي لان غدارتي قد انفجرت عند
الهجوم على بايو . فتناول الاميرال غدارته وسلمها الى بلترو . فقال ،
أشكر لك هذه العطية ايضا يا مولاي وسوف تتلقى اخبارا عن الدوق
دي جيز بعد ثمانية ايام اذا بقيت حيّا . تلفظ بهذه الجملة الاخيرة بلهجة
جافية ، فارتاع الاميرال وأمك يده وتفرس في وجهه وقال ، ما أراك
ذاها الى أورليان لمجرد التجسس والمراقبة ؟ قال ، لم هذا الكلام ؟

قال ، لان ما حاجتك بغدارتي اذا ، ولما تروم شراء جواد ، الا اذا

كنت تبغني قتل عدو ؟

أجاب ، ولكن ذلك لا يعني من التجسس .
قال ، اعلم يا بلترو انني لا احب القتل والاعتقال ، فأقسم لي على أنك
لا تنوي بذهابك الى أورليان قتل الدوق دي جيز . فمد بلترو يده وقال ،
أقسم لك على انني ذاهب الى أورليان لمصلحة دياتنا المقدسة وخيرها ،
ومضى ، وقد غادر الاميرال كثير التفكير .

أجل ، فقد كان الدوق دي جيز يحاصر مدينة أورليان وقد استولى
على سوق من أسواقها ولث فيه يهدد البروتستانتين .
وأرسلت اليه الملكة الوالدة كبا متوالية توصلت فيها اليه ان لا يفتح
المدينة بالهجوم . الا ان الدوق كان يتوق الى هو أمر تلك المدينة التي
كانت تعد عاصمة للبروتستانت ، فأجاب الملكة بقوله ، ان مجلس الملك ،
عندما نشبت معركة درو بيني وبين أمير كوندّة ، قد فرض الى قواد
الجيش العمل بما يروونه ملائما لمصلحة البلاد ، فأنا أعمل بتعويض مجلس
الملك .

وقصد الدوق دي جيز « بسجل الملك » جواب الملكة يوم استشارها
في مقاتلة أمير كوندّا ، كما يذكر القراء .

ولم تستطع مدينة أورليان ثباتا طويلا لعدم وجود مهات الدفاع
الكافية . فأبأ الدوق ضباطه بأنه سيهجم عليها يوم ١٨ فبراير (شباط)
ثم قال لهم ، « ان الملكة الوالدة تروم منا اللحاق بالميو دي شاتيليون
الى نورماندي ، وسوف نذهب بعد ان نستولي على أورليان » .

وفيما كان الدوق يستعد للهجوم وافاه أحد رجاله بالسيد بلترو
دي ميرة وقال له ، انه عرفه في عهد هنري الثاني ، وهو الآن يرجو ان
يسمح له باعتناق المذهب الكاثوليكي .

فرضي الدوق دي جيز ان يجعل بلترو بين حراسه اعتمادا على توسط
احد رجاله وكثرة اطرائه اياه . وكان تفيير المذاهب في ذلك العهد امرا
مألوقا . فلزم بلترو الدوق ، وكان يرقبه ويرصد حركاته وسكناته ، فلم
ينقض زمن قصير حتى عرف عاداته . ولقد أراد قتله قبل ان تسقط أورليان
في ايدي الكاثوليك .

وكان كل شيء مهيا للهجوم . ففي مساء يوم ١٧ فبراير (شباط)
تفقد الدوق طلائعه وأوصى ضباطه بالتأهب للغد .

فعمزم بلترو على قتل الدوق في تلك الليلة . فمر الى الناحية الاخرى
من النهر حيثما كان يسكن الدوق وزوجته . وبينما كان يبحث عن مكان
صالح للاختباء صادف شريفا من حاشية الدوق ، هو الميود دي سرنى ،
وقد أتى ليخبر الدوق ان زوجها لاحق بها ، ولكنه يتأخر عن موعده
المعتاد . فقال له بلترو ، الا ما أنبأتني يا سيدي عما اذا كان الدوق يمر
الليلة بالنهر ؟

فأجابه دي سرنى بسذاجة قال ، بعد ساعة او ساعتين . فلما غاب
دي سرنى ساق بلترو جواده الى صف من شجر الجوز كان يمر الدوق بها
عندما يقصد الى مكنه . اما جواد بلترو فقد اشتراه بالدنانير التي أعطاه
ايها الاميرال . ثم انه صبر متظلا بالاشجار ، قابضا على غدارتيه وهما
اللذان اخذهما من الاميرال حتى أمسى الماء وامتد ستر الظلام وساد
السكون على البرية . وكان المحاصرون والمحصورون ساهرين لا يأتون
بحركة لئلا تنم على مقاصدهم .

هذا وبلترو يضطرم لجاجة ويرصد أقل حركة . واذا به يسمع وقع
حوافر جواد . وأقبل الدوق منحيا على رقبة جواده مفكرا في الخطة التي
يتخذها غدا للهجوم على أعدائه .

وإذا بطلقتين قد دوى صدهما ، وأصيب الدوق في كتفه فارتسى على ظهر جواده وهو ينعظم قائلاً ، كان ينبغي أن أتوقع ذلك من أعدائي ، ولكنني ما ظننتهم يجرون ! وحاول تجريد سيفه إلا أنه فقد قواه ، فسار به جواده حتى مكنه وفيه تلقته زوجته الدوقة باكية .

ولقد بذل الأطباء جهدهم فلم يجد الطب والدواء ، فمات الدوق بعد ستة أيام متغفراً من زوجته بعدما أقر لها بأنه لم يكن على الدوام زوجاً صادقاً . ثم قال ، أنه لم يكن يتمنى إلا أن يعيش بسلام مع جميع أعدائه ، ولم يباشر قتالاً إلا لمجرد خدمة ربه . واحتفلوا بجنائزه احتفالاً يندر مثله ، ولبت عليه باريس ثياب الحداد أياماً عديدة .

أما بيلروفانه ركب جواده بعد أن فعل فعلته فسار به يوماً كاملاً في الهول والجبال . ثم رقد حتى الصباح عند طاحون . فهجم عليه هناك بعض الجنود وأوثقوه دون أن يدي أقل معارضة ، وساقوه إلى باريس حيث صدر الحكم عليه بالإعدام .

أما الكاثوليك ، فقالوا أنه من خدم الشيطان ، وأما البروتانت فشهدوا بأنه من أولياء الله ، وذكروه في صلواتهم .

على أنه أعدم في « ساحة جريف » وجرت الخيل على مرأى جمهور غفير من سكان باريس ، كانوا يصفقون بالكمهم مبتهجين بعذابه وهلاكه الوحشي . ورفع الحصار عن أورليان ثاني يوم وفاة الدوق دي جيز .

الخلاصة

واستتب الامر للملكة الوالدة ، فاطلقت أمير كونددا من الامر واستفكت مونسوراني من البروتستانتين ، ولم يكن ذلك بالامر الصغير بعد موت الدوق دي جيز .

ثم ان كاترين عقدت صلحا في « ابواز » في اليوم التاسع عشر من شهر مارس (اذار) سنة ١٥٦٣ وأهم شرط من شروط ذلك الاتفاق ان للبروتستانت ان يقيموا شعائر دينهم ومذهبهم في كل مدينة ، الا باريس .

وفي اثناء التوقيع على عقد الصلح أقام جالو لصديقه الوفي نرولوس قبرا ثم عكف على هوى حبيته مارسلين أرملة المحامي افنيل .

اما استاذة برنابا فقد كد ذهنه في تصنيف سفر عن خسر فرنسا ، ولا سيما الصادرة من أقطارها الجنوبية .

واستراح أمير كونددا من عناء الحروب ، واهتم الاميرال صديقه بأن يوقع الامير دي كونددا وكاترين على عقد الصلح في القريب العاجل . وكان بعض أعيان الكاثوليك قد اتهمه بأنه أشار على بلترو بقتل الدوق ، فاحتج علانية على تلك التهمة الباطلة . اما الكردينال دي لورين ، شقيق الدوق دي جيز ، فتولى ادارة شؤون أسرته القديرة الكبيرة .

ثم ان جاليو طلب الى مارسلين الاقتران به فامتنعت بحجة ان والدته قد تأبى ، غير ان جاليد أخبر والدته ان مارسلين أنقذته من الموت ، فقبلت . واقامت لزواجهما حفلة جمعت الكاثوليك والبروتستانت ، فلما سار جاليو بعروسه قال لها ، واحسرتاه على صديقي ترولوس ، فلو كان حاضرا لتم سروري . فقالت مارسلين ، تناس أيها الحبيب تلك الاوقات ، وعسى ان لا يفسدك القرنباويون دماء القرنباويين بعد اليوم . . . ان الملكة كاترين تحب السلام ، ولا شك ان السلام سيدوم زمنا طويلا . فقال جاليو ، عسى ان يقدر الله ذلك ، ويدوم السلام .

كان ما ذكرناه في سنة ١٥٦٣ ولكن بعد تسعة اعوام ، وكان شارل التاسع قد جلس على عرش آباءه ، وقعت « مذبحه سن برتلموس » وقد أمر بها الملك بعدما حرضه عليها والدته كاترين دي مديس وآل جيز في ليلة ٢٤ اغسطس (آب) سنة ١٥٧٢ .

وتعد تلك المذبحة أشد التوازل التي نزلت بفرنسا ، وقد دامت أياما ، ذبح فيها جمهور غفير من الرجال والنساء والاولاد والاموال ، حتى تضرجت كل فرنسا بالدماء . ولم يكن من سبب في سفكها الا التعصب الديني الذميم دون سواه . وذبح في باريس زعماء البروتستانت ، ولم ينج أمير كوندان من تلك المذبحة الا بانكار مذهبه . وقتل فيها كوليني وغيره من الزعماء المشهورين .

وقامت يومئذ مجزرة في قصر اللوفر منذ الساعة الخامسة صباحا والبروتستانتون نيام . فوجئوا مفاجأة وهم في مخادعهم ، بعد ليلة قضاها مع الملك يشاطرونه فيها مسرة اللهو واللعب . فانتزعت منهم أسلحتهم ، وحزّت أعناقهم حزا كأنهم أغنام . وقيل ان شارل التاسع كان ينظر الى تقطيعهم من نافذة القصر . ومما لا شك فيه ان اولئك الماكن الذين قتلوا

بسبب التعصب الوثني كانوا أشجع رجال فرنسا وأصدق قوادهم
وزهرتها ، ونخبة المصلحين فيها ! ومات شارل التاسع ملك فرنسا سنة
١٥٧٤ وهو يعرض أصابعه حرة وتندما على ما حصل .

فقاتل الله التعصب ، انه كان ، وما يرح ، آفة كل اصلاح ، وعدو كل
صلاح وفلاح .

— انتهت —